أصول الحضارة الشرقية

تأليف

ولتر فيرسِرفس



ترجمة : رمزي يسى

مراجعة : الدكتور أنور عبد العليم



الكرنك

الألف كتاب (٣٠٤)

أصول الحضارة الشرقية

بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم
الإقليم الجنوبي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة المجلس الأعلى
لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب (٣٠٤)

أصول الحضارة الشرقية

تأليف

ولتر فيرسرفس

ترجمه

رمزي يسي

راجعه

دكتور أنور عبد العليم

١٩٦٠

الناشر

دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع

عمارة رمسيس - ميدان رمسيس (باب الحديد) القاهرة

هذه ترجمة كتاب :

THE ORIGINS OF ORIENTAL CIVILIZATION

تأليف

Walter A. Fairservis, Jr.

الناشر

The New American Library 1959

تمهيد

تضم الصفحات التالية بعض الحقائق و بعض الاستنتاجات الحدسية عن عصور ما قبل التاريخ فى شرق آسيا . وحيث توجد الحقائق فهى مستمدة من علوم كثيرة ألف بينها البحث ، أو هى مستخرجة من المجموعات المختزنة فى المتاحف . أما حيث يكون الاستنتاج الحدسى فهو منبعث قدر الطاقة من الحقائق . ومع ذلك ، فإن سعة الموضوع و النقص الذى يعتور الدليل بوجه عام ، والعجلة العجيبة التى يتسم بها البحث فى العصر الحديث ، كل ذلك يجعل أية محاولة لتلخيص عصور ما قبل التاريخ فى الشرق عملا بالغ الصعوبة .

ومع ذلك فإن مثل هذه المحاولات قد حدثت فى الماضى ، وسوف تستمر فى المستقبل حتى يحين ذلك اليوم المرتقب ، يوم لا تدع الحقائق مجالا للتخمين . وتلك إذن محاولة أخرى تجرى فى هذا الطريق . وخشية أن يدهش القارئ لاضطرارنا إلى اللجوء إلى التفكير النظرى عند سرد تاريخ نملك البرهنة عليه ، فلا بد لنا من توضيح طبيعة ذلك الدليل .

إن الزمن ولازمتيه : التآكل والانحلال ، تشترك جميعاً فى محاربة الإنسان وثقافته فى قسوة بالغة . ولا يصدق هذا القول على أى مكان آخر صدقه على شرق آسيا لأننا حين نتحدث عن ثقافات ما قبل التاريخ فى تلك المنطقة بوجه عام ، إنما نقصد فى حقيقة الأمر حفنات من الخزف المهشم والأحجار المرسومة ، وشظايا العظام التى يعثر عليها رجل الآثار فيستخدمها فى تشخيص قوم من الناس و استعادة بناء حضارتهم . وهى هدية رفيعة لعلم الآثار بوصفه علما ، ذلك أنه على

أساس مثل هذه الأدلة القليلة نُروى تاريخ الثقافة الإنسانية من جديد ، لا على أنه رأى نظرى ، ولكن بوصفه تفسيراً صحيحاً لهذه الأدلة القليلة . ولقد أجملت فى فى هذا البيان — بين حين وآخر — بعض المشكلات وما نشأ حولها من جدل بين العلماء الذين وقفوا حياتهم على إعادة بناء قصة الماضى . ومن الجوانب اللامعة فى هذا الموضوع ، أن الجدل حوله يؤتى ثماره إذ أن النضال فى سبيل الحقيقة لا يقف عند حد .

لقد كان تقدم الثقافات فى عصور ما قبل التاريخ مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بوسائل الحصول على الطعام وأساليبه ، إذ أن جزءاً كبيرا من قصتنا أى قصة تقدم الثقافة فى شرق آسيا — يعتمد على انتشار الزراعة ، وهى وسيلة إنتاج الطعام التى ترعرعت أول ما ترعرعت فى الشرق الأدنى ، وربما كان ذلك فى الألف السابعة أو الثامنة قبل الميلاد . وكلما تقدمت الزراعة نحو الشرق أزاحت من طريقها ثقافات الصيد ، وهى بقايا العصر الحجرى . وكان أول من احترف الزراعة هم زراع الحبوب ، ولذا فإن مجالهم كان محددا تحديداً مباشراً بالمناطق المناخية ، ففى الشمال ، حيث الغابات الباردة ، وأقاليم التندرا ، تساعد الظروف على قيام الزراعة، وإلى الجنوب حيث الأقاليم الحارة الرطبة المدارية والشبيهة بالمدارية كأقاليم : جنوب الصين ، والهند ، وجنوب شرق آسيا وإندونيسيا . . كل هذه لم تكن أيضاً ملائمة لنمو القمح والشعير أو الدخن ولكن يبدو أن زراعة الأرز ربما كانت قد تقدمت فى الصين فى الألف الثانية قبل الميلاد فكانت هذه خطوة كبرى لأنها فتحت أقاليم فسيحة فى الجنوب أمام الفلاح النظامى ، وأدت إلى نمو السكان والثقافة على مدى منقطع النظير وانتشرت زراعة الأرز من اليابان إلى حوض الكنج حيث اختلطت بالقمح الذى ينمو فى الجنوب والغرب . وفى

عصر المسيح أخذت مناطق الصيد تتحول فى الجنوب إلى حقول الأرز التى يعيش عليها إلى اليوم الملايين من سكان آسيا .

لقد كانت هذه التغيرات عميقة ، ولما لم يكن نمو الثقافات القائمة على إنتاج الطعام متجانساً ، فقد بزت بعض الأقاليم فى حضارتها البعض الآخر .

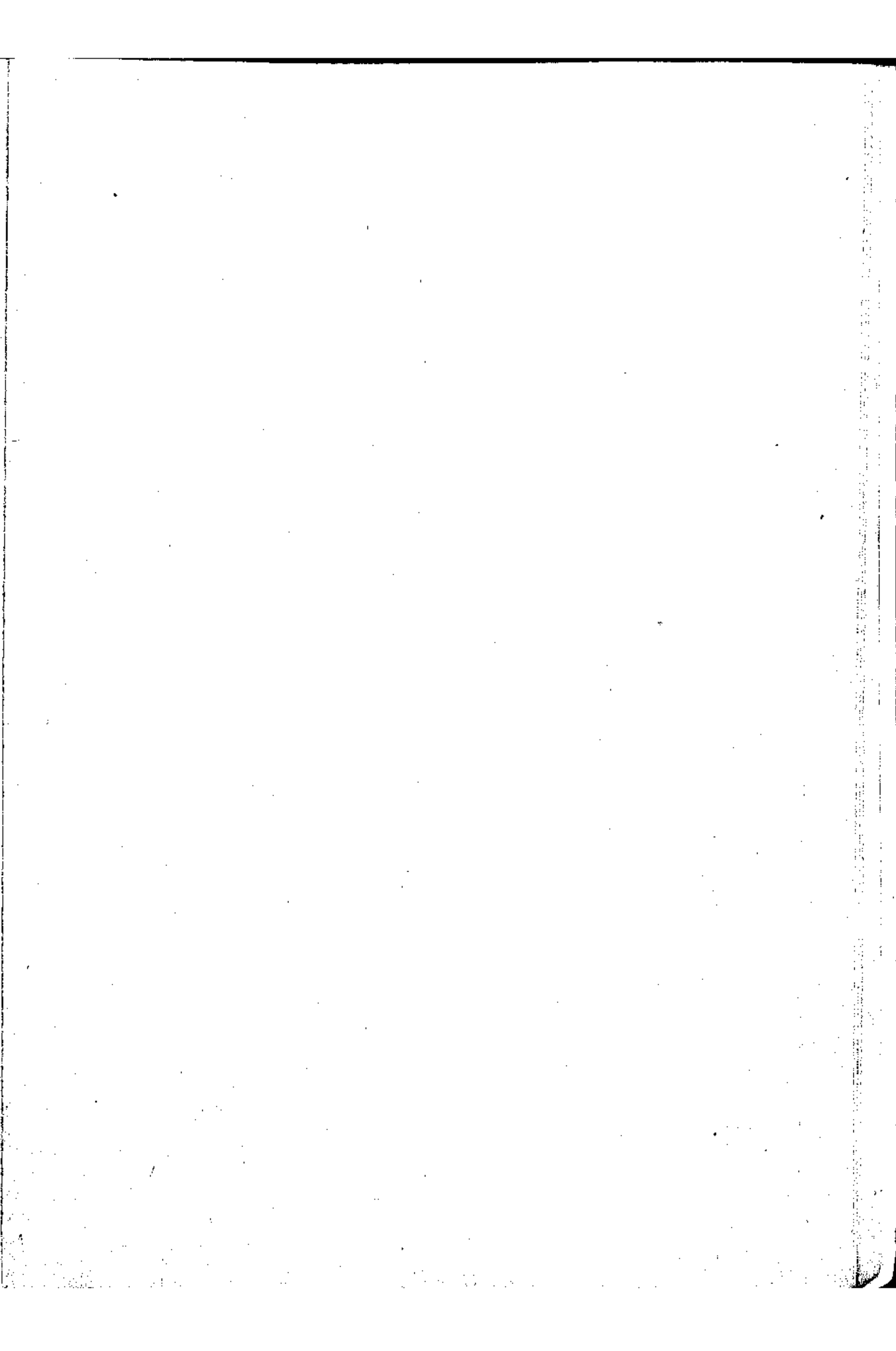
ونمت فى بعض الجماعات الزراعية مميزات ذاتية جعلت الواحدة منها مختلفة عن الأخرى . . فقصة هذه الثقافات المتطورة هى بعض أجزاء القصة الكبرى التى دوناها فى الصفحات التالية . .

لقد منح شرقى آسيا الجنس البشرى الشيء الكثير فى الصناعة والدين والأخلاق والفن . . . فهو منطقة خطيرة — وستظل كذلك — بالنسبة للعالم المتحضر . وإنا لنقف فى دراستنا لهذا الإقليم على عتبة الفهم فقط ، فعلم الآثار مثلا لم يكد يبلغ سن الرشد ، ولاشك أن كثيراً من النظريات الخاصة بالماضى سوف تتغير كلما سار البحث قدما ، فنحن إذن على شفا الوقوف على أشياء كثيرة سنجد فيها الإثارة والغموض .

ولا أستطيع أن أدعى أنى أوفيت البحث حقه كما يجب أن يكون فى هذه الصفحات . وما من شك فى أن كثيراً من الآراء التى أوردتها ستكون مثار اعتراض ، لا سيما وأن أدلة جديدة تظهر كل يوم .

وبهذه المناسبة أسجل شكرى على المقترحات التى قدمها الدكتور هارى ل. شابيرو ، والدكتور جوردن إكهلم ، ومستر پول تولستوى ، الذين قرءوا أجزاء من أصول هذا الكتاب — وجدير بالذكر أنهم غير مسئولين بأية حال من الأحوال عن الآراء التى ضمنتها فى هذا الكتاب ، وإنى لأسجل عظيم التقدير للمعاونة التى قدموها إلى :

أما زوجتى پان ، فمسئولة عن عمل الخرائط والرسوم ، وهو عمل ليس بالهين .



١ – الوحدة واليوتوبيا

تنتشر فوق الإقليم الجغرافي الفسيح المعروف بشرق آسيا عدة شعوب متحضرة بعضها حديث العهد جداً ، وبعضها الآخر قديم يرجع إلى عصور موغلة فى القدم . ويشغل كثير من هذه الشعوب مساحات واسعة من الأرض ، ويشغل بعضها الآخر حيزاً صغيراً للغاية . ويعيش بين هذه الشعوب جماعات من الناس يخالفونهم فى التقاليد واللغات والعادات ، بل وفى الجنس . وتصل إحدى هذه الجماعات عادة إلى الحكم بفضل كثرة عدد أفرادها وقوتها السياسية ، وهى تميل إلى تطويع مميزاتها الثقافية المشتركة وجعلها مواءمة للطابع الشعبي العام ، وبذلك تختفى الخصائص الجنسية التى تميزها ، ولكنها لا تنجح مطلقاً فى إخفائها إخفاء تاما . ومع أن كل شعوب العالم تبرز ما اختلط بثقافتها فى أصولها البعيدة ، فإن شعوب آسيا تبرزه بطريقة محيرة فى غالب الأحيان .

إن الأطراف الميتة قليلة فى آسيا ، فليس بها رءوس كرأس هورن أو رأس الرجاء الصالح حيث لا يمتد وراءها غير البحر المنبسط الممتد إلى القطب الجنوبى ، ولكن فى آسيا يبدو دائماً أن ثمة شيئاً « وراء الحدود » ... طريق يؤدى إلى عوالم الأدغال أو المراعى أو التندرا أو إلى سهل خصيب ، كيفما كانت الحال . وفيها حواجز هائلة تتمثل فى الصحراوات الغامضة أو الجبال التى تعتبر أعلى جبال فى العالم ، ولكن ليس هذا كله نهاية المطاف ، بل هنالك بواعث أخرى تدفع إلى بدء رحلة جديدة مختلفة إلى « ما وراء الحدود » ... وقد يكون هذا الشىء الكائن « هنالك » نائياً بعيداً عن الملايو Malaysia عن طريق جزر التوابل حيث ينتهى

إلى استراليا ، وقد يكون فى الانتقال من واحة إلى واحة عن طريق سهل الكنج الفيضى ، أو ممر نهر السند ، وربما يكون عن طريق الجزر المتقاربة حتى اليابان ، أو عبر بوغاز ضيق إلى العالم الجديد . ولكن « هنالك » هذه توجد تقريبا فى كل مكان من آسيا .

هنا يكمن إذن تفسير الطابع المميز لشعوب شرق آسيا ، إذ أن كل شعب من شعوب هذه المنطقة يعد ممرأ أو قنطرة بين « هنا » و « هنالك » . ويستطيع الإنسان أن يقول مطمئنا ودون أن يخشى معارضة : إن كثيراً من الشعوب ،وطائفة من الثقافات مرت بهذا الطريق ، بصرف النظر عن المكان الذى يقف عنده المرء، سواء أكان هذا المكان على ضفاف « هوانج هو » أم ضفاف « سلوين » ..وقد يكون السير خاطفا كما يفعل فرسان منغوليا ، أو الحجاج البوذيون فى الصين ، أو قد يكون الناس والثقافة قد اجتازوا المكان فى بطء شديد ، وقد يكون مرد هذا التعويق منطقة غنية كما هى الحال مع بعض أجناس الزنج التى تقطن الملايو ، أو تربة خصيبة تغرى فلاحا إيرانيا بالقعود . ولكن مهما كان نوع هذا المسير فإن عملية الزمان لا تتوقف، ولا بد أن تمر القافلة كما مرت قوافل أخرى من قبل.

وهناك صفة أخرى لشعوب شرق آسيا تميزهم عن غيرهم من الشعوب ، ففى أقاليم أخرى من العالم ، نرى الحديث فى معظم الأحوال يحل محل القديم ويمحوه تماما حتى لا يكاد أن يعثر على آثار الماضى إلا أكثر الناس فطنةوذكاء . وشعراء الشرق وفلاسفته يصمون الغرب بكلفه بالتغيير .. وشعاره فى نظرهم « اطمس القديم وابدأ الجديد » وكم يكون قاسيا على الغرب أن يدرك أن هذه النظرة تناقض فى جملتها الأفكار الشرقية ! وذلك أن القديم فى شرق آسيا يوائم على وجه من الوجوه بين خطوه وبين الخطو الحديث ، ولا تزال بعض مظاهر الماضى حية باقية

إلى اليوم تذكرنا به . فالأسرة التي ذهبت ريحها باقية في الأسرة الحاضرة ،وأصول المذهب الحيوى الذى نشأ منذ أقدم العصور لا تزال ممثلة اليوم ، ليس فى الأدغال فقط ، ولكن أيضا بين البقية الباقية من الأقوام البدائيين ، عند الهندوكية الحديثة وتابعتها البوذية . والجمل والسيارة لايزالان يحتفظان بمكانهما الخالد بجانب سيارات النقل وسيارات الركوب ، والجديد فى آسيا ليس عامل العدمية الذى يمحو لون القديم ، ولكنه شيء آخر ربما كان أشد قوة ... إنه لون جديد يضاف إلى عشرة آلاف من الألوان والظلال الخفيفة التى سبقته . ومنذ آلاف السنين اختلطت عناصر جديدة من الناس وضروب من الثقافات إبان اجتيازها ممرات آسيا واندمجت لحظة أو ساعة بعناصر أقدم منها ، ثم تابعت سيرها فى أنماط جديدة إلى أقاليم أخرى بعد أن ترك كل عنصر بعض سماته إبان مجيئه وفى أثناء رحيله فأدى بطريقته الخاصة إلى تمييز الشعوب التى قدر لها أن تظهر .

ولما كانت هذه الشعوب تهدف إلى المحافظة على كيانها فى العالم الحديث فإن ثمة صراعا بين التراث الماضى العميق الذى لايزال ماثلا فى حياة الشعوب اليومية وبين الفنون الحديثة والتقدم التكنولوجى الضروريان فى الحياة المعاصرة . وإذن فكيف نحالل هذه الأشياء دون أن ندمر خصائص الشعوب التى تعتمد إلى حد كبير على ذلك « الماضى الحى » ؟ وكيف نحافظ على تنسيق الخطى مع الغرب دون أن تصنع هذه الشعوب وحدتها الثقافية بوصفها أمة شرقية ؟ هذه هى مشكلات الوقت الحاضر .

ومع ذلك ، فلفهم هذه المشكلات فهما أكمل ، يجب على شعوب آسيا والغرب فحص الماضى فحصا موضوعيا لإدراك أصول الثقافة القومية ومميزاتها وفهمها وملاحظة كيفية تطورها ومدى أثر الشعوب المجاورة عليها فى طريق سيرها . . إن

هذا أمر أساسى لفهم المشكلة ، وفى مثل هذه الدراسة يجد علم الآثار مكانا محدداً وعمليا .

ويهتم هذا العلم بصفة خاصة بأصول العناصر المختلفة واختلاطها أو بما يطلق عليه سمات الثقافة الإنسانية . ومن الحقائق ذات القيمة الذاتية بطبيعة الحال ، وخاصة بالنسبة للعهود التى سبقت تيسير الكتابة هى تلك الحقيقة التى لا يستطيع أن يكشف عنها غير علم الآثار بعد مشقة وعناء عظيمين . وأبسط السمات وأكثرها ضرورة ، والتى لا يمكن أن توجد بدونها ثقافات أكثر تعقيداً وإحكاما هى تلك التى يكشف عنها المعول ، ونتيجة ذلك أنه يمكننا الإجابة عن الأمثلة التالية: كيف عاش القوم ؟ وكيف كانت مساكنهم ؟ وهل كانوا يفلحون الأرض أو يشتغلون بقنص الحيوان أو صيد السمك ؟ وهل كانوا ينحتون الأحجار ويقتنون المعادن ويتزينون بالجواهر ؟ وما حجم مجتمعاتهم ؟ ومتى اتصلوا بثقافات غيرهم ؟ إننا نستطيع أن نتقصى — أو على الأقل نأمل أن نستطيع تقصى — هذه الحقائق الأساسية عن أصول معاشهم فى المنطقة موضع التنقيب .

إن أصول مثل هذه الأشياء هى التى تجتذبنا ، حتى إذا ما أدركناها ، استطعنا البدء بملاحظة كيف تكون الطابع المميز لثقافة من الثقافات . وكل ثقافة مزيج من خصائص مكتسبة وأخرى أصلية ، وقد تكون هذه السمات مشابهة لسمات من ثقافة أخرى مجاورة لها ، ولكن نظراً لتباين السمات فى الدرجة ونوع الاستخدام فإنها ستظل أبداً مميزة لثقافة عن أخرى .

ولقد وضعت أسس بنيان إقليم شرقى آسيا الحديث منذ زمن بعيد قبل ظهور الكتابة . وإبان هذا العهد المعروف بعصر ما قبل التاريخ كان الامتزاج المستمر فى الأفكار ، والمواءمة بين كل ثقافة وغيرها من الثقافات قد خلق هذا التناسق الموحد العجيب فى الجنس والثقافة والبيئة الذى نظنه فى الوقت الحاضر مميزات

محلية أو إقليمية أو قومية ، ولكن الشيء الأهم من الاختلاف والتحول الثقافى الذى تقوم عليه شعوب آسيا الشرقية الحديثة . هو معنى ما حققته تلك الشعوب إبان عصر ما قبل التاريخ ، بالنسبة للتاريخ البشرى برمته فى كافة أرجاء العالم .

لم يمض وقت طويل منذ ابتدع العلماء التعبير « آسيا الأم » وذلك حين رأى هؤلاء العلماء بهذه الأرجاء الفسيحة من الأرض المعروفة بقارة آسيا موطنا أصليا لأنواع مميزة من الحيوانات والنباتات نشأت فيه ، ثم انتشرت فيما بعد فى جميع القارات فيما عدا الأقاليم القطبية الباردة . وبا كتشاف إنسان جاوة ، ثم إنسان بكين بعد ذلك ، ساد الاعتقاد بأن الإنسان نشأ أول ما نشأ فى آسيا ، وأصبحت الأجناس البشرية والثقافات الراقية فى العالم القديم ذات اتصال آخر بالفكرة القائلة : « بأن قارة آسيا كانت مولد البشر والحيوانات ، بل إن الحياة نفسها قد انبثقت من أرضها . . وكانت الأقاليم النائية المنيعة المنال فى وسط آسيا هى المنبع الغامض الذى منح الحياة ، والتكوين الشكلى لجميع الكائنات » .

ولكن هذه الفكرة الخيالية قد فُنِّدت فى الوقت الحاضر لسبب أساسى هو أن ما أمدتنا به القارات الأخرى قد أصبح مسلما به . ولكن برغم ذلك لا تزال بذور الحقيقة باقية وهى : أن بلاد الشرق الأدنى القديمة ، (جنوب غربى آسيا) ، كانت بقدر ما نعلم ، أقدم مركز لعصر ما قبل الحضارة ، بل والحضارة نفسها . ومن هذه المنطقة انتشرت ضروب من التقدم معادلة للحضارة نفسها إلى ربوع أوراسيا .

وبينما تكشف البحوث الأثرية النقاب عن الماضى الإنسانى السحيق ، نجد المناطق المتباينة التى تبدو كأنها كانت فى عزلة عن العالم القديم ، تميل إلى الاندماج فيما يشبه الوحدة ، وهى ظاهرة يزداد تلاميذ تاريخ الثقافة إدراكا لها . ومنذ عشرات السنين جرت العادة على اعتبار الشعوب الكبيرة فى العالم القديم كمصر

وبابل وآشور وفارس واليونان وروما ، وحدات ثقافية لم تأخذ إلا قدراً يسيراً من الثقافات الأخرى التى سبقتهـا أو عاصرتها . ولـكننا نعلم الآن أن تلك الثقافات كانت فى الواقع امتزاجاً وتطورا لخليط معقد من السمات ساهمت هذه الثقافات فى تـكوينها . وكل ثقافة من هذه الثقافات ترجع أصولها إلى ثقافة أقدم كما استعارت كل منها نصيباً وافراً من جارتها . ولم يحدث أن ظل أى تقدم عمرانى أو ازدهار فى الحياة الاجتماعية أو فـكرة أخلاقية فى عزلة . بل الواقع أن مثل هذه الأفكار قد تناولها التمحيص أو التغيير أو الإضافة كما استخدمها المعاصرون لها أو أحفادهم . والواقع أن كل ثقافة حملت ضروب التقدم التى حققها ماضيها وسارت به قدماً بعد أن أضافت إليه قليلا من ذاتها فسلمته برمته إلى الأحفاد الذين أضافوا إليه بدورهم. ولقد نجم تقدم لا إرادى يرجع فى معظمه إلى النشاط الإنسانى الجماعى ، وهوظاهرة ضرورية ، لا لتحقيق الحضارة فحسب ، ولكن لانتشارها فى أرجاء الأرض أيضاً .

إن القيصرأغسطس كان يستطيع أن يمشى فى قصر من الرخام شيده مهندسون معماريون من الرومان ، بيد أن فن تقطيع الرخام ، وشكل القصر كان كلاهما إغريقى النشأة يرجع تاريخه إلى عدة قرون مضت . وكان بوسع قيصر أن يعجب أيضاً بألوان الرسوم الرائعة على جدران قصره ، ولـكن كيمياء هذه الألوان كانت هى الأخرى قد نشأت فى مصر قبل عهد قيصر بأكثر من ألف عام . وكذلك معصرة النبيذ التى أتاحت له أن يملأ بالخمر كأسه السورية الصنع إنما كانت هى الأخرى من ابتكار أهل الأناضول . وحقول إيطاليا بغلاتها الموفورة إنما تدين وفرة غلتها إلى فن الزراعة عند السومريين منذ أكثر من ألفى عام مضت . لقـد كانت الثقافة الرومانية دون شك ثقافة « هجينة » (أى وليدة أصول مختلفة) ، ومع ذلك فقد اخترع الرومان الأسمنت وبناء القناطر ، وشرّعوا القوانين التى يمكن إضافتها إلى

السمات الأخرى التي تكوّن في جملتها التراث الحضاري الذي خلفه العالم القديم إلى عالم المستقبل ... لقد كانت هذه ولا تزال سنة تطور الثقافة على مدى الزمن .

ولو جمعنا أقاليم آسيا القديمة كلها في وحدة واحدة لأدركنا عظم المسافة ، وقد لا يكون من الصعوبة بمكان أن ندرك كيف عاونت بعض الثقافات القديمة في حوض البحر المتوسط البعض الآخر . ولكن ماذا كانت الحال بالنسبة للهند ؟ وماذا كانت بالنسبة إلى الصين واليابان وكافة الشعوب التي بنت ثقافات شرق آسيا ؟ هل كانت هذه « الحضارات » نتيجة أصول مستقل بعضها عن البعض الآخر ونتاج مناطق نائية عن عالم البحر المتوسط ؟ لا يزال هناك من يقول حتى اليوم إن هذا هو ماحدث فعلا ، ولكنا على ضوء معلوماتنا الحالية لا نستطيع إلا أن ننكر ذلك فقط ، والحقيقة أننا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك ، فنثبت أن هذه الثقافات كانت جزءاً جوهرياً من عملية التعاقب الثقافي نفسه كما كانت الحال بالنسبة للرومان . وبتلقي ثقافات شرق آسيا مؤثرات من جهات غربية أبعد من ذلك في العصور المتأخرة ، واستخدامها المخترعات وضروب التقدم بطرقها الخاصة المميزة لها ، ومعاونتها للعناصر الثقافية التي شقت طريقها غرباً إلى عالم البحر المتوسط — نتيجة لكل ذلك أصبحت هذه الثقافات تابعة لغيرها ومستقلة بذاتها في نفس الوقت ، في صورة تبدو متناقضة ، ولكن ارتباطها بهذه التبعية كان من النوع الذي يجمع بينها وبين الغرب في وحدة واحدة ، وذلك في تقدمها في مدارج الحضارة ثم في بلوغها إياها .

وهناك خطوات رئيسية قليلة للغاية للتقدم الثقافي من بينها خطوات أقل منها شأناً ظهرت في آسيا ، في الشرق أو في الغرب ، طوال تاريخ نوطن الإنسان في أية بقعة وقد عجزت هذه الخطوات التقدمية عن عبور القارة لكي تظهر في ثوب ما

على مسافة بضعة آلاف من الأميال من النقطة التى يظن أنها موطنها الأصلى ؛ وهذا صحيح سواء كان اهتمامنا بالاختراع أو الزراعة أو بفكرة الكتابة ، أو باستخدام البوصلة . والواقع أن بُعد المسافة وجغرافية المكان تعجزان عن الوقوف فى سبيل تقدم الإنسان ، وحتى الحواجز السياسية قد فشلت فى منع امتزاج الأفكار والأعمال الفنية .

وسنبحث فى الفصول التالية ظاهرة « الانتشار » بشىء من التفصيل ، أما فى هذا الفصل فينبغى أن نعرف أن الانتشار عمل معقد ، وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بما فى الشخصية الإنسانية من حيل وتعقيدات . وبينما يعمل قانون العرض والطلب فى ناحية ، تعمل العاطفة الإنسانية فى الناحية الأخرى . ولدينا فى العصر التاريخى قصة « تشانج — كين — « Chang - Kien» مبعوث بلاط « هان » الذى سار غرباً إلى فرغانة طلبا للخيول ولدواع سياسية أخرى ، كما أن ماركو بولو ومن على شاكلته رحلوا إلى الشرق فى القرن الثالث عشر لأعمال تجارية ، كما رحل الراهبان الصينيان : فاهسين (٣٩٩ — ٤١١ م) وهسوان تسانج (٦٢٩ — ٦٤٥ م) إلى الهند بحثا عن مزيد من المخطوطات البوذية والتثقيف العقلى وبينما دخلت بعثات جماعة اليسوعيين الأوربين الصين فى القرن السابع عشر والثامن عشر فى سبيل « مجد الله » ، ارتاد بدو أواسط آسيا الشرق والغرب بغية التوسع وبحثا عن الأسلاب على السواء . وليست هذه الأمثلة إلا نماذج لكثير من الأسباب التى اجتذبت الناس شرقا وغرباً وكثير من هؤلاء قنعوا فى أثناء الطريق بالمسير القصير فاستقروا حيث وصلوا ، فى حين قطع غيرهم الطريق كله من انطاكيا إلى كاثاى . ويذكر التاريخ كثيرين من هؤلاء الناس وانتشار أفكارهم . ولكن عصر ماقبل التاريخ يتوقف على عالم الآثار ، وهذا عاجز عن تسمية القبيلة والقرية والخيمة ، أو الأشخاص الذين

رحلوا إلى هنا أو إلى هنالك حيث اختلطوا بغيرهم من الناس ، ومزجوا وأضافوا ونشروا سمات الثقافة الإنسانية بشتى الطرق وفى مختلف العهود . ولنا نستطيع أن نصف أكثر من قدر قليل من البواعث الكامنة وراء هذه الأشياء ، فعلم الآثار هو الذى يزيح الستار عن نتائج هذا الاختلاط وعن قدر من الطريقة التى تم بها هذا الاختلاط ، أما الأسرار المغلقة التى تمثل على الدوام التفاصيل الإنسانية التى اجتذبت سكان آسيا وأفكارهم إلى صعيد واحد ، فقد أفلتت من بين أيدينا إلى الأبد .

ومع ذلك فنحن نستطيع أن نحدس ، ونحن نعلم أننا غير ممعنين فى الخطأ ، كما أننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن الحاجة، إلى تحسين الحياة الاقتصاديةوطلب المزيد من الراحة والقوةالعسكرية والنفوذ السياسى، وكذلك الضغط والنفى والهرب، والوهم والطمع والرغبة ، وشهوة التجوال والتنافس والعقيدة وما عداها — كل هذه الدوافع لا يمكن أن نغض الطرف عن واحد منها . . . لقد كان فى آسيا على الدوام أفق جديد يتطلع الناس إلى اجتيازه ، ووجد من غير شك أناس تطلعوا إلى « سعادة حقيقية »فيما وراء ذلك الأفق، وربما شاعت أيضا عن «جزانادو **Xanadu** شائعات أسبق من شائعات قبلاى خان بآلاف السنين .

إن تحسن طرق صناعة الأشياء ، وملمس النسيج الغريب الجديد ، والأزرار اللامعة ، وألوان الأقمشة المصبوغة ، أو الآنية الملونة ، واللحن الموسيقى ، والذوق المجاوب ، وشهرة إبراء المرضى ، والقدرة على التسجيل والتدوين ، وكثير من هذه الأشياء تجتذب الرجال وتدفعهم على الاشتهاء والاقتناع باستخدام الشىء الجديد، ولذا لم يكن عجيبا فى شىء أن يعلم الناس بعضهم بعضاً عند أول اتصال يحدث بينهم.

لقد كان مؤرخو عصر ماقبل التاريخ ، كغيرهم من المؤرخين الذين سبقوهم

على علم بازدحام أصول الثقافة الآسيوية ، لأن البقايا الأثرية والمصنوعات الحجرية تميل إلى حكاية نفس القصة التى رويت فيما بعد بالألفاظ . ويصف الدليل الأثرى أصل كل ثقافة ونموها فى كل منطقة من المناطق ، ثم يربط هذه الثقافات بالزمان والمكان ، فإذا ما اجتمعت كلها بدأنا بالاهتمام بتوحيد الأسس التى خططناها من قبل . وهذه الوحدة لا تميط اللثام عن شعب واحد فحسب ، ولكنها تحكى قصة تاريخ الإنسان برمته وليس علم الحفريات الخاص بشرقى آسيا من بين علوم الحفريات الناهضة ، إذ لا يزال متأخراً عن علوم الحفريات فى غرب آسيا وأوربا وإفريقية والأمريكتين ، سواء بوصفه علما ، أو بالنسبة لعدد الحفريات التى يمكن الاعتماد عليها . وعند قراءة الفصول التالية ، لا تستبين فيما سجلناه غير الثغرات الشديدة الوضوح ، ولكن ستبقى لدينا مادة كافية لإدراك الشكل العام لثقافة شرقى آسيا فى تلك الأزمنة البعيدة وهو شكل تدل مكونات هيكله على سعة الثقافات البشرية واعتمادها المتبادل العجيب كل على الأخرى فى كافة العصور .

٢ — الأسس القديمة

بدأت منذ أقل من مليون عام، عملية جيولوجية قدّر لها أن تلعب دوراً بارزا في تاريخ الأحياء وتاريخ الأرض التي تعيش فوقها، وكانت هذه العملية بداية « العصر الجليدى » أو « عصر البليستوسين » . وربما كان قد مضى نحو ستين مليوناً من السنين منذ عصر الزواحف حين كان حيوان الدينصور الشهير المعروض الآن في كثير من متاحف الأحياء يمرح على الأرض،وفى أثناء ذلك الزمن الطويل تكونت على وجه الأرض معالمها الأساسية الحديثة .

ويطلق على الفترة بين عصر الزواحف (الحقب المتوسط) وعصر البليستوسين العصر الجيولوجى الثالث ،ويقسمه الجيولوجيون إلى خمسة عصور فرعية هى : الباليوسين ، والأيوسين ، والأليجوسين ، والميوسين ، والبليستوسين . ويمكن أن يقال بوجه عام إن العصر الثالث يمتاز بميزتين رئيسيتين : الأول أنه شهد التواء القشرة الأرضية ، والثانية ظهور الثدييات وسيادتها على عالم الحيوانات .

فلقد تكونت جبال الألب وجبال روكى، وسلاسل جبال الأنديز إبان العصر الثالث على أن هذه المرتفعات ليست إلا أمثلة للارتفاعات التى حدثت فى كل مكان على وجه الأرض .

وحدث فى آسيا - إبان عصر الأيوسين - أن غمر بحر تيثز Tethys معظم الهند وتبت وتركستان وهضبة إيران . ووصلت الذراع الشمالية لهذا البحر منطقة المحيط المتجمد الشمالى مارة بشرق اسكنديناقيا مباشرة ففصلت مايعرف الآن بشرق آسيا عن قارة أوربا ،كما غمرت ذراعه الشرقية الشرق الأدنى ومنطقة البحر المتوسط

واتصلت بالمحيط الأطلسى ، وفصلت بالضرورة كتلة أراضى أوراسيا عن كتلة القارة الإفريقية .

ويمكن توضيح دائرة الالتواءات العظمى التى حدثت فى العصر الثالث أكبر توضيح بحقيقة هامة هى أن الصخور الأبوسينية الرسوبية لبحر تيثز يبلغ ارتفاعها الآن فى التبت ٢٠ ألف قدم فوق سطح البحر ، وأن تكوينات سلاسل جبال هيمالايا وكركورم وألطاى ومايتبعها من تفرعات رئيسية وثانوية كانت من أعظم المعالم تشخيصاً للعصر الثالث .

وتعد هذه السلاسل من أحدث السلاسل الجبلية على سطح الأرض ، وهى فى الحقيقة من حداثة العهد بحيث يغلب على الظن أن نموها لا يزال مستمراً . ومهما يكن الدور الذى تمر به تكوينات جبال هيمالايا فى الوقت الحاضر ، فمن الواضح البين أن عملية التآكل لم تستطع حتى الآن الانتقاص إلى حد ما من الارتفاع العام لهذه الجبال . ويبلغ ارتفاع هضبة التبت فى المتوسط ١٥ ألف قدم فوق سطح البحر ، ويصل ارتفاع بعض الممرات إلى ١٧ و ١٨ ألف قدم ، ولا يعد هذا الارتفاع غير عادى فى هذه الجبال . وتعلو فوق هذا الارتفاع الجبال الحديثة الآتية : إفرست ١٤١ ر ٢٩ قدما ، وكانتشانجونجا ١٤٦ ر ٢٨ قدماً ، وما كالو ٧٩٠ ر ٢٧ قدماً . وغير ذلك من الجبال العديدة التى يرتفع معظمها إلى هذا الحد ، وهى جميعا تعد نماذج بارزة للارتفاع الهائل الذى بلغته الصخور الرسوبية البحرية فى عهودها الأولى

ويطلق على سلسلة جبال هيمالايا أحياناً « سقف الدنيا » وأسباب ذلك واضحة وهى تستحق أن يطلق عليها « جدار آسيا » فقد يكون اسماً مناسباً كذلك . وإذا فحصت خريطة طبوغرافية متقنة لآسيا ، فإنك تلاحظ أن سلاسل جبال القارة تتجمع فى منطقة البامير شمال شرقى الهند وتتصل « بعقدة » البامير « سلاسل جبال

آسيا الرئيسية ، فإلى الغرب تمتد جبال هندكوش إلى جبال إلبرز والقوقاز ، وفى الشمال الشرقى تتصل جبال تيان شان بجبال ألطاى ، ومن ثم تمتد إلى ما وراء بايكال . وتمتد سلاسل جبال كركورم وهيمالايا بوجه عام شرقا على خط مستقيم بالنسبة «لعقدة» جبال البامير . ولهذه السلاسل الجبلية عدة فروع أهمها : كونلون التى تكوّن مع « ألطين طاغ » حدود التبت الشمالية ، وسلسلة « نان شان » التى يبدو أنها تنحنى جنوباً من محور شرقى – غربى ، ثم تمتد إلى الجبال الرئيسية فى جنوب آسيا الشرقى .

لقد أشرنا إلى أن « بحر تيثز » فصل قارات أوربا وإفريقية وآسيا بعضها عن البعض فى العصر الأيوسينى ، وحين ارتفعت الأرض فى العصور التالية تراجع البحر وتضاءل هذا الانفصال باتصال الأرض ، ومن ثم تهيأت الفرصة لحياة الحيوان وتحركه فانطلق فى حرية من منطقة إلى أخرى وأخذ بحر «تيثز» يتقلص شيئاً فشيئا حتى أخذ شكله الحديث المعروف بالبحر المتوسط . وبينما كانت هذه العملية تتم ، كانت أراضى أوراسيا الفسيحة تبرز إلى الوجود . وكان مناخ العصر الأيوسينى – الأليجوسينى» فى أوراسيا لطيفا فيما يظهر فنمت النباتات الاستوائية وامتدت إلى أقصى شمال تركستان الروسية وجنوب سيبريا ، كما امتدت أراضى الحشائش والغابات الكثيفة فى المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى . وكان معظم القارة يتمتع بمياه موفورة وكثر بها الحيوان والنبات .

لقد كان لتكوين الجبال أثر عميق على أروع نعيم أرضى ، وشهدت الحقبة الأخيرة من العصر الثالث تقسيم أوراسيا وتجددها بشكل مثير ، فتكون جبال هيمالايا عزل الهند عن بقية آسيا فأصبحت شبه جزيرة الهند وحدة جغرافية قائمة بذاتها ، أو شبه قارة ذات مميزات ومعالم ظاهرة نتيجة لعزلتها . وكان لا بد أن



شكل رقم (١)
خريطة أوراسيا إبان عصر الأيوسين
(عن جرابو ١٩٢٥)

يؤثر هذا العامل الجغرافى فى الثقافة البشرية فى العهود التالية تأثيراً بيناً، كما أثر عليها نمو النباتات وظهور الحيوانات فى عصر البليوسين.

وأوجدت عقدة جبال پامير وهضبة التبت وسلاسل جبال ألطاى وما جاورها من سلاسل جبال سيبريا مثل ستانوڤوى ويابلونوى — أوجدت حاجزاً جغرافياً بين شرق آسيا وغربها، وهو من الأسباب التى تجعل تسميتها « جدار آسيا » تسمية

ملاءمة بالنسبة للدور الذى أدته هذه السلاسل الجبلية لتاريخ القارة . ولعل تقسيم « كپلنج » الكلاسيكى للشعر إلى شرقى وغربى له أصل من چيولوچية العصر الثالث إذ لم يعد الانتقال من جهة إلى أخرى بالأمر الهين . والحقيقة أن هذا الانتقال لم يعد مستطاعا بالنسبة لأوضاع معينة فى الحياة . وكان لابد أن تزداد هذه الحقيقة وضوحاً — كما سنرى — لأنها أدت إلى تكوين « مناطق ثقافية » ذات مميزات طبيعية وبشرية كل منها لها معالم خاصة .

وكانت القشرة الأرضية إبان دور التقلصات المضاعفة واقعة تحت ثقل وضغط شديدين ، لأن الضغوط التى تقع على جهة ما ، ربما تسبب التواء عظيما فى الطبقات الصخرية ، فى حين أنها قد تؤدى فى مكان آخر إلى هبوط جسيم فى سطح الأرض لإيجاد نوع من التوازن . وجدير بالملاحظة أن هذا الأثر لم يتناول الجهات المجاورة للجبال مباشرة دون غيرها ، بل تناول فى الواقع قارة آسيا كلها . كما أن الالتواء المستمر فى القشرة الأرضية كان يصحبه انحسار مماثل فى مياه البحار ، وشقت أنهار آسيا العظمى مجاريها المعقدة فى الطبوغرافية الجديدة ، وأصبح مناخ القارة ومناطق الحياة فيها أكثر تباينا .

وتتميز جهات آسيا الداخلية بتلك المنخفضات الصحراوية وأشهرها صحراوات: جوبى وتكلا ماكان ، وداشت — أى — كافير — ويمكن وصف هذه المنخفضات جغرافياً بأنها منخفضات من العصر الثالث نشأت من تقوس القشرة الأرضية عند المركز ، بينما ارتفعت الجبال على امتداد حوافها . ويبلغ اتساع إقليم جوبى نحو ٦٠٠ ميل ، وطولها من الشرق إلى الغرب يزيد على ألف ميل ، وتقع فى هضبة آسيا الوسطى ، وتشتمل حدودها الشمالية على سلاسل جبال ألطاى وجبال إقليم ما وراء بيكال ، أما حدودها الجنوبية فهى جزء من مرتفع هضبة آسيا الوسطى

وسلاسل جبال نان شان التى تغطى التبت الشرقية . وتوجد إلى الشرق جبال خنجان القديمة بمنشوريا تحيط بها الحمم البركانية المتجمدة التى ترجع إلى العصر الثالث ، وهى جزء من ظاهرة الالتواء التى كانت سائدة فى ذلك العهد . أما سلاسل جبال تيان‌شان التى لابد أنها كانت تشمل المنخفضات الثانوية فى زنجاريا، وربما شملت أيضاً منخفضات لوب نور (تاريم) ، فهى خير مناظر لمرتفعات منخفض جوبى الغربية . ولم تتكون هذه المرتفعات دفعة واحدة ، بل على العكس يرجح وجود تباين كبير فى زمن حدوثها وفى شكلها . ويغلب على الظن أن جزءاً على الأقل من تضاريس منخفض جوبى وجد قبل العصر الثالث .

ويعد منخفض صحراء جوبى من ناحية أخرى نموذجاً رائعاً لدراسة التاريخ الچيولوچى لآسيا ، ولذا كان هذا المنخفض هدف البحوث الواسعة النطاق التى قامت بها بعثة (روى تشابمان أندروز) التى أوفدها المعهد الأمريكى للتاريخ الطبيعى فى عشرينيات هذا القرن ، ولهذا ظفر هذا الجزء بدراسة أدق من أية دراسة أجريت على أى منخفض من منخفضات آسيا . وقد بينت دراسات چيولوچيى البعثة وعلماء الحفريات أن الصخور الرسوبية كانت قد تراكمت إبان الجزء الأخير من عصر الزواحف (المعروف بالعصر الكريتاسى أو الطباشيرى) فى منخفض تكوّن فى عصر سابق له . وإبان العصر الثالث أخذ المنخفض شكله الحالى بحدوده ذات الارتفاعات العالية . وقد حملت عوامل التعرية صخوراً رسوبية إلى جوبى حيث تراكمت بكميات متفاوتة ، وفى أزمنة مختلفة حتى العصر الجليدى . ومع ذلك فمن المهم ملاحظة أن وفرة الإرساب فى العصور المتأخرة لم تبلغ ما كانت عليه فى العصور السابقة . وقد يفسر ذلك وجود اتجاه عام نحو الجفاف ، ورغم هذا يبدو أنه لم توجد فترة ما طوال العصر الثالث بأكمله بلغ فيها المطر درجة كبيرة

من الوزارة ، كما أن المناخ وفقاً لما انتهى إليه العالمان « بركى وموريس أى » (چيولوچيا بعثة أندروز المتقدمة الذكر) كان يختلف بين الجفاف وشبه الجفاف طوال العصر الثالث . وقد كان هذا من حسن حظ علماء الحفريات ببعثة أندروز لأن التكوينات الأولى للحفريات كانت مكشوفة عادة مما جعلها فى متناول أيديهم .

والشيء الذى يعنينا الآن هو جفاف منخفضات آسيا الوسطى ، فارتفاع الجبال له أثر حاسم فى المناخ ، فالجدار الجبلى يمكن أن يصد الرياح المحملة بالأمطار كما تصد جبال هيمالايا الرياح الموسمية التى تجتاح المحيط الهندى وتسبب هطول أمطار غزيرة على المنحدرات الجنوبية بينما تسبب جفافاً فى شمال التبت . وكذلك تدين الغابات المطيرة فى نيبال وآسام بوفرة نمائها لهذه الجبال ، كما يرجع جفاف أراضى سيكيانج القاحلة ذات الحرارة المحرقة إلى هذه الجبال نفسها وإلى سلاسل الجبال المتصلة بها، فمن الجلى إذن أن سلاسل الجبال فى آسيا هى العامل الرئيسى فى وجود ذلك النطاق الصحراوى المنخفض الجاف الممتد من منشوريا إلى أوكرانيا . والمنحدرات العليا للجبال المتاخمة هى وحدها التى تستطيع أن تحجز الرياح المطيرة ، ويترتب على ذلك اختلاف كمية الثلوج المتراكمة على قممها بحسب المواسم ودورات الجفاف والمطر .

وليس لرياح المحيط الهندى المحملة بالمطر ، المندفعة إلى القارة نتيجة لانخفاض الضغط فوقها صيفاً غير أثر قليل على أقاليم آسيا الداخلية بسبب هذه الحواجز الجبلية . وتحمل الرياح الشرقية أو الشمالية الغربية التى تهب من المحيط الأطلسى والمحيط المتجمد الشمالى المطر إلى جوبى أو إلى داشت — إى — كافير Dasht-i-Kavir . ولما كانت كتلة أراضى أوراسيا تمتد عدة آلاف من الأميال بين هذين المحيطين ، فإن الرياح الشرقية لاتكاد تحمل إلا قليلامن الرطوبة إلى هذه الأقاليم الصحراوية .

ولقد أتيح لى مشاهدة التباين الهائل بين منطقتين إحداها تصل إليها الأمطار الموسمية والأخرى تعتمد على رياح المحيط الأطلسى . فقد كنا نسير فى شهر يولية فى رحلة قصيرة إلى وادى السند بغربى باكستان ، وكنا بالقرب من مدينة بنجاب عاصمة مولتان ، وكان كل ما حولنا من نباتات شبه مدارية يانعاً غزيراً ، ولم تلبث السماء أن تلبدت بسحب كثيفة سوداء أخذت تتسابق فى سرعة كبيرة تجاه الشمال الشرقى ، وكان الهواء رطباً شديد الحرارة . وهطل فى هذه الأثناء أغزر مطر شهدته فى حياتى بين هدير الرعد و وميض البرق ، حتى لقد حجبت أستار المطر منظر الأرض ، وارتفعت مياه الجداول الموحلة فوق عجلاتنا حتى أصبح تقدمنا عسيراً .

وبعد مضى عشر ساعات ومسيرة أكثر من مائتى ميل ، وقفت فوق صخرة مروحيـة الشكل متدحرجة من منحدر جبل شديد الجدب . وكان الجو مبهجا صافيا ، والهواء حارا جافا ، فحاولت تبريد وعاء ماء فى نبع جبلى صغير يتدفق ماؤه من الصخرة . . كانت الخضروات مبعثرة هزيلة ذات أشواك ، وكان مركزنا آنئذ أمام «مولتان» مباشرة بإقليم الحدود الشمالية الغربية على ارتفاع ستة آلاف قدم فوق سطح البحر ، أو خمسة آلاف قدم فوق مركزنا الأول الذى كنا عنده منذ عشر ساعات مضت . وكانت هذه المنطقة الجبلية جزءا من منحدر هضبة إيران الشرقية فى قلب آسيا .

إن التناقض بين الإقليمين ملحوظ للغاية ، فلـكل منهما مقومات مناخه ومعالمه الجغرافية وبنائه البيئى ، وإنك تقابل هذا التناقض بصورة أوضح فى معظم جنوب آسيا .

وإذا تتبعنا الرياح الموسمية الصيفية فى شرق شبه جزيرة الهند ، فإنا نجد القسم الغربى من جنوب شرقى آسيا يتلقى أمطارا غزيرة ، ومزروعاته فى جملتها مدارية . أما الإقليم الشرقى من جنوب شرقى الهند فيتلقى بالتالى أغزر أمطاره فى الشتاء ،

تحملها إليه الرياح الموسمية الشرقية . ونباتات هذا الإقليم مدارية كذلك فى جملتها .
ويرجع الفضل الأكبر فى هطول الأمطار الموسمية إلى وجود الجبال الرئيسية بجنوب شرقى آسيا ، وهى التى تمتد من الشمال إلى الجنوب فى سلاسل منخفضة متفاوتة الارتفاع قلما يزيد ارتفاعها على ٨ آلاف قدم .

أما بورما وتايلاند والملايو وشرق الهند الصينية فتغزر أمطارها من إبريل إلى أكتوبر عند ما تهب عليها الرياح من الجنوب الغربى ، ويتلقى شرق الهند الصينية وجزء من جنوب الصين أغزر أمطارها السنوية من سبتمبر إلى يناير نتيجة للرياح الموسمية الشمالية الشرقية ، ورياح التيفون (الزوابع) من بحر الصين الجنوبى .

وإذا تقدمنا فى الصين صوب الشمال أو الشرق فإننا نجد أن جنوب الصين فى الشتاء تحميه الجبال الواقعة فى الغرب والشمال ، وينجم عن ذلك أن الرياح القطبية الباردة الجافة الآتية من سيبريا متجهة جنوبا فى شهور الشتاء تنحرف إلى سهل النهر الأصفر بالصين الشمالية مصحوبة بانخفاض فى درجة الحرارة وأتربة كثيرة تحملها من أواسط آسيا الجرداء مع قليل جدا من الرطوبة ؛ فى حين تهطل على الصين الجنوبية أمطار غزيرة نتيجة لهبوب الرياح الموسمية الصيفية عليها بعد مرورها ببحر الصين الجنوبى ، ولهبوب رياح التيفون التى تساعد بدورها على غزارة الأمطار .

والصين وعرة التضاريس بوجه عام وخاصة فى الجنوب والغرب ، فلا غرابة إذن أن تسقط الأمطار التى تحملها الرياح الجنوبية فى الجنوب ، فى حين أن الأمطار قلما تزيد على ٢٠ بوصة سنويا فى سهل الصين الشمالى . أما درجة الحرارة والضغط فتدرجهما واضح للغاية بين شمال الصين وجنوبها وذلك بالنسبة لتأثير القارة فى الشمال والمحيط فى الجنوب .

ولما كانت أراضى شرق الصين لاتبلغ فى أى جزء من أجزائها ارتفاع الجزء الغربى فإن مناخها أقل تأثرا بالجبال من أى جزء آخر فى آسيا ، فهناك الرياح الجنوبية تواجه الرياح الشمالية ، كما أن التغير المستمر فى تطرف الطقس الناتج عن تناقض المؤثرات الجوية كدرجة الحرارة والضغط والرطوبة الخ . هذا التغير يجعل الطقس شديد التقلب ، و لعل هذا من بين « مآسى الصين » لتأثيره المباشر على نمو الغلات وحدوث الفيضانات .

ولقد أثر تكوين الجبال خلال العصر الثالث فى استقرار الطقس ، كما رأينا، كما كان لهذه الجبال دور فى تنوع الحياة ، وقد بين الجغرافيون أن فى الإمكان تقسيم الكرة الأرضية كلها إلى مناطق وفقا لنوع الحياة ، أى مناطق جغرافية يكون فيها المناخ والتربة والحيوان والنبات من طراز مميز نظرا للصلة المعقدة بين كل منها والأخرى . وتميل مناطق الحياة هذه عادة إلى الامتداد عبر القارات فى شكل أحزمة يختلف عرضها وفقا لتدرج الحرارة ، ولذا نجد فى أشد جهات آسيا برودة ، كشمال سيبريا شتاء طويلا يحول دون نمو الغابات ونباتات الطقس الدفىء وحيوانه . فالبيئة إذن من نوع التندرا . ومن جهة أخرى تنمو غابات آسيا الشرقية المدارية بالقرب من خط الاستواء نموا غزيرا فى جو حار مشبع بالرطوبة فتهيىء الحياة لعشرات الألوف من الحشرات و الأزهار وضروب من الزواحف والبرمائيات والثدييات . ويوجد بين هذين الطرفين مناطق أخرى لكل منها مميزاتها الخاصة . ولقد قسمها الجغرافى « برستون جيمس » إلى ثمانى مناطق أو مجموعات نوعية هى :

مجموعة ١ — الأراضى الجافة .

» ٢ — أراضى الغابات المدارية .

» ٣ — أراضى غابات البحر المتوسط القصيرة الأشجار .
» ٤ — أراضى غابات العروض الوسطى المختلطة .
» ٥ — أراضى الحشائش .
» ٦ — أراضى الغابات الشمالية .
» ٧ — الأراضى القطبية .
» ٨ — الأراضى الجبلية .

وتعد صحراء جوبى وحوض تاريم وصحراوات تركستان وكيزل كوم وكرا كوم أمثلة جيدة من قارة آسيا للمجموعة (١) حيث يبلغ سقوط الأمطار ١٠ بوصات أو أقل ، ودرجات الحرارة فيها متطرفة والنباتات متباعدة والحياة شحيحة اللهم إلا فى المواسم أو الأماكن التى يتوفر فيها الماء حيث تميل الى التباين والتعدد بصورة تدعو إلى الدهشة .

أما أراضى الغابات المدارية (مجموعة ٢) فتزخر بطبيعة الحال بما يسكنها من حيوان كثير متصل (بما فيه الحشرات) ومن نبات موفور. وقل أن يزيد فرق الحرارة فيها بين الليل والنهار وبين الفصل والفصل على أربعين درجة . وأخص مايميز هذه الأراضى سقوط المطر الغزير المتواصل الذى يؤلف شطرا من كل يوم تقريبا من أيام السنة . ووديان الأنهار العظمى والأراضى الساحلية الكبيرة فى جنوب شرق آسيا وفى كثير من بلاد الهند واقعة فى أراضى الغابات المدارية كما سبقت الإشارة.

وتوجد أراضى غابات البحر المتوسط القصيرة الأشجار (مجموعة ٣) مبعثرة بشرق آسيا ولكنها نموذجية فى الشرق الأدنى . وهى تنمو على المنحدرات الغربية لسلاسل الجبال ، ويمتاز جوها بالحرارة والجفاف صيفا والاعتدال مع أمطار

متقطعة شتاء . أما الزراعة فمحدودة لأن ما يهطل من الأمطار على هذا النوع من الأراضي لا يزيد إلا قليلا على ما يهطل على الأراضي الجافة .

وتوجد أراضي الغابات المختلطة بالعروض الوسطى (المجموعة ٤) فى شرق آسيا بالجهات المنخفضة عند نهرى يانجتسى وهوانج هو ، وفى أودية أنهار صغيرة أخرى فى شرق الصين خاصة ، وهى أكثر مناطق الصين ازدحاما بالسكان . وهنالك كما قلنا تباين فى سقوط المطر بالصين يعتمد على الموقع وعلاقته بالرياح الموسمية أو الرياح العاصفة (السيكلون) . وتهطل أمطار غزيرة على أراضى(مجموعة٤) وتعد الأراضى الوطيئة الشرقية بأمريكا الجنوبية أمثلة حسنة لهذه المجموعة مع ملاحظة أن هذه الغابات خليط من الأشجار النفضيةوالصنوبرية ، وبالنسبةلاعتدال هطول الأمطار وجودة التربة وتوازن درجات الحرارة ازدهرت الزراعة فى هذه المجموعة ولذلك قامت بدور واضح للغاية فى تاريخ الإنسان . كما تعد أراضى (المجموعة ٥) ، أى أراضى الحشائش منطقة حيوية أخرى فقد ثبت أن ١٩٪ على الأكثر من سطح الأرض مغطى بالحشائش ، وبالنسبة لتوسط هذه الأراضى بين الأراضى الجافة والغابات فإنها تؤثر على الصحراوات المتاخمة للسهول التى يبلغ هطول الأمطار عليها غالبا نحو ١٠ إلى ٢٠ بوصة سنويا ، ولذلك لا تستطيع الرطوبة أن تصل إلى أكثر من عمق التربة السطحية التى لا تسمح إلا بنمو الحشائش ، ومن ثم تقاوم الظروف الصحراوية ، وتمتد السهوب العظمى من البحر الأسود إلى ألطاى ، وهناك سهوب أقل اتساعا فى منحنى أردس Ordos فى هوانج هو وفى منشوريا ، فحيثما وجدت الظروف المساعدة على الرطوبة بالقرب من الأراضى الصحراوية وجدت حشائش البرارى الطويلة ، ومع ذلك فلا توجد البرارى فى شرق آسيا إلا على نطاق ضيق غير واضح نسبياً فى شقة من أرض منشوريا .

وتتسم الغابات الشمالية (المجموعة ٦) بشتاء قارس طويل وصيف يميل إلى البرودة ومدى الحرارة فيها ملحوظ للغاية ، وهى متطرفة تطرفا عظيما تحت الصفر ، وهذه حالة شائعة فى مثل تلك المناطق كشمال شرق سيبريا إذ سجلت درجة الحرارة مثلا ٩٣٫٦° فهرنهيت تحت الصفر فى فبراير سنة ١٨٩٢ بمدينة ڤرخوينسك بشمال شرق سيبريا . وفى يولية سجل الملاحظون هناك درجة حرارة ٩٣٫٥° فوق الصفر !! . ومناخ الغابات الشمالية قارس يكفل هطول أمطار متقطعة صيفاً ما عدا الجهات القريبة من السواحل حيث يتراكم الجليد ، أما الشتاء فجاف . ويلجأ إلى الغابات النفضية فى الغالب كثير من حيوانات الصيد ذات الفراء مثل السمور والدب والسنجاب وكلب الماء ، كما يوجد بهذه المنطقة الأيائل والوعول والرنة . ويطلق على هذه المجموعة عادة اسم « تايجا Taiga » وخاصة إذا كانت كثيرة المستنقعات ويلاحظ أن مساحة واسعة من سيبريا تقع فى التايجا هذه .

وتمتد الأراضى القطبية (مجموعة ٧) من المناطق المنعدمة النبات إلى مختلف مناطق التندرا حيث تنمو بعض الشجيرات المنخفضة فى الأماكن المحمية ، أو الطحالب والأشن [1] فى نقط متفرقة مكشوفة نمواً غير مستقر . ويمتاز مناخ هذه المنطقة بطبيعة الحال بقسوة البرد وطول الشتاء . وتلعب الثدييات البحرية دوراً كبيراً فى الحياة الاقتصادية عند سكان الأراضى القطبية مع أن كثيراً من حيوانات التايجا تهاجر إلى التندرا فى مواسم معينة . ومما يبعث على الدهش وجود كثير من الحشرات ـ ليس أقلها البعوض ـ فى تلك المنطقة . وتقع الأراضى القطبية بأقصى الشمال سيبريا ، وتمتد امتداداً كبيراً إلى الشمال الشرقى حيث تصل إلى شاطىء المحيط الهادى .

---

(١) الأشن جمع أشنة وهى نبات يتركب من طحلب وفطر يعيشان معيشة منفعية متبادلة (المراجع) .

أما الأراضى الجبلية (مجموعة ٨) فتشذ عن قاعدة التوزيع الأفقى للحياة فى المناطق المختلفة لأن هذه المناطق توجد فى كل مكان وفق فكرة بنائية فنية ، أما التوزيع الرأسى للنباتات الملائمة لمنطقة الجبال فله أهمية خاصة . ومن اعتاد تسلق الجبال يدرك بوضوح تغير المناظر الطبيعية كلما ارتفع إذ يجد بين سفح الجبل وقمته مناطق من النباتات مطابقة تماما لمعظم مناطق الحياة التى يمكن أن يقابلها الإنسان فى أثناء سفره شمالا فى خط مستقيم من نيويورك أو بكين . وفى نيبال يستطيع الإنسان أن يبدأ رحلته من منطقة الغابات المدارية إلى أن يبلغ المنطقة القطبية مع الرحالة «هيلارى وتنزنج [1] » فوق خط الثلج الدائم على قمة إفرست ، وهذا يعادل إلى حد قريب جدا الأحوال البيئية التى يدركها شخص يسير شمالا من هنج كنج إلى شبه جزيرة « تشوكتشى » فى سيبريا .

أما على أطراف هذه المناطق الحيوية فتوجد منطقة قلما يمكن تحديدها تحديداً دقيقاً ، لأن وجود مناطق انتقالية يعد قاعدة أكثر منه استثناء ، وذلك لأن أطراف الغابات قد تمتد داخل الأقاليم المجدبة فى أثر نهر كالنيل أو السند ، وقد تختلف الأماكن المحلية عن التقسيم العام لإقليم من الأقاليم جغرافيا وحيويا بالنسبة لظروف جغرافية شاذة . وخير أمثلة لذلك الجبال أو حتى التلال التى يسبب ارتفاعها هبوط درجة الحرارة وتغير كمية الرطوبة فى مكان ما عنهما فى الجهات المحيطة به بالقياس على ما قد يحدث فى مناطق أخرى. ومن ثم فإن موقع التندرا يكون بأعلى جبال هيمالايا التى تعد من وجهة النظر الجغرافية على حدود الهند المدارية .

ومن الظواهر الهامة التى لاحظها علماء الأحياء والنبات ، طابع العزلة الذى

---

(١) مكتشف بريطاني مشهور استطاع أخيرا أن يصل إلى قمة إفرست ومنح لقب فارس (المراجع) .

تتسم به الحياة الطبيعية فى موقع جغرافى معين . فلو افترضنا وجود أقوام من الناس مختلفين عاشوا على منحدر تل إبان العصر الجليدى ، فإنهم يتغلبون على الجو البارد وحين يأخذ الجو فى الدفء عند تراجع الجليد ، فإن هؤلاء الأقوام بدلا من متابعة الجو البارد الملائم لحياتهم والانتقال إلى المنطقة الشمالية الباردة ، يصعدون إلى أعلى التل حيث يجدون هنالك مقابلا لهذه المنطقة . ثم يشمل الدفء بعد حين الأراضى الوطيئة ، وتقوم فيها حياة المنطقة المعتدلة أو المدارية ، ولما كان هؤلاء الأقوام قد أصبحوا على عادات راسخة فإنهم لا يستطيعون الهبوط من على التل واجتياز الأراضى الواطئة والاتصال ثانية بإخوانهم فى المنطقة التى انحسر عنها البرد والتى أصبحت الآن بعيدة عنهم . ومن ثم يبقون حيث هم منعزلين تماما فى مكانهم على قمة التل، وهم يميلون فى عزلتهم إلى التزاوج بذوى قرباهم دون غيرهم . ومع ذلك فإن بعضهم يتأقلم فى هذه المناطق المنخفضة وإن كان معظمهم يظل كما هو ، وبذلك تنشأ الجيوب أو « الواحات » فى مثل هذه الأماكن البيئية فى كل مكان من العالم وتظل أدلة حية على حالة المناخ فى العصور الغابرة .

ولقد اعتاد علماء الحفريات تسمية العصر الثالث بعصر الثدييات لأن أنواع الثدييات كانت هى السائدة خلاله ، ومع ذلك فإن تسميته بـ (عصر النباتات الزهرية) تعد كذلك تسمية مناسبة لأنه خلال ذلك العصر انتشرت النباتات المغطاة البذور [١] بكافة أشكالها المحيرة انتشارا سريعاً فوق سطح الأرض حتى ليبدو كأن ليس هناك غير أشد أنواع المناخ قسوة وأكثر بقاع الأرض جدباً يمكن أن يمنع مختلف الأشجار التى تسقط أوراقها فى مواسم معينه والشجيرات

---

(١) نباتات يغطى بذورها غلاف ، وهى تمتاز عن النباتات الأخرى ذات البذور العارية من الغلاف الظاهرى والتى تسمى معراة البذور مثل نباتات الصنوبر والأرز (المترجم) .

المزهرة والحشائش من الاستقرار فى التربة . وقد نتج عن ذلك أن غزرت النباتات المغطاة البذور غزارة امتدت من الغابات المدارية حتى التندرا وأخذت أشجار البتولا والقيقب والسنديان (البلوط) مكانها الجديد بجانب الأشجار المخروطية . وفى عصر الميوسين كانت الحشائش فى الأماكن الجرداء المتزايدة فى قلب آسيا تكون محيطات خضراء « منبسطة » واستضافت المناطق المتعدلة الحرارة والمناطق المدارية صنوفاً عديدة من الأزهار والشجيرات والكلأ والأشجار التى تنافس فى غزارتها غابات السرخس فى العصر الفحمى التى سبقتها إلى الوجود بأكثر من مائتى مليون سنة ، هذا إلى كثير من شتى فصائل النباتات التى تدل على غزو النبات للأرض ونمت وازدهرت على المنحدرات العليا للجبال وفى الصحراوات الجرداء والمستنقعات وعلى حدود القطبين، النباتات مغطاة البذور لسلامة تأقلمها، وصفة التأقلم فى النباتات هى التى تسمح للجغرافى أو عالم النباتات بمعرفة حالة الحياة فى شتى مناطق الأرض فى الأزمنة الغابرة والعصور الحديثة على السواء .

ولعل ذلك البساط الأخضر الذى ازدهر فى العصر الثالث كفل للحياة أساساً قد لا يضارعه أساس آخر فى تاريخ الأرض الطويل . ولا شك أن عالم الثدييات يدين بسيطرته على جزء غير قليل من الأرض لهذه النباتات الوافرة . ومن المؤكد أن انتشار ضروب الثدييات فى المناطق الجانبية من الأرض لا يمكن أن يكون قد حدث إلا نتيجة لهجرة النباتات إلى تلك الأماكن . وسوف تنضج هذه الحقيقة فى العصر الجليدى التالى حين كان بقاء النبات والحيوان غير مستقر .

لقد كانت أقدم الثدييات فى العصر الثالث بدائية للغاية، وهى تشمل الحيونات الجرابية marsupials والحيوانات آكلة الهوام isectlvozes والقرميات أو الثدييات القرمية (Creødonts و amblypods, Condylarth) وغيرها من الحيونات العليا

القديمة . وكانت القرميات من الحيوانات الآكلة اللحوم بينما كان النوعان الأخيران من آكلة الحشائش ذوات الحوافر أو الثدييات ذوات الأظلاف . وقد تزايد الاختلاف بين الحيوانات آكلة اللحوم فى أخريات العصر الثالث الأعلى .

ويرجح أن انتشار الحشائش فى مساحات واسعة بنصف الكرة الشمالى كان ذا أهمية كبرى بالنسبة للثدييات ، لأن هذه الحشائش كفلت لها غذاء من نوع معين وازداد تأقلم ذوات الحوافر بأراضى الحشائش حتى بلغ تنوع هذه الحيوانات أقصى مداه بالرغم من بقاء بعضها فى الغابات . وغمرت الأراضى الفسيحة المكشوفة بالأنواع الأولى من أجداد الحصان والفيل والجمل والخرتيت وغيرها ، وتطورت أسنان وحوش العصر الثالث إلى شكل مفرطح يلائم مضغ الحشائش الصلبة التى تعيش عليها ، وأكسبها تطور أقدامها ذوات المخالب أو الأصابع إلى أقدام ذات حوافر ، سرعة عظيمة فى الجرى الذى أصبح ضرورة مادية عندما تكاثرت عدداً ونوعاً فصائل الحيوانات آكلة اللحوم كالقط والكلب . وقد استخدمت هذه الوحوش القطعان الظلفية الوافرة ، مورداً لطعامها كما يعتمد الأسد الإفريقى اليوم على قطعان الماشية فى شرق إفريقيا فى طعامه .

واختلاف الحيونات باختلاف مناطق الحياة التى عاشت فيها من قبل ، أمر واضح للغاية إبان العصر الثالث، بل أصبح أشد وضوحاً عندما اتسع نطاق الارتفاعات الأرضية . كما ساعدت عوامل العزلة الناشئة عن هذا الارتفاع أو الحواجز الجغرافية على جعل التوزيع النوعى للحيوان فى أوراسيا أمراً معقداً ، ويرجع الفضل فى تخصص الحيوانات إلى بعض هذه العوامل الجغرافية على الأقل .

ومن أهم ضروب التخصص ، تأقلم الرئيسيات [١] بالحياة الشجرية (المعيشة

(١) الرئيسيات هى حيوانات ثديية راقية تشمل الليمور والقرد والإنسان (المراجع) .

فوق الأشجار) وبكل ما يتصل بها من حدة البصر وخفة الجسم ورشاقة اليد والقدرة على سرعة تحريك الأطراف. ويغلب على الظن أن مناطق الغابات المختلطة المعتدلة الحرارة ، ومناطق الغابات المدارية كانت أكثر ملاءمة للحياة الشجرية من مناطق الغابات الأخرى ، فالأخيرة بنوع خاص تمتاز بطبيعتها بوفرة جوزها وفاكهتها وخضرها وحشراتها ، ويبدو أنها أمدت الرئيسيات فى العصر الثالث بأوفر قسط من وسائل الحياة . ويغلب على الظن أيضاً أن هذه الرئيسيات (الحيوانات العليا) كانت أكثر ميلا إلى الازدهار فى الأجواء الدافئة منها فى الباردة .

وأقدم الرئيسيات كانت من فصيلة الليمور الشجرى ، ولكن عندما حل عصر الأليجوسين كانت هناك نسانيس صغيرة وأنواع من القردة استطاع علماء الحفريات القديمة استخلاص بقايا أجدادها العليا من رواسب عصر الأليجوسين والميوسين فى بلاد كالأرجنتين ومصر وكينيا (١)

وإبان الجزء الأخير من العصر الثالث ، كانت الأصول الأولى لكثير من أنواع الرئيسيات الموجودة فى الوقت الحاضر قد تطورت تطوراً تاماً ، ومن أهمها نسانيس الدريوبثيسين (Dryopithecine) الذى يماثل طرف ضرسه الطاحن ضرس الإنسان تماما .

ومن الجلى أن عدداً من الرئيسيات كان أرضياً (لا يعيش فوق الشجر) أكثر منه شجريا ، يدل على ذلك طبائع البابون والغوريلا . ونزوع بعض الحيوانات العليا إلى المعيشة على الأرض سمح لها بمزيد من القدرة على التحرك

---

(١) وجدت بقايا Homuneulus بالأرجنتين ، وبقايا Moeripithecus و Apidium و Propliopihecus و pliopithecus وغيرها فى مصر ، وبقايا Limnopithecus و Proconsul و Xenopithecus فى كينيا . وكلها أسماء لاتينية لحيوانات منقرضة من الرئيسيات .

خارج منطقة الحياة ، وهذا يدل على وجود الحيوانات العليا فى بعض المناطق المتاخمة للغابات مثل أرض المراعى (Veldt) أو أرض الشجيرات القصيرة (Park Lands) بجنوب إفريقيا وشرقها وبالهند . وتختلف ضروب التخصص التى نمت فى الحيوانات العليا اختلافا تاما ، فمن ذيل يستطيع القبض على الأشياء عند قرد العالم الجديد ، إلى مؤخرة ملتهبة جاسية عند البابون والقرد الإفريقى فى موسم التزاوج . وضخامة الغوريلا تجعل منها حيوانا أرضياً هائلا أكثر منه شجرياً بطىء الحركة ، بينما جمع الشمبانزى بين مهارة حياة الأشجار وخفة الحركة على الأرض .

ويظهر أن الإنسان كان دائماً يعيش معيشة أرضية ، فعلى الأرض اكتسب معظم قدرته على الحركة وحصل على أعظم الحوافز على العمل حينما مشى على رجلين [١] (ولا نذكر شيئا عن قدرته على الفهم) ، فنحن نعرف أن الإنسان يملك القدرة الفريدة على الانتقال من منطقة حياة إلى منطقة حياة أخرى ، وذلك بتطوير ثقافته تبعاً لهذا الانتقال ، وهو وإن اعتمد على ثمار الأشجار أو حشائش الأرض فإنه يستطيع أيضاً أن يجد وسيلة للحياة فى أى مكان آخر ، لأن الحياة كلها ميسرة تحت قدميه ، فمن الواضح إذن أنه فى نهاية العصر الثالث كانت الحيوانات العليا تعيش على الأرض كما تعيش على الأشجار ، ومع ذلك لا نستطيع أن نشير إلى حفرية من الحفريات العليا ونؤكد أنها من حفريات أسلاف الإنسان فى العصر الثالث ، ولكننا نستطيع على الأقل أن نحدس أن أسلافنا الأولين فى عصر البليوسين كانوا على الأرجح من سكان الأرض ولكنهم ممن تطور تكوينهم

---

(١) ترتب على المشى على رجلين واعتدال القامة تحرر اليدين عند الإنسان ثم اكتساب مهارات يدوية بعد ذلك ، وبالتالى ارتقاء مراكز الفهم والذكاء فى المخ . وكان ذلك فى نهاية البلايستوسين ، وهذه هى خلاصة النظرية التى تقول بارتقاء الإنسان عن باقى الرئيسيات .

(المراجع)

الجسمانى حسب مطالب الحياة على الأرض . كانت هذه هى الحالة القائمة فى ذلك العصر ، لا من حيث التطور التشريحى الذى انتهى إلى الإنسان الحديث ، ذلك التطور الذى أرهص به العصر الثالث ، بل من حيث المطالب الثقافية لإنسان مفكر يعيش فى منطقة محددة من الأرض ، إذ أن الإنسان لايضارع معظم سكان هذه الأرض من الحيوانات فى قوة الجسم ، ولا يضارع الحيوانات ذوات الحوافر فى سرعة الحركة ، كما أن أسنانه وأظافره أضعف من أن تسعفه فى القتال ، ولكن ثقافات الإنسان (قدراته العقلية) تتغلب على نواحى القصور التشريحى والوظيفى وتسمح له بالنضال فى الحياة الطبيعية .

ويغلب على الظن أنه فى نهاية العصر الثالث كان أجداد الإنسان يهيمون على الأرض ، وكانت الأرض بالنسبة إليهم تشمل على الأرجح إفريقيا وأوراسيا فقط ، لأن دليلنا على مشاركة العالم الجديد (أمريكا) فى دور التطور البشرى ضعيف (١) .

---

(١) وذلك بالنظر لعدم اكتشاف حفريات بشرية قديمة فى الأمريكتين . (المراجع)

٣ ـ عصر البليستوسين وشرق آسيا

إن هذا المنظر البالغ الروعة الذى قدمه رجال الجيولوجيا للشخص المفكر فى القرن العشرين يعد عونا للنوع الإنسانى لا يقل أهمية عن السيارة أو التليفون . فعصر البليستوسين مثلا هو الذى شهد ظهور الإنسان ومستهل الثقافة البشرية ولهذا يبرز فى هذه الصورة الجيولوجية بالرغم من قصر أمده الذى لم يستمر أكثر من مليون سنة ، ولكنه يبرز بوصفه مجرد جزء من هذه الصورة ، وهو إذا قيس بالزمن الذى استغرقته الحياة كلها على سطح الأرض لا يعد ذا بال ، ولذا فهو من هذه الناحية يجعل موقفنا بالقياس إلى الزمن شيئا ضئيلا ، وهذا هو الذى يضفى لونا زاهيا من الضوء على هذا المنظر المحير لمعنى الحياة ... المنظر الذى لونه الفكر الآسيوى ردحاً طويلا من الزمن .

إن العمليات الجيولوجية التى أحدثت على وجه الأرض تغيرات عميقة قلما يكون عملها مفاجئا ، وذلك لأن تغير صقع على وجه الأرض يحتاج على الأقل إلى بضعة آلاف من السنين ، وقد يبلغ فى معظم الأحيان مئات الألوف أو الملايين . ومع ذلك فإنا لو أمعنا النظر فى القياس الزمنى لوجدنا أن الأرض ليست ذات كيان ثابت أو سالب، لأن أحداثا كارتفاع الجبال وتآكلها، وارتفاع المحيطات والقارات وانخفاضها ، وتحول مناطق الحياة ، تعد جميعا معالم فى تاريخ الأرض ، وهو تاريخ لا يقتصر على وصف العمليات الجيولوجية من حيث نوعها وعظمتها ولكنه يؤكد استمرارها وتعاقبها على السواء .

ومن الواضح أننا حين نفحص الحقائق المعروفة عن البليستوسين بوصفه فاصلة

بتاريخ الأرض برمته ، نكتشف وجود عصور جليدية أخرى يبدو أن معظمها حدث إبان عصر تكوين الجبال ، عصر التواءات شاملة حدثت خلاله أو فى أعقابه مباشرة . وواضح كذلك أننا حين نبحث عن أسباب العصور الجليدية يجب أن نهتم بالأرض أى بالجيولوجيا أكثر من اهتمامنا بالسماء أى الفلك مع أن العلاقة بينهما متبادلة .

لقد كانت النظريات التى تتناول أسباب العصر الجليدى تشير فى وقت من الأوقات إلى حدوث خلل فى كلف الشمس وموقع مدارها وذبذبة محور الأرض ، فكل هذه الأسباب تؤدى إلى عصر جليدى ، ومع ذلك فإن الاعتقاد يتزايد فى الوقت الحاضر فى وجود سببين رئيسيين يؤديان إلى ذلك وليس بينهما سبب فلكى مباشر . وواضح كل الوضوح أننا كلما سرنا فى اتجاه القطبين (أى إلى العروض العليا) انخفضت درجة الحرارة ، وبالمثل كلما ارتفعنا فوق جبل اشتدت برودة الهواء ، وظاهر أنه كلما ارتفعت الأرض انخفضت درجة حرارتها ، بصرف النظر عن خط العرض . ومن ثم فالأرجح أننا نعثر على سبب للعصر الجليدى فى ظاهرة ارتفاع الأرض ، ولكن هذه خطوة أولى من خطوات أخرى معقدة . أما العامل المساعد الثانى فيشمل طبيعة المناخ ، والمناخ يتوقف على توفر الرطوبة ودرجة الحرارة وطبيعة الرياح واتجاهها . فوجود كل من أراض باردة ومحيطات دافئة يؤدى إلى التفاوت ، إذ يرتفع البخر فوق المحيطات وتتحرك السحب المحملة بالرطوبة من سماء المحيطات إلى الأرض حيث تسقط مياهها فى شكل أمطار أو جليد . وتزيد رقعة الأرض المغطاة بالجليد من درجة البرودة العامة التى لم تحدث من قبل إلا بسبب انخفاض خط الثلج الدائم نتيجة للارتفاع عن سطح الأرض . وتتكون الثلاجات فوق الجبال وتغذيها الرطوبة فيزيد حجمها ، ويدعمها انخفاض درجة الحرارة ثم تنتشر فى

المرتفعات الدنيا . ويؤدى الماء الذائب من هذه الثلاجات إلى برودة الأنهار ، وهذه بدورها تصب فى المحيطات مياهها الباردة فتبرد بسرعة المحيطات القطبية بوجه خاص ، ومن ثم تتكون الثلوج فى البحر ، وهذه بدورها تزيد من برودة الماء . ويسبب البخر والتكثيف سحبا كثيفة تغطى البحر والأرض على السواء ، ومن ثم فهى تحد من حرارة الشمس التى تصل إلى الأرض . وينخفض مستوى سطح البحر عندما يتراكم الجليد فى شكل غطاءات ثلجية تتحرك إلى الأرض فتتكشف بذلك الجروف القارية وتتكون المعابر الأرضية التى تتمثل بوضوح فى آسيا خاصة مثل جرف «سوندا» [1] وجرف بحر بيرنج [2] . وقد يصل هبوط مستوى سطح البحر إلى ٣٠٠ قدم حين تتجمد مياه البحار فى العالم ويربط بينها الجليد والثلج ، وحينئذ يبدأ العصر الجليدى .

ولكن حين يصل العصر الجليدى إلى غايته ، يميل خطار الساعة (البندول) المناخى إلى الاتجاه المضاد ، وتقلل برودة المحيطات من كمية البخر ، وحيثما يغطى الجليد السطح — كما هو الحال فى البحار القطبية — تقل كمية البخار ومن ثم تأخذ هذه الدورة فى الاتجاه إلى الناحية المضادة لأن الثلاجات تكون قد فقدت أحد العناصر الضرورية لنموها وبقائها . وهو هبوط الرطوبة . وتأخذ الأرض التى تكون قد بلغت نهاية اتساعها بعد هبوط مستوى سطح البحر وانجابت عن سمائها السحب — تأخذ بدورها فى تدفئة الأنهار التى تستمد مياهها من ذوب الثلاجات. ويؤدى تدفق المياه الدافئة إلى البحر وارتفاع سطح الماء فيه إلى تحول المناخ إلى

(١) وهو الممر الأرضى الذى كان يصل جزيرة جاوة بالقارة الآسيوية .

(٢) مكانه الآن مضيق برنج الذى يفصل بين آسيا وأمريكا فى أقصى الشمال . ويسود الرأى بين العلماء اليوم أن هجرة الحيوانات والسكان قد تمت فى أواخر العصر الجليدى (منذ ١١ — ٢٠ ألف سنة) بين آسيا وأمريكا الشمالية عن طريق هذا الممر . (المراجع)

الدفء وتأخذ الثلاجات فى التناقص ويتحرك خط الثلج إلى أعلى [١] وتنتقل جبهة المنطقة القطبية إلى الشمال . وقد تحدث مظاهر تقدم أو تراجع فى هذه الأحوال ؛ ولكن المناخ يميل إلى فترة الدفء [٢] حيث تكون البحار أوسع رقعة وأكثر دفئاً ، ويكون المناخ فى جملته معتدلا أو مداريا .

أما قمم جرينلند أو القطبين الجليدية فتصبح مجرد أثر من آثار الماضى الجليدى إلى أن تتغير درجة الحرارة ، وتؤدى مصادر الرطوبة إلى استعادة الجو البارد سيادته مرة أخرى .

ويغلب على الظن أن نظرية « الدورة المناخية » هذه من أكثر النظريات المقترحة قبولا من حيث أنها تقوم على أساس الظواهر المتيورولوجية (علم الأرصاد الجوية) والجيولوجية ، ومع ذلك فمن الإنصاف القول بأن هذه النظريات ينبغى أن تظفر على الأقل بموافقة نسبية مادامت هناك أمور كثيرة لا تزال غير معلومة فى الوقت الحاضر .

وظاهر أن مناطق الحياة قد تأثرت تأثراً قوياً بتحركات العصر الجليدى ، فالاتجاه العام يميل إلى تضييق رقعة هذه المناطق والتراجع بها إلى العروض المدارية إبان العصر الجليدى ثم توسيع هذه المناطق الحيوية وتقدمها نحو القطبين فى الفترة الدفيئة . كما يوجد على مدى ضيق تغير مشابه فى الاتجاه الرأسى لأى من أسفل المرتفعات إلى أعلاها وفى فترة الانتقال ـ وهى فترة تشبه الفترة التى تمر بنا فى الوقت الحاضر ـ يحدث تقدم وتراجع ظاهرين فى مناطق النباتات تبعاً للدور الذى يكتنفها [٣] .

---

(١) سواء على سفوح الجبال أو على مدى خطوط العرض إلى الشمال (المراجع) .
(٢) الفترة الدافئة Interglacial Sisge هى الفترة التى تقع بين عصرين جليديين .
(٣) ويبدو ذلك واضحا من متابعة خط التيارات الأعلى وحجم الثلاجات على قمم المرتفعات الشمالية فى ممرات السنين الأخيرة (المراجع) .

وإذا أدخلنا فى حسابنا وجود أربعة عصور جليدية رئيسية بينها ثلاث فترات دفيئة يضاف إليها عدد ما من أدوار تقدم الجليد وانحساره على مدى أضيق إبان عصر البليستوسين ، لا تضح لنا أن الجغرافيا الحيوية لكتلة من الأرض مثل أوراسيا تعد موضوعاً معقداً أشد التعقيد .

ولا تكون الأرض إبان أى عصر جليدى مغطاة كلها بالجليد ، ولكن قد لا تكون الأرض الخالية من الجليد أحسن حالا ، فإن عملية التعرية التى يقوم بها الجليد تفتت أجزاء من الصخور التى تقابلها وترسب هذه المواد المتفتتة فى شكل بقايا صخرية تحملها المجارى المتدفقة من الكتل الجليدية إلى مجموعات الأنهار الرئيسية التى تغذيها . وتعتبر مجارى المياه التى تنبع من الكتلة الجليدية عوامل تعرية لا تقل أثراً عن الثلج نفسه بسبب وفرة منابعها المائية . كما أن نحر هذه الأنهار لمجاريها ، وما ينجم عن ذلك من إرساب المواد المحمولة يكوّن مدرجات (مصاطب) على طول الشواطىء ، وهذا يعد ذا أهمية خاصة بالنسبة لعلماء الجيولوجيا ، إذ يمكن الوقوف منها فى غالب الأحيان على دليل يتصل بالإنسان القديم ، كما أن السهول الجليدية تعد مصادر للطمى الذى ذرته الرياح فى شكل أتربة أو « لوس Loess » أرسبتها فى طبقات فوق مناطق واسعة من الأرض . وقد حدث مثل هذا الإرساب فى جنوب غربى روسيا . وأما عن « اللوس » المترسب بسهل الصين الشمالى ووسط آسيا فيرجح من ناحية أخرى أن تكون الرياح قد حملته من المنخفضات الصحراوية الجرداء ، مثل صحراء لوب نور وجوبى حيث التعرية قوية للغاية .

« والعصر الجليدى » تعبير مضلل إلى حد ما ، إذ يجب أن نقرر أنه خلال هذا العصر توجد فترات زمنية ـ قد تكون أكثر طولا ـ هى فترات ما بين

العصور الجليدية حيث تسكون مساحات كبيرة من الأرض خلواً من الجليد مزدهرة فى ظروف مناخية ملائمة . والواقع أنه حتى فى أثناء تقدم دورة جليدية يظل جزء كبير من الأرض خلواً من الجليد . وقد تضيق مناطق الحياة ، وقد يتخلى الأحياء عن مساحة ما من هذه المنطقة ، ولسكن الحياة لا يمكن أن تختفى كلية . ويمكن فى معظم الأحوال أن يقال إنها تراجعت انتظاراً لتقدم جديدحين تتهيأ الظروف المناخية لهذا التقدم .

وكان لتقلب المناخ فى عصر البليستوسين أثر عميق على الحيوان والنبات ، ففى بعض الأحوال يتم التأقلم بحيث تستطيع الحيوانات مواصلة حياتها فى مناخ أشد قسوة ، وخير مثال لهذا التأقلم الخرتيت ذو الفراء والماموث . وقد تراجعت بعض الحيوانات أو تقدمت وفق بيئتها ، وعجز البعض الآخر عن التأقلم فانقرض . وتلعب المعابر (القناطر) الأرضية التى تسكونت فى العصور الجليدية دورها الهام إذ هى وسيلة لتحركات الحيوان وانتقال الحياة النباتية إلى أقاليم كانت فى الأصل معزولة بالمياه ، ثم أصبحت هذه الأقاليم بالطبع منفصلة إبان الفترات الدفيئة عندما ارتفعت مياه البحار مرة أخرى .

ولا يحتاج الأمر إلى كثير من الخيال لإدراك التغيرات العظيمة التى مرت بالأرض إبان عصر البليستوسين . فقد كان هناك تغير فى المناطق الحيوية .. حركة فى الحياة الحيوانية ، وارتفاع وانخفاض فى مستوى سطح البحر .. تأقلم فى بعض فصائل النبات والحيوان،وانقراض فى البعض الآخر الخ.هذه هى الأحداث العميقة فى تاريخ الأحياء فليس هنالك فيما يبدو موضع للتساؤل فى أن التزاوج الذى حدث بين الأنواع ، وتأقلم البعض الآخر للظروف الحديثة ، قد دفعا بالنبات والحيوان فى اتجاههما التطورى إلى ما انتهت إليه أشكالها الجديدة فى العصر الحديث . كما

أن الظروف القاسية التي حدثت في عصر البليستوسين قد تمخضت أيضاً عن اتجاه آخر وهو انقراض طائفة كبيرة من أنواع الثدييات مثل : القردة الضخمة Giant Slaths [١] والمدرعات [٢] بأمريكا الجنوبية ، وذوات الحوافر الكبيرة كالإيل [٣] الأيرلندى ، والماستودون [٤] والماموث [٥] والخرتيت ذى الفراء أما الطيور الأرضية مثل « الموا » [٦] فى زيلندة الجديدة والدودو [٧] فى جزر موريتيوس فقد واصلت حياتها إلى أن قضى عليها الإنسان نفسه بالفناء والانقراض ويفسر الانقراض التدريجى لأنواع الثدييات من ذوات الجرم الهائل ، وتراجع عصر البرارى فى عصرنا الحاضر أمام تقدم الإنسان ، بأن عصر الثدييات ربما يأخذ نفس الطريق التي سلكها عصر الزواحف ، كما أن عصر الإنسان يتماسك ويزداد قوة .

ويتضح من التخطيط السابق لجيولوجية وحفريات عصر البليستوسين ، أن هذا الموضوع من أعقد الموضوعات وحتى بالنسبة لمناطق أخرى كغرب أوربا أو الولايات المتحدة التي تكفل لميادين البحث العلمى أعظم الفرص الملائمة باستمرار ، لا تزال تنشب بين العلماء مناقشات حادة حول تاريخ العصور الجليدية المختلفة وما بينها من فترات دفيئة ، ومقدار الزمن الذى استغرقه كل منهما . أما فى آسيا ،

---

(١) Giant Slaths نوع من القردة الضخمة ويطلق عليها أيضا القردة المترهلة .
(٢) المدرعات Armadillos طوائف من الثدييات تمتاز بدروع على ظهرها وجبهتها .
(٣) الإيل الأيرلندى Elk من أضخم أنواع الأيائل .
(٤) Mastodons حيوان من فصيلة الفيل ذو أسنان حلمية ويعد حلقة من سلسلة أطوار الفيل .
(٥) Mammoth فيل سيبريا المنقرض .
(٦) Moa حيوان منقرض يشبه النعام عاطل من الجناحين .
(٧) Dodo طائر قبيح المنظر فى حجم الديك الرومى لا يستطيع الطيران . (المترجم)

حيث تقوم على الدوام الحواجز الجغرافية والسياسية فتعوق الباحث ، فإن تاريخ هذه الظواهر يكون أكثر صعوبة ، وبالتالى يشيع فيه الحدس والتخمين . ومع ذلك فإن العمل الجاد الذى تقوم به قلة من العلماء قد رسم لها صورة ملائمة .

وتشير الدراسات التى أجريت على الرواسب الجليدية التى عثر عليها فى الوديان الجبلية ، وفى مجموعة الأنهار فى منطقة الهيمالايا إلى وجود ثلاث فترات جليدية تكتنفها أربع فترات بين جليدية قد تتشابه مع ما أماط عنه الكشف العلمى فى أوربا . وكلما تقدم المرء إلى الشمال أو الشرق يعثر على مزيد من الأدلة على ثلاجات جبلية تقدمت من ارتفاعات عالية إلى أخرى منخفضة ، ولكن قلما تقدمت مثل هذه الثلاجات إلى ارتفاعات تقل عن ٥٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر . وجدير بالذكر أن بعض مثل هذه الثلاجات كان عظيم الامتداد (فى المستوى الأفقى) . ونذكر على سبيل المثال مجموعة ثلاجات « السايا » بجبال الألطاى التى امتدت نحو مائتى ميل فى الطول ونحو ٦٠ ميلا فى العرض

وقد يدهشك إذا ما تأملت خرائط الثلاجات فى سيبريا أن تجد جزءاً كبيراً من الإقليم المعروف بأنه « متجمد » كان فى وقت ما غير متجمد . ولقد أوضحنا أن الظروف المناخية فى شمال آسيا كانت متأثرة برياح السيكلون (العواصف الحلزونية) فى العروض العليا وهى رياح محملة بالرطوبة وتمر بالمحيط الأطلسى والمحيطات القطبية . وكانت هذه العواصف تحمل معها الجليد إلى جبال أورال وإلى جهات أخرى من الأراضى المرتفعة فى شمال هذه الجبال أو شرقيها مثل حافة برانجا **Byrranga Ridge** وجبال بيتورانا ، ونوفايا زمليا ، وسيفرنايا زمليا . وكان الجليد يغذى ثلاجات هذه المناطق المرتفعة وبسبب انتشارها فى العروض الدنيا حيث تتراكم فى آخر الأمر وتكون ما يسمى « غطاء سيبريا الجليدى » ، أما فى الغرب فإن هذا الغطاء كان

متصلا على الأرجح بغطاء اسكندينافا الجليدى الذى كان يغطى شمال أوربا . أما فى الشرق فإن غطاء سيبريا الجليدى كان يصل تقريبا إلى وادى نهر ينسى ، اللهم إلا فى أقصى الشمال حيث يصل الجليد إلى مابين جبال بوتورانا وأوب ، وهذا لا يحدث إلا فى أقصى ارتفاع للدورة الجليدية .

وتوجد بين نهرى ينسى ولينا أرض مرتفعة تعرف بهضبة سيبريا الوسطى (٢٠٠٠ — ٢٥٠٠ قدم) وكان معظمها خلواً من الجليد ما عدا الثلاجات المحلية التى كانت تظهر أينما حدث ارتفاع يزيد على ٣٠٠٠ قدم فى الوسط أو فى الجنوب الغربى

وتقوم فى شرق هضبة سيبريا الوسطى ثمانى سلاسل رئيسيةمن الجبال يتراوح ارتفاعها بين ٦ آلاف و ١٠ آلاف قدم . وتمتد هذه المجموعات الجبلية مباشرة إلى بحر بيرنج وجنوب الجزء الشمالى من بحر أوختسك بما فى ذلك شبه جزيرة كمشتكا، وكان التجمد فى هذا المكان كثيفا بنوع خاص وإن كان يبدو أنه لم يتجمع مطلقا فى شكل غطاء جليدى واحد كما حدث فى أقصى الغرب .

ويبدو أن الحد الجنوبى لغطاء سيبريا الجليدى لم يكن يتجاوز خط عرض ٦٠° شمالا ، أما جنوب هذا الخط فإن التجمد لم يكن يحدث إلا فى المناطق المرتفعة فيما وراء بايكال وجبال يابلنوى وجبال ستانوفوى ، وسلاسل جبال ألطاى . أما باقى أراضى سيبريا فكانت خلواً من الجليد ، وإن كان يغلب على الظن أن معظم التربة كان متجمداً بسبب التطرف الذى حدث دون شك فى درجات الحرارة . ولا بد أن تكون ثلاجات سيبريا قد نمت بدرجة أسرع ما دامت مواقعها من القارة قد عاونت على انخفاض درجات الحرارة فى العروض العليا . ومع ذلك فإن هذا النمو لا يمكن أن يكون قد استمر مدة طويلة لأن مصادر الماء كانت قد

حدث فعلا ، واستفاد غطاء الجليد الاسكندنافى بدوره من كية الرطوبة التى حملتها إليه عواصف المحيط الأطلسى ، ومن ثم حرمت ثلاجات سيبريا من المياه الضرورية التى تساعد على تراكمها تراكما كبيراً ، ونجم عن ذلك أن أصبحت الرقعة الجليدية فى سيبريا أقل سمكا وأضيق انتشاراً من غطائى اسكنديناوا وأمريكا الشمالية المقابلة لها (١) .

وليس لدينا حتى الآن حقائق كافية لتوضيح عدد مرات التجمد فى سيبريا ، ولا مدى التجمد فى كل مرة ، ومع ذلك فيظهر أن الجليد الثالث كان أبعدها مدى وأن الرابع كان أقل منه نوعا ما . والواقع أن بعض الثلاجات فى المناطق المرتفعة حول جبال أورال لم يتصل بعضها ببعض ، ولذا فإن غطاء سيبريا الجليدى لم يشمل مساحة من الأرض كالتى شملها فى الدورات الجليدية السابقة .

ويشير الجفاف الشديد الذى عانته سيبريا فى عصر البليستوسين مرة أخرى إلى الدور الذى لعبته الجبال العالية بجنوب سيبريا ، تلك الجبال التى عزلت هذا الإقليم الفسيح عن مصادر الرطوبة من المحيط الهندى . وتشير الدلائل إلى أن شبه الجزيرة الهندية وجنوب شرق آسيا وجنوب الصين وأندونيسيا لم تكن خلواً من الجليد فحسب ، بل كان مناخها حاراً ، بل إن بعضها كان مدارياً . ومن ثم فقد كانت ملجأ للحياة الحيوانية والنباتية الزاحفة جنوباً من المناطق التى غطاها الجليد حتى هضبة التبت وبرغم ارتفاعها الشاهق كانت خلواً من الجليد نسبياً ، فقد نشأت جبال الجليد بنوع خاص فى الشرق ، ولكن جزءاً كبيراً من الهضبة لم يتجمد . وكذلك كان تجمد الصين قليلا نسبياً إذ لم يتكون الجليد إلا فوق أعلى سلسلتين من جبال الصين وهما جبال « تسنلنج شان » وجبال « لوشان » ورغم ذلك فإن

(١) لا يشمل تأثير المحيط الهادى الشمالى إلا الأطراف العالية الشرقية لسيبيريا .

معلوماتنا عن الصين قليلة للغاية حتى ليغلب على الظن أن هناك حقائق عن تجمدات أخرى سيكشف عنها البحث فى المستقبل على أيدى الچيولوچيين الحقليين فى الصين أما فى اليابان وفرموزة وشمال شرقى كوريا فإن أشد جبالها ارتفاعا هى التى تحمل دليل التجمد .

ولما كان من المرجح أن جزءاً كبيراً من إقليم جنوب شرق آسيا لا يختلف مناخه كثيراً عن المناخ السائد اليوم ، بل عن المناخ الذى كان سائداً إبان الفترات الجليدية ، فمن المؤكد أن الصين الشمالية عانت تغيرات كبيرة فى مناخها . ولقد قدم الچيولوچيون وعلماء الحفريات والآثار القديمة الدليل على أن مناخ الصين الشمالية إبان الفترات الدافئة كان معتدلا ، بل رطبا عندما حدثت التعريات الهائلة . وكان يسكن سهل الصين الشمالى خلال هذه العهود ، الفيلة والخراتيت والدببة والغزلان والقطط والضباع . كما وجدت أيضاً النعام والجمال والوعول ، وإن كان من المرجح أنها جاءت شاردة من أقاليم أخرى بعيدة فى الشمال .

ووجدت مع رواسب الطمى الدقيقة (اللويس والسلت) الدالة على برودة المناخ وميله إلى الجفاف كما كانت الحال فى العصر الجليدى ــ وجدت بقايا حيوانية من نوع حيوانات الرعى التى توجد عادة بأقاليم الإستبس أو المناطق شبه الصحراوية وهى تشمل الأغنام والجمال والماموث والجاموس والوعول والحمر الوحشية والغزلان والخراتيت ذات الفراء .

ويدل (اللويس) على أن رياحاً محملة بالأتربة كانت تكتسح صحراوات وسط آسيا وتلقى بأحمالها على سهول الصين الشمالية ، ومن ثم تزيد من خصبه . كما يدل ذلك بطبيعة الحال على جفاف المناطق الداخلية من آسيا إبان العصور الجليدية .

وترتيب الطبقات الأرضية بالصين الشمالية فى عصر البليستوسين بالغ التعقيد

كما سنرى ، بيد أن تعاقب الأحوال المناخية وتواتر اللطيف منها والجاف والإرساب الترابي ، يكفل لنا دليلا موصولا مطابقاً للحالة الچيولوچية فى أمكنة أخرى ، هذا عدا الدليل الهام الذى يقدمه علم الحفريات ، وكذلك عدم تطابق التكوينات مع نظام الطبقات الأرضية وفقاً للعصور ، كل ذلك يساعد على معرفة هذا الترابط . ومن ثم فيمكن اعتبار ترتيب طبقات الأرض فى المناطق غير المتجمدة متوقفاً على ترتيب الطبقات المتجمدة . وبهذه الوسيلة يمكن الاعتماد على العلاقة بين تسلسل طبقات هيمالايا الجليدية فى كشمير ، وبين الطبقات الرسوبية غير الجليدية المنعزلة فى شمال الصين . وكذلك ما كان من توافق الطبقات الأرضية فى شمال بورما وجاوة مع خريطة الطبقات الأرضية . ومن المنتظر كما تقدم البحث ، إيجاد صلة بين مساحات أوسع . ويترتب على ذلك أن كل آسيا ستطبق عليها الصورة الزمنية للعصر الجليدى التى تم تكوينها بالنسبة لأوربا وأمريكا الشمالية .

٤ – الآسيويون القدامى (من جاوة)

اكتشف إيوجين ديبوا المنقب الجيولوجى فى سنتى ١٨٩١ و ١٨٩٢ فى رواسب العصر السينوزوى بجزيرة جاوة بقايا قديمة لحيوانات مختلفة من الرئيسيات فى معظمة (المكان الذى توجد به كمية من العظام) بالشاطىء الشرقى لنهر سولو الذى يجرى فى شرق جاوة الأوسط قرب ترينل . وكانت أهم هذه البقايا قحافة رأس متحجرة ، وسرعان ما قوبل كشف ديبوا بالتهليل بوصفه كشفاً عظيماً، وذلك أن بعض المتخصصين استطاعوا أن يميزوا منها ما يشبه معالم الإنسان ، واعتقدوا أنها تدل دلالة لا شك فيها على أنها من بقايا إنسان بدائى ؛ ولكن البعض الآخر استنكر صفتها الإنسانية ، وأكد أنها تمثل قرداً ضخما . ولما كانت جاوة من ناحية أخرى موطن قرد « الجيبون » كما أن جارتيها جزيرة سومطرة وجزيرة بورنيو بهما قرد « الأورانج أوتان » فقد شعر كثيرون أن النظرية الأخيرة هى الأصح ؛ ومع ذلك فقد عثر على عظمة فخذ بالقرب من هذه القحافة . ولئن كانت معدومة الصلة بها فقد دلت على أنها عظمة لكائن منتصب القامة وكان يظن أنها الدليل النهائى ، وأن « الإنسان القردى » — سواء أكان رجل ترينل أم رجل جاوة — قد اتخذ مكانه فى سلسلة الترقى بين الحفريات البشرية بوصفه أقدم شكل عثر عليه للانسان البدائى ، واعتبر تاريخ هذا الكائن بوجه عام فى عصر البليستوسين الأدنى برغم قول البعض بأنه يرجع إلى عهد أقدم من ذلك .

وفى سنة ١٩٣٦ عثر أحد جامعى الحفريات التابعين للمساحة الجيولوجية بجزر الهند الهولندية فى أثناء تنقيبه عن الحفريات بالقرب من موجوكرتو بجاوة الشرقية

قرب سورابايا ، عثر على جمجمة صغيرة فى بيئتها الطبيعية ، وقد اعتبرت منذ ذلك الحين جمجمة طفل لإنسان قردى . وتنحصر أهمية هذا الكشف فى أنه وجد فى المجارى الرسوبية لعصر البليستوسين الأدنى مصحوباً بعينة حيوانية قديمة فأصبحت بذلك أقدم حفرية بشرية فى آسيا .

وفى نفس العام بدأ عالم الحفريات الهولندى ج. هـ. ر. ڤون كوينجزوالد سلسلة كشوف كان معظمها فى مكان بمنطقة نهر تجيمورو أحد روافد نهر السولو بالقرب من سنحريان الواقعة غرب ترينل . وقد تجمعت هذه الكشوف سريعة متلاحقة : أولا جمجمة مع جزء من الفك الأسفل (الفك ب) ، وجدت فى مجارى كابويه مصحوبة ببقايا حيوانية من ترينل ، ويطلق عليها فى الغالب الإنسان القردى رقم ٢ (الإنسان القردى رقم ١ اكتشفه ديبوا [1]) ثم الإنسان القردى رقم ٣ وهو عبارة عن بقايا جمجمة تشتمل على أجزاء من العظام الجدارية اليمنى واليسرى . وفى سنة ١٩٣٩ كشف الإنسان القردى رقم ٤ ، ويحتوى على الفك الأعلى وبه معظم الأسنان مع معظم الجزء الخلفى من الجمجمة بما فيها جزء من قاعدتها . أما مؤخرة الجمجمة فهشم كما لو كان قد تحطم بهراوة أو حجر . .

وكأن هذه الكشوف لم تكن كافية ، إذ اكتشف ڤون كوينجزوالد فى سنة ١٩٣٩ و سنة ١٩٤١ أجزاء لفكين بشريين كبيرى الحجم بحيث نستبعد وجود أية صلة بينهما وبين أنواع الإنســــــان القردى ، وقد أطلق عليهما Meganthropus Palaeojavanicus أى إنسان جاوة القردى البدائى الضخم .

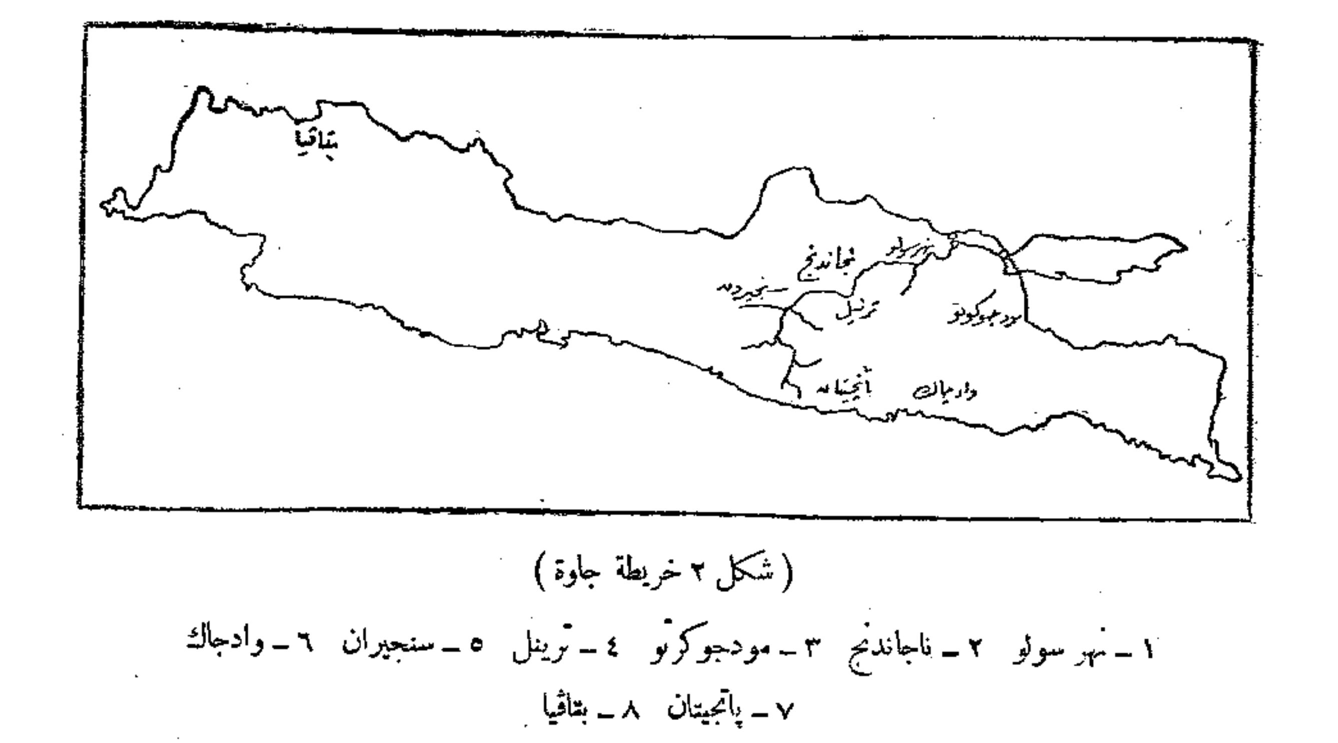
---

(١) « الفك » عبارة عن قطعة من الفك الأسفل عثر عليها ديبوا سنة ١٨٩٠ فى كيدنج بروبس على بعد ٣٢ ميلا من ترينل ، ولم يكتب عنها تقرير حتى سنة ١٩٢٥ ، ويظهر أنها تشبه الفك « ب » .

وأصبح من المستطاع بمثل هذه الثروة المادية التى لدينا أن نثبت الصفة الإنسانية وإن كانت بدائية لرجال جاوة الأوائل على الأقل ، وتؤكد هذه الحقيقة الأهمية الكبرى لجزيرة جاوة بالنسبة لشرق آسيا فيما قبل التاريخ .

وجزيرة جاوة بركانية تقع على خط يتجه معظمه من الشرق إلى الغرب فيما بين خطى عرض ٦° ، ٨° جنوباً . وهى بالمحيط الهندى ، وتعد إحدى الجزر الكبرى الممتدة جنوب وشرق أرخبيل الملايو — عظيمة الطول (نحو ٦٠٠ ميل) ، قليلة الاتساع (١٢٧ ميلا فى أقصى اتساعها) . وتعد جزيرة جاوة قنطرة بالنسبة لطولها وقربها من الجزر الأخرى ، ومع ذلك فواضح أنها منفصلة عن آسيا (القارة الأم) وهى لذلك تمتاز بطابع العزلة ، وهذه الثنائية أو على الأصح تناقض الموقع هو الذى يجعل دراسة الإنسان الأول فى جاوة دراسة غير عادية .

وتضم جزيرة جاوة ١١٢ بركاناً بينها ٣٥ بركاناً ثائراً ، ومعنى ذلك أن هذه القوة البركانية الهائلة هى التى كتبت قصة الأحداث الجيولوجية الأخيرة التى كونت الجزيرة . والدليل يوضح أن عصر البليوسين شهد مجموعة من الجزر البركانية الصغيرة فى المكان المعروف الآن بجاوة الشرقية الوسطى ، وقد حدث ارتفاع تدريجى فى عصر البليوسين المتأخر وأوائل البليستوسين ظهرت على أثره أغلب الجزر الحالية على سطح الماء . وصحب هذا الارتفاع حركات بركانية استمرت حتى يومنا هذا ، وتبعاً لذلك فإن الكثير من صخور الجزيرة من أصل بركانى .



(شكل ٢ خريطة جاوة)

١ ـ نهر سولو ٢ ـ ناجاندنج ٣ ـ مودجوكرتو ٤ ـ ترينل ٥ ـ سنجيران ٦ ـ وادجاك
٧ ـ پاتجيتان ٨ ـ بتاڤيا

التسلسل الجيولوجى فى جاوة

(عن موفيوس عام ١٩٤٤)

البليستوسين	الرواسب	البقايا الحيوانية
الأعلى	مجرى نتوبويرو	ناندونج
المتوسط	مجرى كابويه	ترينـــــل
الأدنى (المتأخر)	مجرى بويتچانج	دجيتس

إن تحديد التخطيط الچيولوچى لطبقات الأرض (الاستراتيجرافى) بجزيرة جاوة يرتكز إلى حد كبير على تحقيق البقايا الحيوانية . وأقدم الثدييات الأرضية التى حققت كانت من النوع الذى وجد فى تكوينات سواليك العليا بشمال غربى الهند (منطقة تاتروت) ، وترجع إلى الفترة الدفيئة الأولى من عصر البليستوسين ، وهذا دليل واضح على أن الحياة الحيوانية انتشرت فى جاوة عن طريق قنطرة أرضية كانت تربطها بجنوب شرق آسيا إبان العصر الجليدى الأول .

أما التكوين التالى لقطاع جاوة الچيولوچى فيطلق عليه إسم « كابويه » و يمتاز ببقايا ترينل الحيوانية التى تشتمل على حفريات القردة و الأورانج والضبع ونوع من الفيلة الرحالة شديدة التخصص (Elephas Namadicus) و (Stogodon) وبقر النهر البرازيلى (Tapir) وفرس الماء المتنقل (سيد قشطة) . وتمتاز طبقات القاع بمجارى كابو يه بأهمية كبرى إذ أنه من المرجح أن ما وجد فى كل من سنجريان (وكشف عنه الدكتور ڤون كوينجزوالد) وفى تر ينل (وكشف عنه ديبوا) من بقايا الإنسان القردى كان فى هذه الطبقات القاعية . وترجع قيعان كابويه إلى أصل نهرى ، و تحتوى على الطفل والطمى و الرواسب المكببة . ووجدت فى ترينل فوق المكان الذى أجرى فيه ديبوا كشوفه بالضبط « و يطلق عليه غالباً معظمة » —

طبقات طفلية غنية بالحفريات النباتية التى درسها علماء النبات و انتهوا إلى انتمائها إلى نباتات لا تزال تنمو حتى الآن فى جاوة على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر . و هذا دليل آخر هام على تحديد عصر إنسان جاوة ، لأن هذه النباتات إذا و جدت فى منطقة ترينل فمن الواضح أنها تحتاج إلى مناخ أبرد ، كما أنها تحتاج إلى أمطار أغزر . و يبدو أن الإجابة عن ذلك تتلخص فى أنه إبان العصر الجليدى الثانى بلغت الأحوال الجليدية أعلى مستوى لها . فكانت درجات الحرارة أكثر انخفاضا ، و الأمطار أكثر تواتراً حتى فى مثل هذه المناطق المدارية . وبلغ سطح البحر خلال هذا العصر إلى أدنى مستوى ، فبرزت الأرض فيما بين القارة والجزر . و يطلق على هذه الأرض جرف « سوندا » و يظهر أنها كانت معبراً سمح بهجرة حيوانات جديدة إلى الجزر من جنوب شرقى آسيا ، ور بما يكون قد صحبها أيضاً جماعة من إنسان جاوة فى هذه الهجرة لإضافة أعداد جديدة على السكان الذين تمثلهم جمجمة طفل موجوكرتو .

ومن العسير تحديد المدة التى عاشها الإنسان القردى المنتصب القامة فى جزيرة جاوة ، ولكن يغلب على الظن أن ذلك حدث إبان الفترة الدفيئة الثانية حين أصبحت جاوة جزيرة للمرة الثانية فازدهرت حياته فى المناخ الدافىء مع حيوانات ترينل المعروفة . ومع ذلك فيبدو أنه اختفى فى نهاية عصر البليستوسين الأوسط وإن كانت سلسلة حياته قد استمرت فى إنسان سولو الأحدث منه عهداً ، والذى وجدت بقاياه بالقرب من نااندونج على نهر سولو غير بعيدة عن ترينل.

وشهدت جزيرة جاوة التواء هائلا واضطراباً بركانياً قبيل العصر الجليدى الثالث مباشرة مما أدى إلى تحول مجموعات الأنهار عن مجاريها الأصلية أو نحرها

نحراً شديداً . ويعد نهر سولو أهم هذه الأنهار جميعا ، إذ من الواضح أن حفريات هذا النهر تشير إلى معاصرته لإنسان ما قبل التاريخ .

وينبع نهر سولو من جبال رويدر جنوب شرق جاوة ، ويجرى متمهلا إلى الشمال حتى يقترب من سانجريان ، ومن ثم يجرى شرقاً ماراً بترينل ثم يتجه ثانية إلى الشمال مخترقاً تلال كندنج بوسط جاوة حتى يصل إلى ناندنج فيتحول إلى الشرق مرة أخرى وينثنى فوق السهل إلى أن يصب فى البحر قرب سورابايا فى شرق جاوة . ولقد أدت الالتواءات التى حدثت فى البليستوسين الأعلى إلى أن يقطع نهر سولو مدرجات نحت منها ثلاثة ، ويتكون أدناها من الغرين الذى أرسبه التيار . واستخرج من قاع المدرج الأوسط (٢٠متراً) المنحوت فى مجارى نوتوپويرو Notopoero من عصر البليستوسين الأعلى عدد كبير من الحفريات العظمية عام ١٩٣١ بواسطة أعضاء المساحة الچيولوچية ، ومن بينها بعض حفريات حيوانية من عصر ترينل الأقدم منها عهداً ، ولكن وجدت كذلك بينها أنواع حديثة مثل الغزلان الهندية وجاموس البحر الضخم وعدة سلالات من الثدييات الحديثة . وهذا يفسر حدوث هجرة جديدة للحيوانات ، وبالتالى اتصالا جديداً بجنوب شرق آسيا عن طريق جرف سوندا . وواضح أن جزءاً من مجارى نوتوپويرو كانت منخفضة عن سطح الماء إبان العصر الجليدى الثالث .

وكان أهم ما وجد فى ناندونج مجموعة مكونة من إحدى عشرة جمجمة بشرية وعظمتى قصبة ساق مصحوبتين ببقايا حيوانية من ناندونج . ويطلق على هذه الحفريات « إنسان سولو » ويغلب على الظن أن جماعة إنسان سولو قد هاجروا من جنوب شرق آسيا مع حيوانات ناندونج . ومع ذلك فما دامت معلوماتنا عن الفترة الدفيئة الثانية فى جاوة قليلة للغاية ، فيمكن افتراض أنها حيوانات أصيلة فى

جاوة من قبل البليستوسين الأعلى . ويرجع هذا الافتراض إلى أساس أبعد من ذلك ، هو تزايد اقتناع دارسى المورفولوجيا [1] بأن إنسان سولو منحدر من الإنسان القردى .

ويجب ملاحظة أنه لم يعثر مطلقا على فك أسفل ، أو حتى على وجوه لجماجم إنسان سولو . والواقع أن كل جمجمة كانت مهشمة عند قاعدتها تهشيما واضحا كأن الغرض من هذا التهشيم هو انتزاع مخ الشخص، وهذه ظاهرة وحشيةلها تاريخ طويل.

و لقد نشر ديبوا فى سنة ١٩٢١ تقريراً فذاً عن حفريتين لجمجمتين فى حوزته استخرجهما فى سنة ١٨٨٩ من مدرجات بحيرة بجنوب جاوة بالقرب من وادجاك . وقد دمرت عملية اقتلاع الأحجار أخيرا مكان هذا الكشف ، و بالرغم من أن الجمجمتين متحجرتان ولهما قيمتهما التاريخية من حيث القدم ، إلا أن التاريخ الجيولوجى لجماجم إنسان وادجاك غير محدد ، كما أن شكل هذه الجماجم يشبه إلى حد ما سكان استراليا الأصليين . و يجمع جمهرة العلماء على أنها ترجع إلى بداية عصر البليستوسين المتأخر .

ويناقش هوبجر — وهو متخصص فى علم الحفريات — الترتيب الجيولوجى السابق فيرفض بنوع خاص مسألة التمييز بين حفريات دجيتس وترينل الحيوانية على أساس أن الأدلة تجمع على إثبات أن الاختلاف بينهما أقل بكثير مما كان يظن .

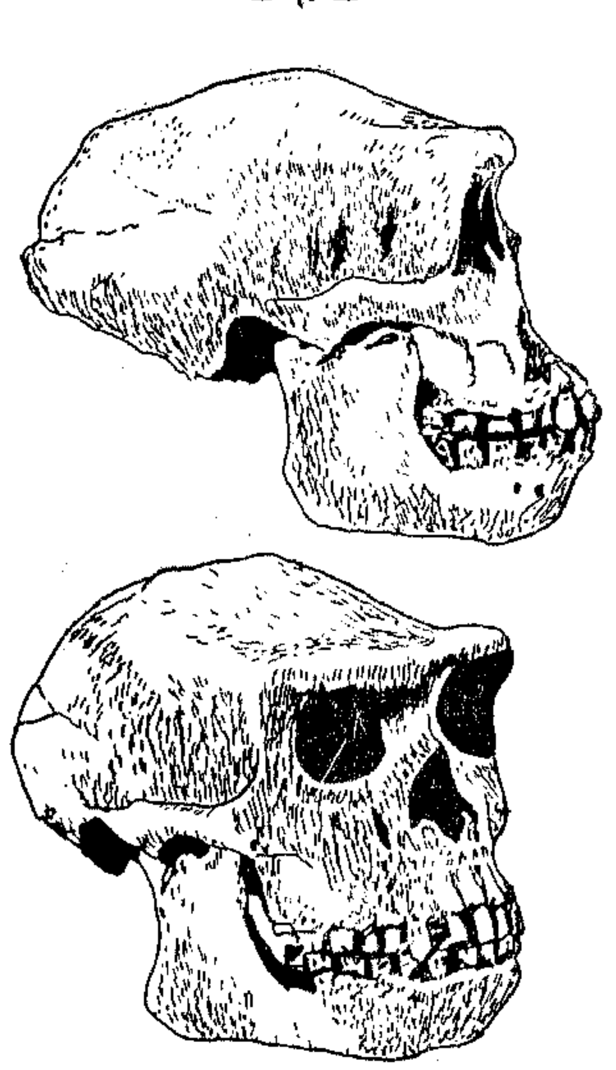
وهناك دليل آخر يؤيد أن الإنسان القردى رقم ٤ ، وعظمة الفك الأسفل ب، وقطعتى فك الإنسان القردى الضخم ربما كانت مستخرجة من مجارى بو يتجاجان

(١) علم الشكل الظاهرى .

(حيوانات دجيتس) و يضع هويجر كلا من دجيتس وترينل فى البليستوسين الأوسط. ويبين هويجر أيضا أن طريقة الربط بين الأحداث الچيولوچية فى جاوة ، وبين تتابع جليد هيمالايا وفقا لتتابع المدرجات التى نحتها النهر ينجم عنها نتائج خطيرة ، لأن المتخصصين فى حركة الأرض لديهم مايدل على حدوث حركات أرضية عنيفة (ارتفاعات وانخفاضات) فى جاوة أقوى من ارتفاع سطح البحر وانخفاضه إبان البليستوسين ، وهذا بطبيعة الحال يغير طريقة الربط تغييرا خطيرا .

ومع أنه يبدو أن لدى هويجر ذخيرة تسند حجته ، فإنا فى الواقع نستطيع أن نتوقف عن الافتراض اليسير الذى أجملناه من قبل لأدوار عصر البليستوسين فى جاوة ، لأن نتيجة هذا الافتراض المحدد هى ارتباطه بالأدوار الچيولوچية فى الهند وبورما والصين ، فهو إذن جزء من مجموعة واضحة . ويستطيع عالم الحفريات — لحين ظهور ترابط جديد — أن يستخدم الإطار الزمنى القديم وحده ، على أن ينظر بطبيعة الحال نظرة حرص إلى الكشوف المعتمدة مثل كشوف هويجر .

وتمتاز حفريات جاوة البشرية بطابع غير عادى ، وهو أنها تمثل حقبة زمنية واسعة المدى ، من فجر البليستوسين إلى نهايته حتى إنها لتبدو أدلة رمزية لقصة طويلة معقدة . ويتواتر التساؤل ، هل كانت جاوة من رواسب البليستوسين الآسيوى أو أنها سارت فى مجرى التطور الرئيسى ؟ إن الإنسان ليشعر أن جاوة كانت دائما متخلفة مرحلة إلى الوراء . والقادمون الجدد قد وصلوا الجزيرة على التعاقب (على موجات) وعندما استقرت بهم الحياة عُزلوا عن بقية العالم زمناً قد يبلغ عدة مئات من ألوف الأعوام . وخلال ذلك الوقت تغيرت آسيا القديمة وتحولت إلى آسيا أخرى جديدة لم يصل أثرها إلى جاوة إلا عندما ظهرت المعابر الأرضية الجديدة فى العصر الجليدى التالى . ولعل القادمين الجدد قابلوا فى جاوة بعض أنواع الحياة الحيوانية التى كانت قد انقرضت من القارة نفسها وحلت محلها



(شكل ٣ — الإنسان القردى الضخم عن ويدنرايخ)

أنواع أخرى أكثر تطوراً . والذى يصدق على الحيوانات قد يصدق أيضاً بالنسبة للانسان . ومن المؤكد أن الطسمانيين[1] وأقرباءهم الاستراليين كانوا متباينين عندما نزل الإنجليز بمواطنهم فى القرن الثامن عشر بعد الميلاد .

(١) أهل جزر طسمانيا .

وتمثل حفريات الإنسان القردى الإنسان الآسيوى الأول الذى عرف حتى الآن. وعندما نفحص مكونات هذه المخلوقات المعاد تركيبها ، فإن أول ما يخطر ببالنا هو سماتها البدائية ومنها : النتوء البارز فوق الحاجبين أو الحاجز الممتد بعرض الجبهة ، والجمجمة المنخفضة المنحدرة إلى الخلف ذات الشكل المثلث الحاد ، وانعدام الذقن ، والنتوء المحدد الذى يعلو القذال (١) أو العظمة المؤخرية . وكان هذا البروز نقطة اتصال عضلات العنق الضخمة ، وهى التى تجعل الرأس غائصة فى العنق . ويكشف الفحص الدقيق للأسنان عن ضخامة حجمها كثيراً عن أسنان الإنسان الحديث ، كما أن الأضراس الطاحنة يتزايد حجمها من الأمام إلى الخلف وهذا من مميزات القردة ، ويتميز الإنسان القردى (رقم ٤) وهو صاحب أكبر جمجمة بظاهرة لم تعرف فى الجماجم الأخرى وهى الثغرة القردية أو الفروج السكائن بين الأنياب والقواطع بالفك الأعلى والذى يسمح للأنياب الكبرى بالفك الأسفل بالتداخل بين ثنايا الفك الأعلى ، وهذه بطبيعة الحال من مميزات القرد ، وحتى سقف الحلق يمتاز بالنعومة كما هو الحال عند القردة . كما أن وزن العظام وحجمها تقوى السمات القردية السامة . وقد تدهشنا لأول وهلة رؤية الهيئة الإنسانية التى يمتاز بها هذا الآسيوى .

وبالرغم من هذه الخصائص البدائية كلها ، فإن عليها المسحة البشرية ، ومن ذلك أن سعة الجمجمة عند الإنسان القردى تقف فى منتصف الطريق بين القردة العليا والإنسان الحديث مع ميل مؤكد إلى الأخير كما يتضح من المقارنة الآتية :

---

(١) القذال هو العظمة المؤخرية الناتئة فى الرقبة .

سعة الجمجمة :

القرد	الإنسان القردى (١)	الإنسان القردى (٢)	الإنسان الحديث *
٢٩٠ – ٦١٠سم٣	٩١٤ – ٩٤٠ سم٣	٧٥٠ سم٣ (الأنثى ؟)	١٢٠٠ – ١٥٠٠سم٣

وإذا قسنا طول قحافة الجمجمة وتأكدنا من مقدار الفراغ الذى كان يشغله المخ منها ، ومقدار ما تشغله العظام ، فإنا نجد أن إنسان جاوة يتبوأ مركزاً وسطا أيضا بين القردة والإنسان الحديث كالآتى .

الفراغ المخى :

الغوريلا (ذكر بالغ)	الإنسان القردى (١)	الإنسان القردى (٢)	الإنسان الحديث
٧٣ ٪	٨٤ ٪	٨٢ ٪	٩٢ ٪

وأسنان الفك الأسفل (ب) تعد ظاهرة ذات أهمية وذلك أن هذه الأسنان تتكون من ثلاثة أضراس طاحنة يمكن مقارنة حجمها بحجم أضراس الأورانج أوتان ، أما الأسنان الطاحنة عند القرد فتمتاز دون شذوذ تقريبا بأنها طويلة أكثر منها عريضة ، فى حين أن أسنان الإنسان على عكس ذلك تماماً ، ومن ثم فإن الضرس الطاحن الأول بفك إنسان جاوة يمتاز بالعرض أكثر منه بالطول، وهذه إحدى صفات أضراس الإنسان . أما الطاحن الثانى فطوله مثل عرضه فى الغالب ، وأما الثالث فطوله أكثر من عرضه وهو بذلك يشبه مثيله فى القرد .

وهناك سمات أخرى متوسطة فى التركيب التشريحى للجسم ، ولكن هناك

(*) تختلف هذه التقديرات اختلافا يسيرا تبعاً لطريقة القياس التى يقيمها الباحث .

أيضاً حقيقتين يبدو أنهما تنأيان بإنسان جاوة عن القردة ، أما الأولى فهى عظمة الفخذ الرقيقة التى وجدت بين الجماجم . فهى تختلف كل الاختلاف عن عظمة الفخذ القردية الضخمة المنحنية ، ثم إن استقامتها وسطوح تشابك عضلاتها ، كل ذلك يدل على أنها عظمة كائن يمشى منتصب القامة ، بل هى لـكائن بشرى قلباً وقالباً . والحقيقة الثانية تقوم على الملاحظة الداخلية فى قحافة الجمجمة التى تمدنا ببعض الأدلة على شكل المخ (فى أثناء الحياة) . ويؤكد « فردريك تلنى » أستاذ علم الأعصاب بجامعة كولمبيا الذى درس هذه الصفات — يؤكد أن إنسان جاوة قد نمت عنده أجزاء من المخ ظلت صغيرة للغاية فى مخ القردة ، وخاصة الفصوص الأمامية التى لا شك أنها أكبر منها عند القردة وإن كانت فصوص القردة أصغر من فصوص الإنسان الحديث ، فنمو هذه الفصوص يعد سمة من سمات المخ البشرى وفقاً لنظرية تلنى التى يمكن تلخيصها فى الآتى :

« إن اكتساب القامة المنتصبة ، وحرية استخدام اليـــدين ، والإحساس الأكمل بالحياة ، وكسب صفة الـكلام ، والميل إلى الإنشاء ، والدافع إلى الـكشف ، والقدرة على الهجرة ، كل ذلك مجتمعا يوسع مجال التجربة الإنسانية، ويزيد بالتالى القدرة على التعلم. وجلى أن هذه كلها قامت بدور هام فى إبراز الشخصية الإنسانية وتوسيع قدرة الإنسان على الاختيار والانتخاب وابتداع أسس الحـكم على الأشياء وتعليلها . . . كل هذه الوظائف الطبيعية (الفيزيقية) العليا تعزى فى الوقت الحاضر إلى الفص الأمامى للمخ ».

إن نمو الفصوص الأمامية عند الإنسان القردى يعد إذن نقطة تحول حاسمة نحو الإنسان الحديث . ويبدو بوضوح أن إنسان جاوة بوصفه شبيها بالقرد فى بعض

سماته قد وضع على رأس الفصائل العليا الأخرى الشبيهة بالإنسان . وقد وضع « تلنى » قائمة بضروب النمو فى الإنسان القردى ، وتشمل الآتى :

١ — ازدياد المرونة والقدرة الحركية .

٢ — اكتساب القامة المنتصبة .

٣ — حرية استخدام اليدين وكفاءة حركتهما .

٤ — نمو الإحساس البصرى والسمعى .

٥ — القدرة على الكلام .

٦ — تكوين الشخصية الإنسانية واكتساب المواهب النفسية العالية .

ويشك « لجروس كلارك le Gros Clark » عالم الحفريات البشرية البريطانى شكا خطيراً فى هذا النوع من النتائج ، فهو يشك فى أنك تستطيع استنباط كل هذا القدر من داخل الجمجمة ما دامت بصمات تلافيف المخ لا يمكن أن تكون واضحة فى الجماجم البشرية . وهو يرى أن « كابرز » و « بورمان » وكلاهما من أدق دارسى المخ ، قد أثبتا بعد فحص تلافيف القصوص الأمامية أن النموذج « يدل على وجود وجوه تشابه كبيرة للغاية بينه وبين الشمبانزى ، تفوق ما يلاحظ دائما بينه وبين الإنسان من تشابه » .

ومع ذلك فإن كلارك لم ينكر التقدم الذى حققه الإنسان القردى المنتصب القامة وبز به غيره من أنواع الرئيسيات ويرجح أن هذا الإنسان يكون حلقة من سلسلة الأسلاف التى تنتهى إلى الإنسان .

وبرغم أن عرض المادة الصينية (إنسان الصين) الآن أمر سابق لأوانه إلا أنه مناسب بالنسبة لموضوع الدور التقدمى الذى قام به إنسان جاوة ، إذ لم يعد الآن

خلاف فى أن إنسان بكين ذو قرابة كبرى للانسان القردى ، إلا أن الأول متقدم عنه قليلا . وكانت الحفريات الصينية توجد غالبا مصحوبة بأدوات مصنوعة من الأحجار والعظام ، هذا إلى معرفة رجل بكين بفائدة النار ، وهذا دليل قاطع على حصوله على نوع من الثقافة كان يجهله غيره من أشباه الإنسان . كما أنه لم يعثر على مخلفات صناعية فى حفريات جاوة . ويغلب على الظن أن عدم الاستقرار هو الذى حال دون ذلك . ومن الواضح أن أدوات باتجيتانيان الحجرية متأخرة عن حفريات الإنسان القردى ولكنها مشابهة لنوع الأدوات التى وجدت فى بكين (انظر فصل ٦) وهذه الحقيقة تدل على أن إنسان جاوة كان قادراً على صنع نفس الأشياء التى صنعها إنسان الصين القديم .

وكانت ضخامة الإنسان القردى (رقم ٤) Robustus هى السبب فى وصفه بشدة البأس . وقد اعتبر فرانز ويدنرايخ العالم الشهير فى مورفولوچيا الإنسان ، وهو الذى قام بدراسة نهائية حاسمة لإنسان الصين القردى ـ اعتبر هذه الجمجمة مخالفة لغيرها من الجماجم . والواقع أنه جعلها حلقة وسطى فى السلسلة التى تبدأ بالإنسان القردى الضخم (Meganthropus) ، وهو الاسم الذى أطلق على بقايا الفكوك التى عثر عليها ڤون كوينجز والد .

ويذهب ويدنرايخ إلى أبعد من ذلك ... إذ كانت جزيرة جاوة إبان الحرب الأخيرة يحتلها اليابانيون ، وكان ڤون كوينجز والد معتقلا فى إحدى معسكرات الاعتقال ، ولكنه كتب إلى ويدنرايخ قبيل هذه الحوادث وصفاً للفكين السفليين للانسان القردى الضخم معززاً بالرسوم . كما تمكن بمعونة المساحة الچيولوچية من أن يرسل له قوالب مصبوبة لتلك الحفريات . وعلى أساس هذه الاستدلالات وكشوف كوينجز والد لأسنان كائن قردى ضخم

(Giganto Pirhicus) في أحد حوانيت العطارة في هنج كنج (انظر فصل ٥) تمكن ويدنرايخ من وضع نظرية الإنسان القردي العملاق.

كان ينبغي اعتبار إنسان بكين الضخم حلقة اتصال بين الإنسان القردي المنتصب القامة، وعمالقة جاوة وإنسان الصين الضخم. ويؤكد ويدنرايخ دون منازع وجود خصائص بشرية بأطراف أسنان هؤلاء العمالقة، وهي التي جعلته ينادي بهذا الغرض ومن ذلك قوله:

« إذا صرفنا النظر عن حجم تاج الضرس، فإن الحجم النسبي لأطراف كل ضرس على حدة، وترتيب الضروس وشكلها الخاص كل ذلك لا يتفق مع أي من الحيوانات العليا، سواء أكانت حية أم حفرية، في حين أنها تتفق مع الإنسان ».

ولما كان ويدنرايخ عالما مورفولوجيا من الطراز الأول، فإن تحقيقه الذي أجراه على هذه الأسنان باعتبارها أسنان إنسان بدائي لم يكن موضع بحث. فإذا سلمنا بهذه الحقيقة قويت فكرة وجود أسلاف عمالقة للانسان [١] وزادت أهميتها ولقد أعاد ويدنرايخ تركيب هذه الكائنات مبتدئاً بإعادة تركيب الفكين، ثم تدرج من هذه النقطة حتى توصل إلى النتائج التالية:

« قد لا نعدو الحقيقة كثيراً إذا اقترحنا أن عملاق جاوة كان أكبر من أية غوريلا في الوقت الحاضر، وأن العملاق الصيني كان بالتالي أكبر من عملاق جاوة — أي أنه أكبر مرة ونصف مرة من عملاق جاوة وأكبر مرتين من ذكر الغوريلا » [٢]

---

(١) في الكتاب المقدس ما يشير إلى أن الأرض كان يعمرها عمالقة في الزمن القديم (انظر سفر التكوين ٦ : ٤).

(٢) وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن إنسان جاوة العملاق كان يربو طوله على ٩ أقدام، وإنسان الصين العملاق كان يربو طوله على ١٢ قدماً (المراجع)

ثم انتهى ويدنرايخ إلى أنه :

« قد انفسح المجال للسلسلة البشرية وخاصة المجموعة الأكثر بداوة بعد هذه الكشوف الجديدة وبعد التقدم فى تعليل الإنسان القردى الضخم تعليلا صحيحا ، واعتباره حلقة بين الحجم الطبيعى والعملاق . وأعتقد أن هذه السلسلة الإنسانية تنتهى بنا إلى العمالقة إذا ما تتبعناها إلى أقدم العصور . ومعنى ذلك أن هؤلاء العمالقة ربما كانوا هم أسلاف الإنسان مباشرة » .

وقد بنى ويدنرايخ فكرته هذه على أساس معرفته الواسعة بتركيب الإنسان والحيوان ومع ذلك فلم يتفق معه جميع علماء الأجناس البشرية أو علماء التشريح وأثبتوا أن ضخامة الفك والأسنان وحجمها لا تعنى بالضرورة ارتفاع القامة ، كما أن العظام الحفرية التى بنى عليها ويدنرايخ نظريته كانت قطعا متناثرة الأمر الذى يحيط هذه النظرية بالشك . ومنذ ذلك الحين ثبت أن هذا الكائن العملاق ليس إلا قرداً عظيم الجرم . [1] .

وهناك إجماع على أن الإنسان القردى الضخم قد يكون متحولا من الإنسان القردى المنتصب القامة ، غير أن هناك طائفة من الحقائق الجوهرية التى جمعها

---

(١) من الآراء الجديرة بالذكر فى نقد نظرية ويدنرايخ أن بعض العلماء عزا هذه العظام الضخمة إلى حالة مرضية معروفة تنجم عن اضطراب فى الغدة النخامية ، ولكن ويدنرايخ الذى كان ضليعاً فى علم تشريح الإنسان رد على ذلك سنة ١٩٤٦ بأن التضخم فى العظام الناتج من هذا المرض لا يؤثر فى حجم الأسنان التى تبقى على حالتها الطبيعية برغم تضخم عظام الفك ، بينما الأسنان والفك فى حفريات العمالقة التى اكتشفها تنمو بنسبة محفوظة ، أو بمعنى آخر أن الأسنان كانت أسنانا ضخمة هى الأخرى ولا يمكن أن تكون إلا لسلالة عملاقة من البشر . (المراجم)

ج . ت . روبنصن . توضح أن الإنسان القردى الضخم يرجع إلى إنسان الجنوب القردى ، أى إلى مجموعة الحيوانات العليا الشبيهة بالإنسان التى ثبت وجودها بجنوب إفريقيا [١] . ولكن يرجح أنها انتشرت فى العالم القديم انتشاراً كبيرا .

ومهما كانت الحال ، فلابد من الوصول إلى دليل أقوى من هذا قبل أن نستطيع تعيين مكان هذه الأنواع الأولى فى عصر ما قبل التاريخ بقارة آسيا .

أما مجموعة الإحدى عشرة جمجمة ، وعظمتى القصبة ، فمن مخلفات عصر البليستوسين التى وجدت فى ناندونج (إنسان سولو) ويرجح أنها أدق مجموعة وجدت حتى الآن فى ترتيبها الزمنى وفقاً للطبقات الأرضية بين جميع مخلفات الإنسان فى جاوة . ولذا عظمت أهمية هذه المادة إلى حد كبير . وبالرغم من أن كشف هذه المجموعة قد تم فى سنة ١٩٣١ ولكنها لم تدرس إلا بعد الحرب العالمية الثانية ومن حسن الحظ فقد تمكن الدكتور ج . ه . ر فون كوينجزوالد الذى كان أسير حرب لليابانيين فى جزيرة جاوة فى الحرب العالمية الثانية من المحافظة على الحفريات وبقايا الإنسان القردى الضخم والإنسان القردى المنتصب القامة ، ودبر أمر إخفائها ، ولكن اليابانيين صادروا إحدى جماجم سولو ، وأرسلت هذه الجمجمة هدية إلى إمبراطور اليابان بمناسبة عيد ميلاده . وفى سنة ١٩٤٦ عندما أوفدت مع سلطات الاحتلال الأمريكية إلى اليابان كنت لا أزال على اتصال بالدكتور ه . ل شابيرو رئيس قسم علم الأجناس البشرية بمتحف التاريخ الطبيعى الأمريكى وقد كتب إلى مستفسرا عن الجمجمة المفقودة وطلب أن أتحرى عنها فى الأماكن المجاورة . واهتم

---

(١) التى اكتشفها الدكتور بروم فى منطقة الترانسفال بجنوب إفريقيا بين سنتى ١٩٣٦ ، ١٩٣٩ . (المراجع)

المتحف الأمريكى بذلك اهتماماً خاصا لأن ويدنرايخ وفون كوينجز والد كانا يعملان معاً فى معامل هذا المتحف ويدرسان مخلفات جاوة التى كان ڤون كوينجزوالد قد أحضرها معه إلى الولايات المتحدة بعد هزيمة اليابانيين وإطلاق سراحه . وبدأت البحث بمعاونة مجلس القوات المتحالفة للغنائم فى طوكيو . وقد تم هـذا البحث بنجاح بالعثور على الجمجمة فى متحف القصر الإمبراطورى فى طوكيو .

وعندما أعيدت الجمجمة ذاعت شهرتها مع أنه لم يكن فى طوكيو من يعرف شيئاً عن إنسان سولو هذا. وكان هذا النموذج الغريب أى الجمجمة رقم ٩ عبارة عن قبوة جمجمة بهامعظم نتوء الحاجب وجزء من منطقة الأذن . فإذا ما تأمل الإنسان فيما تحت قبوة الجمجمة مباشرة فإنه يتأثر ببدائيتها . أما خلف نتوء الحاجب مباشرة فالجمجمة ضيقة ،وهذه حالة مؤكدة للغاية فى الإنسان القردى ، فى حين أنها لاتكاد توجد على الإطلاق فى الإنسان الحديث . أما قبوة الجبهـــة فتميل إلى الطول والانخفاض ولـكنها لا تبلغ انخفاض جبهة الإنسان القردى . وكانت جـدران الجمجمة سميكة جداً تتسم بتلك الضخامة التى يمتاز بها معظم الحفريات البشرية ومع ذلك فإن سعة الفراغ الجمجمى عند إنسان سولو يبلغ ١١٥٠ سم و ١٣٠٠ سم ، أى فى نطاق مقياس الإنسان الحديث ، كما أن عظام القصبة متقدمة جداً من حيث الشـكل والحجم .

لقد عكف ويدنرايخ على دراسته الجـادة لهذه المجموعة المتجددة من جماجم سولو ، ولـكنه مات فى أثناء عمله سنة ١٩٤٨ ، ومع ذلك فقد نُشرت مخطوطته التى لم يتمها فأصبحت خير مرجع بالنسبة لهذه المجموعة .

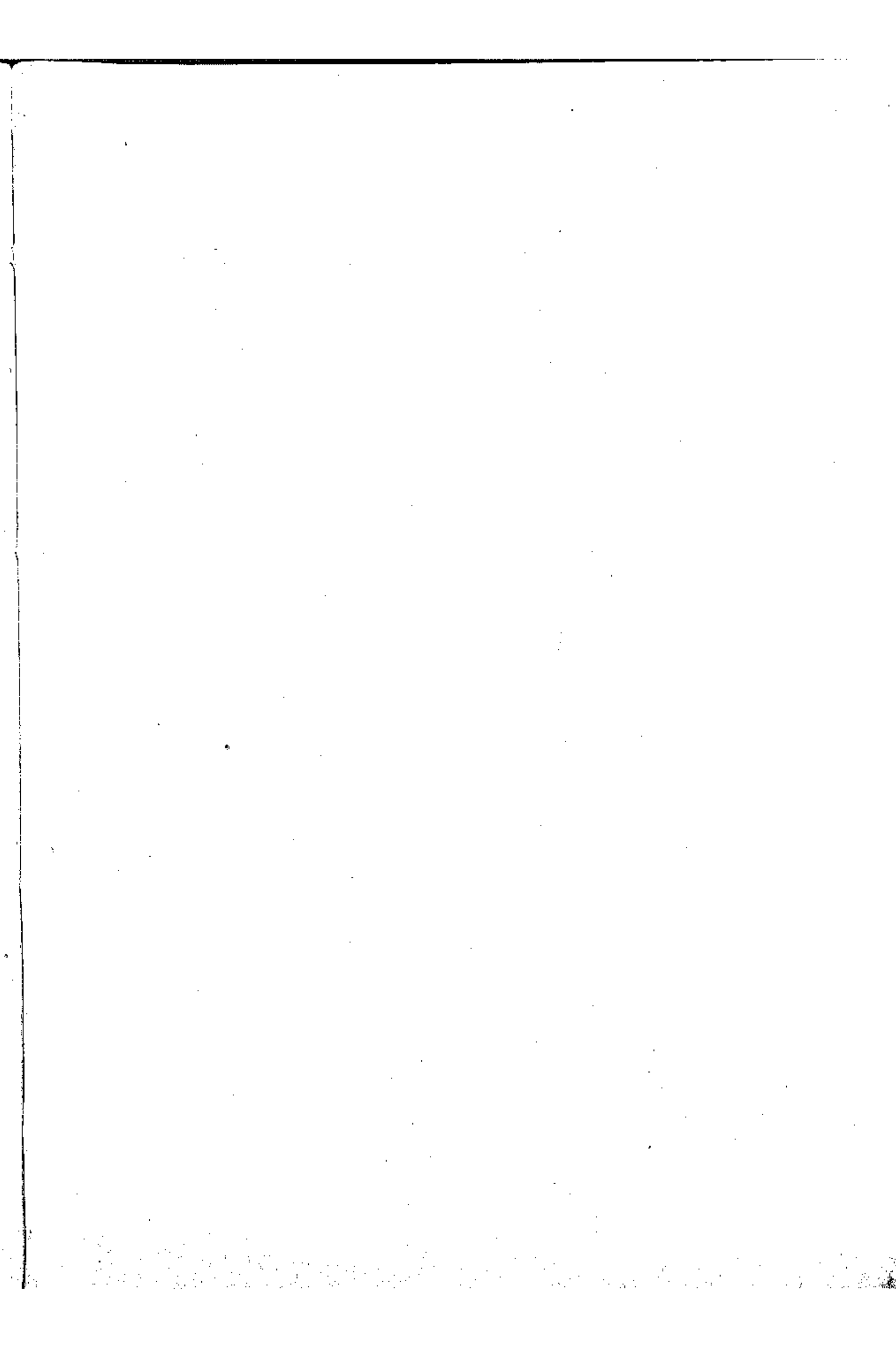
لقد أوضحت دراسة ويدنرايخ أن هناك بعض وجوه الشبه من الحيوانات العليا

الشبيهة بالإنسان الأقدم من هذه الحفريات ، وبذلك اعتبرت حالة جيدة يمكننا معها التسليم بأن إنسان سولو منحدر من إنسان جاوة القديم « ولكن » لجروس كلارك Le Gros Clark وغيره يعتبرون إنسان سولو منحدراً من أصل نياندرتالى ، ويبدو أنه انتشر فى طول أوراسيا وعرضها فى أواسط عصر البليستوسين الأعلى . وهناك نظرية تقول إن إنسان نياندرتال من أسلاف بعض أجناس بشرية حديثة معينة ، وفى هذه الحالة يمكن القول بأن إنسان سولو قد يكون سلفاً للأستراليين الأقدمين . وفضلا عن ذلك كله فإن جميع هذه النظريات بحاجة إلى كثير من البراهين .

ومما يدعو إلى الاهتمام أنه وجد عدد قليل من الجارف الحجرية غير المهذبة ، وبعض كرات من الحجر بالقرب من حفريات ناندونج ، غير أنها لم تكن معها فى مكان واحد ، كما يحتمل أن يكون قد عثر بالقرب منها على بعض قرون الوعول المصنوعة ، ولذا فمن المرجح جداً أن يكون إنسان سولو قد استخدم الأدوات . ومهما كانت الحال فإن الشك ضئيل فى أن إنسان سولو كان إنساناً حقيقيا وإن كان بدائيا .

وتعد المادة التى عثر عليها فى جاوة وافرة إذا ما قورنت بما وجد فى معظم أنحاء العالم ولكنها ضئيلة بالنسبة للقصة الهائلة التى تحاول أن ترويها ؛ فهؤلاء الناس الذين عاشوا فى جاوة كانوا يبحثون عن صيد الحيوان فى البرارى المدارية الوفيرة الرزق حيث كان وجود النمر والخرتيت والفيل مع الأورانج والجيبون جنبا إلى جنب من المناظر اليومية المعتادة . ولقد كانت جاوة أرض البراكين ، فهل كان إنسان جاوة كلما ثارت هذه البراكين فى الماضى البعيد يفر فرار الحيوان من ذلك المنظر فى عجلة ويسعى إلى غير هدف ، أو كان مدفوعا بقصد الإنسان

العاقل المصطبغ بالخوف من المجهول ؟ فإذا اعتبرنا الأمر الأخير لكان معناه بداية ظهور الفكر الآسيوى ، وكانت هذه أولى خطواته فى طريق الثقافة الآسيوية الطويل . إنا نبحث فى دراساتنا عن الأصول ، وربما كانت هنا أهم البدايات جميعا ، رجل مفكر يعيش فى عالم بدائى ، ولكنه يقف على عتبات ثقافته — إنها خطوة أولى ما كانت الثقافة الحديثة لتستطيع أن تظهر بدونها فى عالم الوجود .



٥ ـ الآسيويون القدامى (من الصين)

فى ولايات الصين الجنوبية كهوف عديدة من الحجر الجيرى ملأى برواسب الحفريات العظمية التى يطلق عليها اسم « لتج — كو » وترجمتها « عظام التنين » . ويعتبرها القوم هنالك علاجاً ناجعاً لكثير من علل الإنسان . ويسحق تجار الأدوية والعقاقير هذه العظام أو يغمسونها فى سائل ساخن يشرب كالحساء ، أما حفريات الأسنان فتعد أحسن دواء لكثرة عرضها فى محال بيع العقاقير . وقد استخدم الصينيون كثيراً من أمثال هذه العقاقير منذ أجيال عديدة ولا يزال إقبالهم على الحفريات كبيراً حتى فى الوقت الحاضر . ويجد الفلاحون الذين يعيشون فى منطقة الكهوف فى بيع هذه العظام التى يستخرجونها من الأرض مصدراً إضافياً لدخلهم . ويصف « والتر جرانجر » كبير مفتشى الحفريات القديمة ببعثات « أندروز » فى صحراء جوبى ، والذى زار إحدى هذه المناطق حين كان بالصين الجنوبية ـ يصف هذا العمل الذى يقوم به الفلاحون بدقة فيقول :

« إن الذين يقومون بعملية التنقيب دون سواهم ، هم الفلاحون الذين يعيشون بأعلى الحافة الجبلية حيث يقيمون إقامة غير مستقرة فى الصيف ، يحفرون التربة بين الصخور المكشوفة . وفى فصل الخريف ، بعد أن يكون الفلاحون قد انتهوا من حصاد غلاتهم يخرجون فى جماعات صغيرة يبحثون عن حفرة ، فإذا ما عينوا مكانها عن طريق دراسة السطح بعناية ، بدءوا عملية التنقيب . وليست هناك طريقة للتنبؤ بالعمق الذى سينتهى إليه

الحفر من دراسة السطح فقط . وكثيرا ما صادف المنقبون فراغا ، أى حفرة قليلة الغور خالية من العظام ، ولـكنهم يقفون إن عاجلا أو آجلا على موضع حفرة عميقة ، فإذا ما بلغوا بالحفر عمقا يصعب معه رفع الطين بأيديهم ، فإنهم يضعون فوق الحفرة بكرة بدائية ، ويستعينون بحبال وسلال مصنوعة من الغاب الهندى فى مواصلة تنقيبهم ، فإذا ما عثروا على العظام . آخر الأمر انتشلوها من الطين بواسطة فأس شعبية ذات يد قصيرة ، ورفعوها إلى السطح . وفى آخر النهار ينقل ما يتجمع منها إلى بيت ريفى قريب تنشر فيه حتى تجف ، ثم تبدأ عملية التنظيف حيث تشترك جميع الأيدى بالمزرعة فتقضى اليوم فى كشط ما علق بالعظام من التراب ، ثم تـكـدس هذه العظام بأحد الأركان استعداداً لبيعها لتجار الجملة الذين يسافرون مصعدين إلى القمة ، ويهبطون منها عدة مرات كل شتاء » .

ويمثل هذا الفيض من المواد الحفرية التى تصل إلى أيدى تجـار الدواء من الصينيين طائفة هائلة من عظام الحيوانات الثديية من عصر البليستوسين. وقدلاحظ ڤون كوينجزوالد وغيره أن بين هذه العظام حفريات من أسنان الرئيسيات (١) أكثرها شيوعا أسنان الأورانج أوتان ، ولذا حاول الحصول على قدر طيب من مجموعات الأسنان الهامة من كائنات البليستوسين القديمة . وتصادف أن حصل ڤون كوينجز والد لأول مرة فى أثناء هذا البحث على ضرس طاحن كبير الحجم

(١) تقدم وصف الرئيسيات بأنها مجموعة من الحيوانات الثديية العليا تشترك فى بعض الصفات التشريحية للجسم وبضم الليمور والقردة كانسان الغاب والأورانج أوتان والشمبانزى والغوريلا ثم الإنسان (المراجع) .

للغاية الكائن من الرئيسيات ، ويبلغ هذا الضرس ضعف حجم أى ضرس آخر من معروضات تجار العقاقير ، ثم أضاف إليه فيما بعد ثلاث عينات أخرى .

«ولا شك مطلقاً فى أن الأضراس الطاحنة الأربعة تنتسب إلى نفس الفصيلة وهى تمثل أربعة أفراد مختلفين . ومما يدل على ندرة هذا النوع من الأضراس الضخمة أنه فى كل ١٥٠٠ سن من أسنان الأورانج الحفرية ، لا يوجد غير أربعة من طواحن الإنسان القردى الضخم » .

ولم يعثر العلماء أنفسهم إلا على النزر اليسير من البقايا الحيوانية كتلك التى يعرضها تجار العقاقير فى دكاكينهم بكثرة فى موضعها الطبيعى فى التربة ، وذلك حتى يتمكنوا من تحديد عمرها بشىء من الدقة .

ولكن هناك استنتاجات كافية مستمدة من الدراسات الأخرى التى أجريت على الأشياء التى وجدت مع البقايا الحيوانية المتراكمة فى كهوف الصين ، وكلها ترجح انتساب الإنسان القردى العملاق إلى عصر البليستوسين الأوسط . ويجرى عالم الحفريات الصينى باى ون ـ تشونج فى الوقت الحاضر عمليات التنقيب فى كهوف الصين الجيرية فى كوانجى ، واستطاع أن يحصل على أكثر من خمسين سنا للانسان القردى العملاق ، بل أثبتت بحوثه أكثر من هذا أن عصر البليستوسين الأوسط كان عصر هذا الكائن من الرئيسيات كما كان أيضا عصر الإنسان القردى وهذا يرجح أنهما متعاصران .

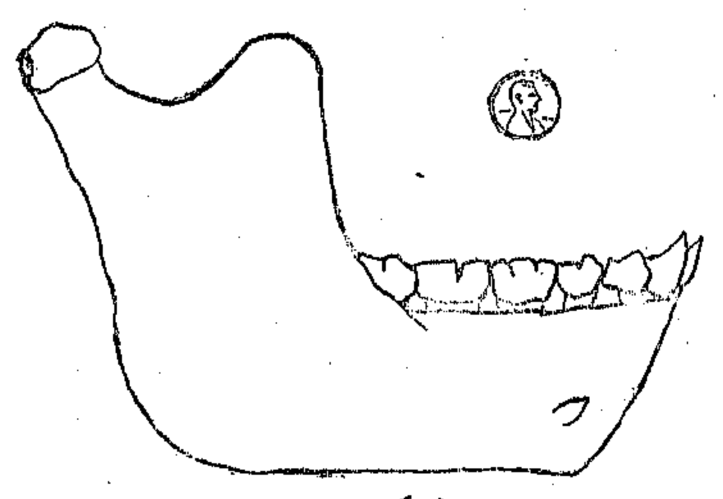
ويؤكد ويدنرايخ كبر حجم الإنسان القردى العملاق، أما فون كوينجزوالد الذى يشتغل بالمادة الأصيلة على أساس دراسة أطراف الأسنان وخصائصها الأخرى ، فقد أيد كبر حجم هذا النوع من الرئيسيات ، ولكنه ينكر مكانه من سلسلة أسلاف الإنسان وفى ذلك يقول :

« يجب أن ننظر بتحفظ إلى الإنسان القردى العملاق بوصفه عضواً عملاقاً فى الجماعة الإنسانية . . . ولكن بما أنه قد وصل إلى درجة معينة من التخصص الفائق كما تدل على ذلك أضراسه الطاحنة ، فلا يمكن اعتباره من أسلاف الإنسان » .

واحتمال وجود نوع من القرد العملاق اجتذب خيال الكثيرين ، ولكن الدليل على ذلك لا يزال ضعيفاً للغاية . والحقيقة الوحيدة ، وهى ضخامة الأسنان والفك لا تصلح أن تكون دليلا يؤيد ارتفاع القامة وضخامة البنيان الجسمى ، والواقع أن هناك حيوانات عليا ذات فكوك ضخمة بالنسبة إلى أجسامها مثل الكائن المعروف باسم بارانثرويس ، أى القريب من الإنسان القردى ، بجنوب إفريقيا .

ولقد وصف الدكتور باى ون — تشونج أخيراً فكا سفلياً لإنسان قردى عملاق وجده فلاح فى كوانجسى ، وهو من غير شك فك لكائن شبيه بالإنسان برغم وجود دلالات على خصائصه البشرية (مثل تقوس الفك والناب القصير) ، وأحدث من هذا ، تلك التقارير عن فكوك أخرى وجدها پى وزملاؤه . ولما كان پى لا يزال يجرى البحوث التى كان قد بدأها ڤون كوينجزوالد وغيره بداية تبشر بالنجاح ، فلربما كان من الأفضل أن نترك له الكلمة الفاصلة فى هذا الموضوع ، ومن ذلك قوله :

« إن النموذج المورفولوچى للانسان القردى العملاق يشير إلى أنه قد ينتسب إلى فرع جانبى من الحيوانات العليا الشبيهة بالإنسان ، ولكن النقطة التى انفصل عندها هى أقرب ما تكون إلى السلسلة الإنسانية من أية حفرية أخرى وجدت حتى الآن من حفريات الحيوانات العليا الشبيهة بالإنسان » .



(شكل — ٤)
فك لإنسان قردى عملاق (عن فون كوينجز والد عام ١٩٥٢)

تشوكوتين

تواجه بكين حافة هضبة آسيا الوسطى وتقع قريباً منها . وتمتاز هذه الحافة بالتلال الجافة المتآكلة ، أما التلال الغربية الواقعة غربى بكين فتكون منظراً خلفياً رائعاً لهذه المدينة كثيرا ما استلهمه الشعراء فى قرض أشعارهم . ولقد قيل إن حكام الصين المغول كانوا يتطلعون فى شغف إلى هذه التلال التى تحدد تخوم أواسط العالم الآسيوى الذى أحبوه حباً جماً ، حتى لقد بنى الاباطرة من أسرة (منج) مقابرهم غربى بكين حيث أضفت هذه التلال منظراً خلفياً شاعرياً لشوارعها الطويلة ذات التماثيل المنحوتة التى تمتاز بها الطرق المؤدية إلى مقابرهم . بيد أن هذه التلال الغربية قد لعبت دوراً أكبر بكثير من مجرد إلهام الشعراء واستثارة أحلام الأباطرة .

لقد حدث فى زمن بعيد للغاية لا يمكن تحديده بالسنين للدلالة على قدمه أن كانت المنطقة المعروفة الآن بالصين الشمالية مغمورة ببحر ضحل أرسب كميات

هائلة من الغرين الـكلسى الذى أصبح فيما بعد حجراً جيرياً . وربما كان هذا البحر دافئا فتـكون الحجر الجيرى من الأجسام المرجانية . ومهما كانت الحال فإن الحياة على الأرض كانت حياة بحرية . . حياة بحرية لا فقرية تدل آثارها فى الحجر الجيرى على أنها من العصر الأردوفى Ordovician .

لعبت عوامل الرفع والخفض خلال مئات الألوف من السنين دورها فى عزل الأحجار الجيرية الأردوفية عن الطبقات الأخرى المحيطة بها ، فظلت هذه الـكتل المنعزلة بمثابة تلال متآكلة متشققة ويقع أحد هذه التلال على مسافة ثلاثين ميلا تقريبا من مـكان بـكين الحالى ، وهو تل (تشوكوتين) أو تل (عظمة الـكتـكوت Chicken Bone) .

وكان تل تشوكوتين فى أوائل عصر البليستوسين مغموراً بالماء الذى كان سبباً فى تعميق الشقوق الموجودة من قبل ، وإحداث شقوق أخرى غيرها . وعندما انحسر الماء فى عصر البليوسين ، وظهر التل تدريجيا « التقطت » أكثر الشقوق ارتفاعا بقايا بحرية من الحصى والطفل والرمال وبعض بقايا الحيوانات المعاصرة . وتعد هذه الرواسب « الملتقطة » الدليل الوحيد على هذه الأحداث إذ يكون معظم المادة فى خارج الشقوق قد تم تآكله . (١)

ويطلق عادة على البقايا من عصر البليستوسين الأدنى (فيـــــلا فرانشيان Villa Franeian) كما توجد هذه البقايا فى الصين الشمالية بقيعان العصر السانمينى الأدنى Sanmenian المـكونة من اللويس (الرواسب الطينية) ، وهى تشير على الأرجح إلى مناخ بارد نصف جاف . ويظهر أن تل تشوكوتين لم يـكن قد ظهر

---

(١) تذكر المواقع الآتية إلى مراكز هذه البقايا القديمة ، وهذه المراكز هى : المركز رقم ١٤ « جيب السمك » و « قمة » الترافرتين (ذات القاع الـكلسى المتحجر) وهو يقع فوق المركز رقم ١ .

كله على سطح الماء فى عصر البليستوسين الأدنى ، إذ أنه وجد فى تجويف صغير (المركز رقم ١٢) حفريات فيلا فرانشية من نوع التيتل ، وبقايا قط ذى أسنان حادة ، ونوع من القردة كانت المياه قد أصابتها جميعا بالتلف .

أما النهر المجاور فكان فى ذلك الحين على وشك التراجع إلى مستواه الحالى بعد دور من الالتواء والتآكل الشديد الذى مر بالصين الشمالية ، والذى أعقبته فترة طويلة تكونت فيها التربة الرسوبية ، ويطلق عليها إرساب تشوكوتين الذى حدث فى عصر البليستوسين الأوسط . ولقد كان الفصل بين البليستوسين الأدنى والبليستوسين الأوسط أمراً بالغ العمق ، ويغلب على الظن أنه دليل على ظهور أراضى الصين الحديثة .

الترتيب الزمنى لجيولوجية الصين الشمالية

(عن موفيوس — ١٩٤٤)

البليستوسين	التكوين	تشوكوتين
—	رواسب اللويس (المالانية)	الكهف العلوى
الأعلى	تفتت تشنجشوى	—
—	تشوكوتين	المركز رقم ١٥
الأوسط	الإرساب السانمينى الأعلى تفتت هوانج شوى	المركز رقم ١ المركز رقم ١٣
—	السانمينى الأسفل	المركز رقم ١٢
الأسفل	—	—
—	تفتت فنهو	—

ويطلق على أقدم بقايا البليستوسين الأوسط اسم (السامينى الأعلى) وقد تحقق وجود رواسب فى شقين من شقوق تشوكوتين (بالمركزين ٩ و ١٣) وذلك لوجود بقايا حيوانية من مميزات البليستوسين الأوسط مصاحبة لها . أما فى المركز رقم (١٣) ، وهو مركز صغير (نحو ١٥ × ٦ أمتار) فإن التنقيب لم يصل فيه إلى أعمق من خمسة أمتار ، ولكن عند عمق أربعة أمتار وجدت أداة تقطيع من الصوان لا شك أنها من صنع إنسان ، وكانت مصحوبة ببعض العظام المحترقة والأحجار الغريبة وهذه قد تكون مصنوعة أو غير مصنوعة . ويبدو أن هذا برهان رائع على أن الإنسان كان يسكن الصين الشمالية فى أوائل البليستوسين الأوسط .

والطفل الذى يطلق عليه ــ الطفل الأحمر ــ مطابق تماما لبقايا تشوكوتين المتأخرة ، وهو منثور على الأرضية الكلسية المتحجرة التى تتكون منها رواسب المركز رقم (١) وهو أغنى المراكز وأكثرها أهمية فى تل تشوكوتين . ويغلب على الظن أن هذه البقايا تجمعت بأحد الكهوف فى شكل كتل من الحجر الجيرى . وقد تبين أنها كانت فى الأصل سقفا لهذا الكهف ثم سقطت . ومع أن التنقيب فى المركز رقم (١) لم يصل إلى غايته بعد ، فإن ما استخلص منه يكفى للدلالة على أن هذا المركز من أهم مواقع العصر الحجرى القديم فى آسيا ، إذ لم يقتصر الأمر على ما وجد فيه من بقايا حفريات وافرة للانسان البدائى (إنسان الصين) بل كانت هذه الحفريات مصحوبة فى نفس المكان مباشرة بمواقدهم وعظام الحيوانات والنباتات التى كانوا يأكلونها والأدوات التى كانوا يستعملونها .

ورغم وجود عدة مستويات وأنواع من الرواسب . فإن كل المادة التى

كشف عنها التنقيب فى المركز رقم (١) ترجع إلى عصر البايستوسين الأوسط ، ويتمثل فيها إنسان الصين من أعلى طبقاتها إلى أسفلها .

تدل كل هذه المواد على إقامة الإنسان القديم المنتظمة وليس مجرد تردده بين حين وآخر على غير قصد ، أو لمجرد الالتجاء إلى مأوى بالمصادفة ، والمنقبون فى هـذا المـكان لعلى ثقة من أن المركز رقم (١) ، ولعل مراكز أخرى عديدة (وخاصة رقم ٣ ، ٤ ، ١٥) كانت تستخدم للاقامة على أنها بيوت مثالية .

ولو أننا ربطنا بين علم تـكوين الأحجار ، وعلم طبقات الأرض ، ودلائل وجود إنسان الصين لظهر لنا أن بقايا المركز رقم (١) لا يمكن منطقياً أن تفسر على أنها شيء عرضى أو مفاجىء أو تراكم غير متجانس لبقايا الحيوانات والإنسان بداخل حفرة مفتوحة أصلا . ومن الواضح أن هذه الرواسب المتراكمة تمثل بقايا كهف عظيم قديم امتلأ حتى آخره ، وفى بطء ، بمواد رسوبية من التربة الأرضية فى غضون احتلاله الطويل بواسطة الحيوانات المفترسة أو الإنسان .

أما الدليل على الترتيب الجيولوجى الخاص بالصين الشمالية ، فقد تجمع من مناطق خارج تشوكوتين . وهو يدل على أن دور الإرساب فى تشوكوتين أعقبه دور تعرية يطلق عليه (تشنجشوى) وهو يعين الحد الفاصل بين البايستوسين الأوسط والبليستوسين الأعلى .

وأما بقايا البليستوسين المتأخرة بالصين الشمالية ، فهى رواسب طينية مختلطة ببعض الرمل والحصى ، وهذا يدل على مناخ بارد شبه جاف . وتندرج هـذه الرواسب عامة تحت اسم (اللويس المـالانى **melan Loess**) وتشتمل البقايا الحيوانية على الماموث ذى الفراء والثور الوحشى والغزال والجمل .

ولم يحقق التآكل فى تشنجشوى كما لم تحقق رواسب اللويس المالانى إلى حد

كبير فى تشوكوتين ، ومع ذلك فقد وجدت فى كهف علوى فى هذا الموقع عينات قليلة من ثدييات البليستوسين ، مثل دب الكهف والضبع والنعام مصحوبة ببقايا حيوانية حديثة بالضرورة . مثل الأرنب البرى والنسر والغزال والحمار وعناق الأرض [١] . كما وجدت فى هذا الكهف العلوى ثلاث جماجم بشرية وبعض قطع عظمية من طراز غير مألوف مصحوبة بصناعات من العظام المشكلة وبعض الأدوات الحجرية . وقد تكون رواسب هذا الكهف العلوى من عصر البليستوسين المتأخر جداً ، أو مستهل عصر ما بعد البليستوسين .

ولقد تم كشف تشوكوتين فى سنة ١٩١٨ حين اجتذبت العالم السويدى الشهير ج ـ أندرسن التقارير التى تناولت الرواسب الطفلية الحاملة للعظام التى وجدت بوسط محاجر الحجر الجيرى هنالك ، فزار هذا الموقع ، وكان من أثر اهتمام أندرسن به أنه شجع غيره على ارتياده . وفى سنة ١٩٢١ اصطحب معه عالمين من علماء الحفريات هما «زدانسكى» [٢] السويدى والدكتور «ولترجرانجر» من متحف أمريكا للتاريخ الطبيعى بأمريكا فتمكنا فى فترة وجيزة من تخليص عدة بقايا حفرية لحيوانات منقرضة كالخرتيت والضبع والدب ، وبرهنا بذلك على أن هذا المكان لا شك غنى بالبقايا الحيوانية من عصر البليستوسين .

ثم بدأ « زدانسكى » بالحفر فى هذا الموقع ، واشتمل عمله على التنقيب عن البقايا الموجودة فى تجاويف وشقوق الحجر الجيرى . وقد عثر فى بعض هذه البقايا على قطع صغيرة من الكوارتز ذات حواف حادة جعلت « أندرسن » يفكر فى

---

(١) عناق الأرض Badger وهو يشبه ابن عرس أو الثعلب . (المترجم)

(٢) استدعت الجامعة المصرية الأستاذ أولوزدانسكى هذا من السويد ليشغل كرسى الجيولوجيا بكلية العلوم عام ١٩٢٥ وقد شغل هذا الكرسى بجدارة إلى أوائل الحرب العالمية الثانية وكان له فضل إنشاء قسم الجيولوجيا بجامعة القاهرة . (المراجع)

أنها قد تكون من صنع الإنسان . وبناء على هذا التفكير طلب إلى زدانسكى أن يواصل عمله ، وكان هذا أخطر قرار وفى ذلك يقول أندرسن :

« أشعر أن بقايا بعض أسلافنا ترقد هنا ، وأن الأمر يتلخص فى العثور عليها . خذ ما يكفيك من الوقت واعكف على العمل إلى أن تخلى الكهف مما فيه إن استلزم الأمر » .

وفى سنة ١٩٢٦ زار الصين ولى عهد السويد والأميرة (أصبح الأمير الآن الملك جوستاف السادس) ، وكان الأمير من أعظم حماة الدراسات الصينية، ولذا أعده العلماء النازلون فى بكين استقبالا لائقاً ، واستطاع « أندرسن » فى أثناء هذا الاستقبال أن يعرض بعض لوحات بالفانوس السحرى،أرسلها زدانسكى الذى كان حينئذ بالسويد ، وهى تصور ضرساً طاحنا آدمياً وضرساً آخر ذاجدبتين. وكان زدانسكى قد وجدها فى أثناء تنظيفه مجموعة من الحفريات فى مدينة استكهلم .

ومع أنه أثير بعض الجدل حول تحقيق هذه المادة ، فقد كان هناك إجماع أيضا على أهمية الاستمرار فى التنقيب ، فنظم لهذا الغرض اتفاق بين المساحة الجيولوجية الصينية ، واتحاد كلية الطب فى بكين (وكان يمثلها العالم المورفولوجى دافيدسن بلاك) ، بمعاونة مؤسسة روكفلر .

بدىء فى وسط الحرب الأهلية التى نشبت فى الصين بأعمال التنقيب على مدى واسع فى إبريل سنة ١٩٢٧ بإدارة الجيولوجى» س . لى ، والسويدى الشاب بولين (Bohlin) فأزيح نحو ثلاثة آلاف متر مكعب من الرواسب ، وقد وجدت فيها حفريات كثيرة ولكن لم يعثر على سن أخرى إلا فى شهر أكتوبر قبل انتهاء موسم التنقيب بثلاثة أيام . واستطاع بلاك على أساس هذا الكشف أن يؤكدأنهاسن بشرية وأن يقدم التحقيق العلمى الدال على أنها لإنسان الصين.

ومنذ ذلك التاريخ حتى سنة ١٩٣٧ ، حين توقفت أعمال التنقيب بسبب الزحف اليابانى عثر على مزيد من الحفريات ، ولم يعد يقتصر الأمر على العثور على الأسنان فحسب ، بل وجدت أجزاء من الجماجم وعظام الأطراف والفقرات وغيرها . ولكى نوضح الطريقة التى تمت بها بعض الكشوف نجتزىء هذه الفقرة بنصها من تقرير أندرسن :

عندما انتهى موسم المطر (خريف سنة ١٩٢٩) . استؤنف البحث عن العظام فى ٦ سبتمبر وتركز فى قلب المركز رقم (١) . وقرب نهاية شهر نوفمبر ، حين وصل بي ونج ـ تشونج وهو عالم صينى فى الحفريات إلى عمق ٢٢٫٦ من المتر تحت مستوى السطح ، فوجىء بوجود فتحتين فى الطرف الجنوبى من الشق ، ولم يستطع التوغل فى واحدة منهما إلا بواسطة حبل ، وأطلق عليها كهف رقم (٢) . بيد أنه استطاع من ناحية أخرى التوغل فى الكهف رقم (١) . وفى أول ديسمبر بدأ حفر الطبقة الرسوبية فى هذا الكهف ، وفى الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم التالى وجد جمجمة كاملة تقريباً لإنسان الصين ، وكانت مغلفة بطبقة غير متماسكة من الرمل وأخرى رقيقة إلى حد ما من الحجر الجيرى ، ولذا كان من المستطاع استخلاصها دون صعوبة .

وفى صباح اليوم الثالث من ديسمبر أرسلت مذكرة للدكتور ونج والدكتور يونج ، تتضمن تفاصيل الكشف الذى توصلت إليه ، وأبرقت بذلك فى نفس الوقت إلى الدكتور بلاك :

« إن الجمجمة التى وجدت فى كتلة ضخمة من الحجر الجيرى ، كانت ملفوفة أولا بغلاف من ورق القطن الصينى ، يليه غلاف

سميك من القماش الخشن مشبعة بعجينة الدقيق . وقد بلغ من برودة الجو أن هذه الأغلفة لم تجف فى جو غرفتنا الدافىء نسبياً حتى بعد مضى ثلاثة أيام ، ولكننى استطعت أن أجففها تماماً فى مساء اليوم الخامس بواسطة ثلاثة أطباق محماة » .

وفى صباح اليوم السابع تركت تشوكوتين ومعى جمجمة إنسان الصين حيث أودعتها وقت الظهر سليمة بالمعمل السينوزوى .

اقتباس أندرسن من باى

وكان الحجر الجيرى الذى يسد الجمجمة صلباً للغاية ، ولذا شغل بلاك انشغالا تاما طوال أربعة شهور فى الأعمال التحضيرية السابقة على استخلاصها . ومن حسن الحظ أن كانت التداريز العظمية التى بين عظام الجمجمة مفتوحة ، ولما كانت العظام متشققة فى بعض المواضع ، فقد استطاع أن يرفع القطع المكسورة ويلصق العظام الجدارية وعظام الجبهة وعظام الرقبة والصدغ بعضها ببعض . وبهذه الطريقة أصبح شكل الجمجمة الداخلى المطبوع فى الحجر الجيرى محفوظا يصلح للفحص فى المستقبل ، وأصبح فى الإمكان دراسة عظام الجمجمة من شتى وجهات النظر قبل أن يعاد تركيبها لتصبح جمجمة كاملة بعد عملية التحضير النهائية .

وقد تضمنت مجموعة الحفريات التى عثر عليها عظاما لأكثر من ثلاثين فرداً بينها سبع جماجم على الأقل أمكن استعادتها إلى أصلها جزئيا ، فتكونت بذلك مجموعة من أثمن مجموعات الحفائر البشرية فى العالم . ولكن لسوء الحظ أن توفى

دافيدسون بلاك فى سن مبكرة سنة ١٩٣٤ (١) . ومع ذلك فقد خلفه ويدنرايخ واستطاع أن يصف هذه الحفريات وصفاً مسهباً للغاية .

ولم يكد ويدنرايخ يفرغ من دراسة هذه الحفريات حتى اختفت عن الأنظار فقبيل الهجوم على بيرل هاربور مباشرة أدرك مراجع حسابات كلية الطب فى بكين أن تلك الحفائر معرضة لخطار الحرب فى الشرق الأقصى فوضعها فى صناديق وحولها إلى القوات البحرية المسلحة ، وكانت هذه القوات على وشك مغادرة بكين إلى الولايات المتحدة ، ووضعت الصناديق فى قطار البضاعة الخاص بهذه القوات ، وأرسلت إلى تشنج وانجتو ، وهى ميناء الشحن ، ونشبت الحرب فى أثناء الطريق فصادر اليابانيون القطار ، ولم تقع عين إنسان على هذه الحفريات منذ ذاك الوقت ، وقالت إحدى الشائعات إن الصناديق قد وضعت على ظهر الباخرة (٢) ، ولكن اليابانيين عندما صادروا حمولة السفينة قرروا أن هذه الحفريات لا قيمة لها فقذفوا بها إلى عرض البحر . وقالت شائعة أخرى إن الصينيين لا بد قد استولوا عليها وباعوها إلى تجار الأدوية لتسحق وتستخدم فى الدواء ، ولكن بعد عودتى إلى الولايات المتحدة أحمل معى جمجمة إنسان سولو طلب منى الدكتور ويدنرايخ أن أبدأ تحرياتى عن الجماجم الصينية المفقودة . ومع أن القائد الأعلى فى اليابان وكثيرين من الضباط اليابانيين الذين كانوا يعملون فى ذلك الوقت بالصين قد

---

(١) كان الدكتور بلاك مريضا بالقلب ، ولم يقعده المرض عن تسلق الجبل والإشراف على الحفائر ، كما كان يشتغل فى معمله ليالى بأكملها .

(٢) فى قول إن إحدى القطع البحرية الصغيرة أقلت هذه المجموعة ولكنها أغرقت فى بحر الصين ، وفى قول آخر إن الباخرة برزيدنت هاريسون التى كانت منتظرة فى شنغهاى تمكنت من نقلها . وفى قول آخر إن اليابانيين الذين صادروا قطار البضاعة فى الطريق استولوا على الذخيرة وقذفوا صناديق الحفريات جانبا . واليوم تتهم الحكومة الشيوعية الولايات المتحدة بأنها أخفت تلك المجموعة . (المراجع)

سئلوا جميعاً عنها ولكن إجاباتهم جميعاً لم تكن إيجابية . وقد أمدنا قلم المخابرات البحرية بمعلومات يجب أن تظل الدليل الوحيد على مصير هذه العظام ، ذلك أن جاويشا بحريا كان قد توقف فى معسكر بداخلية البلاد بالقرب من بكين قال إنه رأى آنئذ عدة صناديق كان يشحنها اليابانيون على عربات نقل ، وكان الجاويش على صواب فى تحققه من هذه الصناديق ، فقد كان ينطبق على هذه الحفريات صفة الممتلكات العسكرية التى يحملها قطار البضاعة نفسه ، إذ من المتعذر أن نصدق أن اليابانيين المنظمين قد غنموا القطار فى يسر ثم استثنوا منه ما ظنوه عديم الفائدة . وإنى لأميل إلى الظن أن كل شىء فى القطار قد أثبت فى بيانات وأودع مخزنا فى مكان ما . وقد تكون ضرورات الحرب أدت إلى هلاك هذه البيانات وهلاك من صادر الحفريات ، ولكنى واثق من أن الحكومة الصينية الحالية إذا ما تناولت الموضوع تناولا جديا ، فإنها ستعثر على المخزن بما فيه من محتويات ثمينة أو بدونها .

ومن حسن الحظ أن ويدنرايخ كان قد وصف هذه الحفريات وصفاً دقيقاً ، وأن تدابيره كانت فعالة نتيجة لبعد نظره . ولكن بقى لهذا الموضوع بقية ، ذلك أن التنقيب فى كهوف تشوكوتين لم يكن قد تم بحال من الأحوال ، وكان هناك قدر كبير يجب أن ينجز لا فى القطاعات التى نقبت تنقيباً جزئياً فحسب ، بل فيما يحتمل كشفه من الشقوق التى يرجح جداً العثور فيها على حفائر ، وقد أعلن « بى ونج — تشونج » عن عثوره على مزيد من البقايا . « هناك خمس جماجم كاملة أو أكثر أو أقل من جماجم إنسان بكين ، وأربعة عشر فكاً ومائة واثنان وخمسون سناً منفصلا » .... ويبدو أن الاستمرار فى التنقيب بالصورة التى يتبعها بأى ستعوض الخسائر التى نجمت من ضياع المادة الأصلية .

وهناك بقايا حفرية وجدت فى الصين منذ قيام الحكم الشيوعى وهى تتلخص فيما يلى : —

فى الصين الشمالية

١ — خمس أسنان لإنسان الصين كشفت فى أثناء متابعة التنقيب فى تشو كوتين.

٢ — ثلاث أسنان بشرية متحجرة وجدت فى طبقة أرضية يرجح أنها من أواخر البليستوسين الأوسط ، ويحتمل أيضا أنها ترجع إلى أوائل البليستوسين الأعلى ، وجدت بالقرب من قرية ننج تسونج بوادى نهر فن فى شانسى . كما وجدت أدوات حجرية بأماكن قريبة منها فى العراء .

فى الصين الغربية :

وجدت جمجمة بشرية وفك إنسان — يرجح أنها لإنسان عاقل — بين رواسب البليستوسين الأعلى بالقرب من تزيانج فى سزيتشوان .

وهناك شىء آخر يستحق الذكر وجده كوينجزوالد على أطباق باعة الأدوية فى أثناء بحثه عن أسنان للانسان القردى الضخم فى هنج كنج وهو إحدى الأسنان الدائمة ، الكبيرة الشبه بأسنان رجل بكين التى يعتقد كوينجزوالد أنها تمثل شكلا قريبا من شكل أسنان رجل الصين وربما تكون لإنسان أقدم منه . وقد عثر فون كوينجزوالد على عدة أسنان من هذا النوع ، ولكن السن الدائمة التى عثر عليها فى سنة ١٩٣٩ عززت من تمييزه لشكل جديد من أشكال إنسان الصين القردى الخاص بالصين الجنوبية ، أطلق عليه اسم إنسان الصين العلاجى Sinanthropus officinalis .

ولا يبدو وصف إنسان الصين البكينى أن يكون تكراراً للوصف الذى

ذكرناه للانسان المنتصب القامة بوجه عام إذ لا توجد فروق بينهما إلا فيما يتصل برقة العظام ، فالجماجم أقل ضخامة ، والفراغ الجمجمى أكثر اتساعا والأسنان أصغر قليلا . أما الأضراس فيقل حجمها من الأمام إلى الخلف ، وسقف الحلق يمتاز بالخشونة ، وهى خالية من الثغرة القردية . وتمتاز عظام الأطراف بأنها أقل بكثير فى العدد من الجماجم أو الأسنان ، ومع ذلك فإن ثمة من الأدلة ما يشير إلى أن أطراف إنسان بكين تشبه أطراف الإنسان الحديث إلى حد بعيد **However there are enough to indicate that P. Man had quite modern extremities .**

« يمكننا أن نقول لأول وهلة بعدم وجود خصائص تميز عظام الأطراف هذه عما يقابلها من عظام الإنسان العاقل ، إذا كانت تلك العظام قد وصفت حقيقة وصفا مرضيا » .

إن عدد الجماجم والفكوك والأسنان وغيرها مما وجد فى تشوكوتين يسمح بزيادة المعلومات المؤيدة لحقيقة إنسان بكين أكثر مما تسمح به البقايا المحدودة التى وجدت فى جاوة عن الإنسان القردى هناك . وكان من اليسير التمييز بين بقايا إنسان بكين إذ كان بعضها يمثل بالغين وشبابا ، فى حين كان البعض الآخر يمثل أطفالا . ويحتمل أن تكون أصغر الجماجم التى وجدت تمثل نساء .

وللسعة الجمجمية (الفراغ المخى) لرجل بكين بعض الأهمية مادامت الزيادة فى ارتفاع قبوة الجمجمة فى الإنسان القردى من الخصائص المميزة لها . وقد استطاع ويدنرايخ تقدير سعة أربع جماجم فوجد معدلها بين ٨٥٠ سم^3 إلى ١٣٠٠ سم^3 بمتوسط قدره ١٠٧٥ سم^3 . وهذا المتوسط يزيد بنحو ١٠٠ سم^3 على متوسط سعة جمجمة الإنسان القردى المنتصب القامة . أما الرقم ١٣٠٠ سم^3 فهو فى نطاق المعدل

العادى للانسان الحديث . والأسنان والأطراف وسعة الجمجمة توحى إلى حد بعيد أنها من بقايا إنسان ، ولكن وجود أشياء ثقافية مصاحبة لها كالأحجار المهذبة وربما العظام أيضا ، واستخدام النار ، كل ذلك يدل بشكل قاطع على أن إنسان الصين القردى ، أو رجل بكين كان إنساناً .

ولا شك أن هذا له صلة مباشرة بموضوع الإنسان القردى فى جاوة ، إذيبدو أن الدلائل تشير إلى وجه تشابه قريب فى التكوين الجسمى بين كل من إنسان الصين القديم وإنسان جاوة .

وقد يحق لنا أن نقول ـ بقدر ما تسمح لنا المواد الحفرية القليلة التى تمثل الإنسان القردى فى كل من جاوة والصين ـ قد يحق لنا أن نقول إن حفريات جاوة كانت على الأرجح أكثر بدائية من حيث صغر الفراغ الجمجمى وشدة انخفاض الجمجمة من الأمام إلى الخلف وتفرطح الأجزاء الأمامية تفرطحاً كبيراً ، وقوة الفكين والانحناء البسيط فى قبوة الأسنان مع سعة كبيرة فى سقف الحلق وميل إلى التحام ضئيل فى الأنياب فى الفراغات التى توجد أحيانا بين أسنان الفك العلوى ، والطول النسبى للضرس الطاحن السفلى . ولكن يبدو من الدراسات للمجموعتين المرفولوجية البحتة أن الاختلاف لا يزيد قطعا على كونه اختلافا محدوداً .

وتبلغ قوة الدليل على وجود هذه الصلة القوية بين إنسان جاوة وإنسان بكين حداً جعل معظم المراجع تسقط من حسابها اسم إنسان الصين فأصبح يطلق الآن على إنسان تشوكوتين اسم إنسان بكين القردى . ومهما كانت الحال فإن الاسم يشير إلى إنسان بدائى يعده البعض حلقة فى سلسلة التطور المباشر التى تنتهى إلى الإنسان الحديث . ولما كانت أشكال الحلقات الوسطى الأحدث نسبيا قليلة جداً فى الوقت الحاضر ، فليس لدينا ما يكفى لنفى مثل هذا الغرض أو توكيده ،

وحتى ويدنرايخ بين اثنتى عشرة سمة من سمات إنسان بكين شعر أنها منغولية ، وعندئذ أشار إلى أن أسلاف الصينيين الحاليين كانوا فى الصين فعلا إبان البليستوسين الأوسط ، ومع ذلك فقد أوضح أن هذه السمات الاثنتا عشرة قد توجد بين أجناس بشرية أخرى ، أو يمكن أن توجد نتيجة للتأقلم أو لأسباب وظيفية أو باتولوجية (مرضية) فى أجناس بشرية شتى غير منغولية .

وتلقى الحالة التى وجدت عليها العظام المبعثرة ضوءاً هاما على حياة رجل بكين، وعلى العهود التى عاش فيها ، لأن هذه العظام لم تكن مجرد قبور أو دفنات صامتة منعزلة فى أعماق الكهف ، بل إن الجماجم المهشمة المبعثرة ، وكذلك الأطراف ، كلها توحى فى شيء من التوكيد أن الإنسان القديم كان من أكلة اللحوم البشرية ويبدو أن إنسان بكين كان يتورع قليلا عن أكل لحوم بنى جنسه هو ، ولذا يرى البعض أن إنسان بكين نفسه ربما كان فريسة لجماعة بشرية أخرى أكثر منه تقدما (جماعة الإنسان العاقل) جاءت ببعض معاصريها من البدائيين إلى هذا الكهف لتلتهمها ، وهذا يؤدى إلى الظن بأن الإنسان العاقل كان هو المبدع الحقيقى للأدوات الحجرية واستخدام النار . ولكن هذه الفكرة لا تقوم على أى أساس قوى مادمنا لم نعثر بعد على أى أثر للانسان العاقل بين رواسب تشوكوتين.

وتلقى البقايا التى وجدت فى تشوكوتين بعض الضوء على عهد سحيق من تاريخ الإنسان ، فيمكننا أن نتصور أناسا قصار القامة ذوى حواجب بارزة ، كانوا مزودين على الأرجح بهراوات خشبية ، يستخدمون الفئوس والمجارف من حجر غير مهذب ، ويحترفون الصيد بنوع خاص إذ كان صيد الحيوان ينشط ويزدهر فى المناخ الرطب ، بل المناخ المطير . وربما كانت الغزلان التى ترد ماء النهر القريب من الكهف هى الفرائس المفضلة . ويغلب على الظن أن هؤلاء الناس

كانوا يجمعون التوت والجوز والحشائش الصالحة للأكل وغيرها ، ويرجح أن نساءهم هن اللائى كن يقمن بعملية الجمع . وكان يحدث عند الضرورة أن يقتل عدو أو أحد المرضى من الأقارب أو طفل (لوحظ أن ٤٥ ٪ من البقايا كانت من بقايا الأطفال) من أجل الطعام . أما فى الليل فقد كان الكهف مكان الطمأنينة ، وكانت النار مصدر الدفء وضمانا للسلامة .

ويغلب على الظن أن أمثال هؤلاء الناس انتشروا فوق منطقة فسيحة تمتد من الصين الشمالية إلى جنوب شرق آسيا إلى اندونيسيا . وإذا أدخلنا فى حسابنا ثقافات أخرى تدل على وجود أناس على غرارهم ، فإن هؤلاء ربما كانوا قد عمروا بورما والهند وانتشروا جنوباً حتى وادى السند .

ومهما كان الدور الذى قامت به تلك المخلوقات القرد — بشرية فى تحديد تاريخ الأجناس البشرية الحديثة — فإن مما لاريب فيه أن هذا الإنسان القردى هو أول إنسان آسيوى حقيقى عرفناه . إننا نعرفهم بسماتهم البدائية لأنهم يسيطرون على الموقف أكثر من غيرهم (فى ذلك الوقت) ومع ذلك فإن كل الدلائل تشير إلى أن هؤلاء الآسيويين الأوائل كانوا أناساً مفكرين ناطقين ، أنشئوا عناصر ثقافة وربما عناصر مجتمع ، فماذا تعلموا إبان هذه الألوف الكثيرة التى عاشوها ؟ هل كانوا قد وصلوا إلى قمة ثقافتهم المادية عندما انقرضوا ؟ وأياً كان أحفاد هؤلاء البدائيين ، فهل ورثوا عنهم تراثا فكريا حفزهم إلى الحصول على ثقافة آسيوية ذات طابع مميز ؟ وهل كان التقسيم الثقافى بين الشرق والغرب قد تميز عندما أشرف عصر البليستوسين على نهايته ؟ هنالك أسئلة تحمل الإجابة عنها بحوث المستقبل ، فقد تحدد هذه البحوث الدور الحقيقى الذى قام به هؤلاء الآسيون القدامى فى تاريخ آسيا ، ذلك الدور الذى قد يعد فى الواقع أعمق أكثر مما تدل عليه تلك البقايا العظمية والحجرية .

٦ — ثقافات الميستوسين

ربما قيل إن عامل الآثار يستخدم في تحقيق الثقافات القديمة القول الشائع : «من أدواتهم نستدل عليهم» شعاراً له ، فهذه العبارة لا تصدق على شيء صدقها على دراسة العصر الحجرى القديم . والواقع أن لفظ «أدوات» بالنسبة لمعظم هذا العصر يجب أن تقترن بكلمة « حجرية » إذ لا أهمية لمدى الإتقان الذى وصلت إليه ثقافات الإنسان فى العصر الحجرى القديم ، فالفئوس الحجرية والمدى والمجارف وإن كانت لا تمثل غير جانب ضئيل من الثقافة فهى كل مابقى إلى الآن مما اقتضته ضرورة الزمن القديم . ويجب أن يؤكد هذه النقطة كثير من المراجع لأن الحجر ليس إلا مادة واحدة من المواد الميسورة التى كانت فى متناول يد الإنسان القديم فاستطاع أن يطوعها لمطالبه .

إن لدينا دليلا قاطعاً من العصر الحجرى القديم الأعلى على استخدام العظام على نطاق واسع ، فالعظمة مهيأة فعلا لغرض معين ، وطريقة قطعها تهيء الانسان حواف حادة ورءوسا مدببة . فعظمة الفخذ فى الجاموس تستخدم هرارة ممتازة ، وأنياب الحيوانات المفترسة الصلبة الحادة تصلح للاستعمال بنوع خاص حين تثبت فى ساق خشبية ، كما أن الأوتار والجلد والفراء والشعر والريش والمخالب والحوافر والقرون كانت جميعا من المنتجات الإضافية المتبقية من طعامهم اليومى ، ولا يمكن تجاهل فائدتها . ويقال مثل ذلك عن منتجات الغابة والحقل ، فقد استخدمت كلها فى تطور الإنسان ونمو المهارات فى الصناعة اليدوية ولابد أن تكون الأصداف والجوز وقلف الاشجار والحشائش والأعراش والأوراق وقشور الشجر وفى

مقدمتها جميعا الأخشاب قد لعبت دوراً هاما فى عمل الإنسان اليومى . ولقد ذهبت بعض المراجع إلى أبعد من ذلك فقالت مثلا إن العصر الحجرى القديم يمكن أن يطلق عليه أيضا « عصر الأخشاب » . وقد لا يكون فى هذا القول خطأ كبير لأن اختلاف أنواع الخشب يصحبه اختلاف فى درجة صلابتها وكثافتها ، ومن ثم فى أغراض استخدامها . والهراوات والحراب والمقاليع والفخاخ والخطاطيف وغيرها يمكن صنعها بسهولة من الخشب حتى بواسطة الأيدى غير المدربة ولاشك أن أهل العصر الحجرى القديم الذين كانوا يعملون بالصيد ويمتازون بقوة فائقة فى حاسة الشم والبصر وسلامة الجسم مما جعلهم عدوا فتاكا للحيوانات التى كانت تعيش فى بيئتهم — لا شك أن هؤلاء الناس قد حاولوا أن يرفعوا من قدرتهم على قتل الحيوانات بواسطة أدواتهم الخشبية .

ولا بد أن تكون الحاجة إلى أسلحة مناسبة كانت أهم ما يشغلهم إذ أن أهل ذلك العصر كانوا — كما رأينا — من سكان الأرض (أى ليسوا من سكان الأشجار) ولا يمتازون إلا بقدر أوفر من الذكاء يحميهم من الوقوع باستمرار فرائس للحيوانات الضارية التى تعيش فى محيطهم وتفوقهم قوة . أما الميل إلى أكل اللحوم البشرية فى ذلك العهد ، فيدل على أن الحقيقة العلمية الخالدة على الزمن « ليس أخطر على الإنسان من الإنسان نفسه » تصدق على الإنسان القديم كما تصدق على إنسان العصر الحاضر . إن الحصول على الطعام والدفاع عن النفس من البواعث القوية ، ولكن من الخطأ القول إنهما الباعثان الوحيدان اللذان حركا الإنسان الأول ، لأن هيبة العقيدة وحب الأسرة والنزوع إلى الفنون الجميلة والطمع الشخصى — كل هذه البواعث يجب ألا نسقطها من حسابنا عند بحث الثقافة المادية لأى عصر من العصور أو فى أى لون من ألوان الثقافة فضلا عن ثقافة العصر

الحجرى القديم ، ولذا فليس من الصواب فى شىء أن ننكر وجودها عند الإنسان القديم إلا إذا استطعنا إنكارها بالنسبة للانسان الحديث . . . إنها أشياء لا نملك إلا أن نفترضها كلها افتراضاً ، ومع ذلك فإنا نجد أن من أهم البواعث النفسية التى يدين لها علم الآثار الخاص بالعصر الحجرى القديم هى تلك التى ترتبط قبل كل شىء بغريزة الاقتصاد أو المحافظة على الذات ، أو بمعنى آخر أنها أدوات الصيد والقتال التى تعبر عن نفسها فى غالب الأحيان .

إن الأحجار ثقيلة ذات احتمال ، وهى عادة فى متناول يد الإنسان ، وخاصة على ضفاف الأنهار والمجارى المائية حيث يتوفر الحصى بشتى أشكاله الطبيعية الصالحة لمختلف الأغراض الصناعية . فأنواع الصخور الرملية Silica بما فيها من الصوان وحجر العقيق اليمانى واليشب والعقيق الأبيض خاصة تصلح كلها لصناعة الأدوات لأنها قابلة للتشقق والتكسر ، كما أن حواف هذه الأحجار تكون حادة فى حين أن سطوحها ملساء مما يجعل هذه الأدوات ذات نفع مزدوج ، كما أنه يمكن تشكيل الأحجار إلى أدوات بطرق عدة ، أولها ضرب لب الصوان بحجر آخر (سندان) ، فينتج عن ذلك انفصال شظية سميكة أو عريضة ، وهى طريقة ناجحة فى تشكيل اللب أو العقدة تشكيلا بدائياً خشناً إذا كان المقصود أن تكون العقدة نفسها هى الأداة ، أو إنتاج شظية كبيرة إن كان المقصود هو استخدام الشظية كأداة من الأدوات . وهناك طريقة ثانية وهى استخدام هراوة خشبية أو حجر آخر لتحطيم اللب ، وتمتاز هذه الطريقة بأنها أقرب إلى ضبط حجم الشظية المرغوب فصلها . أما الطريقة الثالثة فهى استخدام قطعة أخرى من الخشب أو من حجر مناسب ثم يثبت الحجر على النقطة المراد نزع الشظية منها وتوجه إليها قوة المطرقة الضاربة وتهيىء هذه الطريقة بطبيعة الحال أكبر فرصة للتحكم فى نزع الشظية . وتتضمن هذه

الطرق عادة عملية تحضير أو إعداد مصطبة يوضع عليها الحجر عند الضرب ، وفى المنطقة التى تصطدم بها المطرقة عند الضرب . وكان استواء سطح المصطبة أمراً ضرورياً لضبط عملية فصل الشظية . والواقع أن نوع الإعداد الذى يسبق الضرب كثيراً ما يكون من الخصائص المميزة لطريقة بعينها .

وعندما تنزل الضربة على المصطبة يحدث نتوء فى الشظية الناتجة ، تحت مركز الضربة مباشرة ، ويطلق عليه نتوء الاصطدام ، هذا بالإضافة إلى شواهد أخرى لاتجاه الضربة (علامات التحطيم وتموجات التهشيم) وهذه يفيد منها عالم الآثار ، إذ يستطيع أن يميز بواسطتها بين ما هو من عمل الإنسان مما هو من فعل الطبيعة .

وهناك طريقة أخرى ظهرت فى أخريات العصر الحجرى القديم ، وهى نزع الشظايا بواسطة الضغط ، وهذه فى الحقيقة طريقة مهذبة ترمى إلى شحذ حافة أو إتمام أداة رقيقة ، وتحتاج هذه الطريقة إلى تطبيق فكرة الضغط التى تستخدم فيها عادة أداة خشبية (سندان) بطول حافة الأداة . فتتطاير الشظايا الضئيلة ، وينفصل (يتقشر) الجزء الطويل من القشرة (الحجرية) من الجانب الأسفل للأداة الخشبية .. وتعد الحجارة المشكلة على هيئة نصل أوراق شجر الغار الجميل ، ونصال أوراق الصفصاف والتى تنتمى إلى عصر (السلوتريان) فى أوربا أمثلة جديدة للنتائج الطيبة التى حصل عليها الإنسان القديم من هذه الطريقة .

يتضح مما تقدم أن تطور طريقة صنع الأدوات الحجرية كفل حلولا لوضع ترتيب زمنى نسبى للعصر الحجرى القديم : وقد وضع هذا الترتيب الزمنى للأدوات الحجرية فى أوربا على أساس ثابت ، وذلك بالكشف عن الصناعات اليدوية فى أماكنها الطبيعية .. بالكهوف ومناطق المدرجات النهرية . وتشتمل أقدم الأدوات الحجرية على الآلات المصنوعة من لب الأحجار (الحضارة الأبفيلية

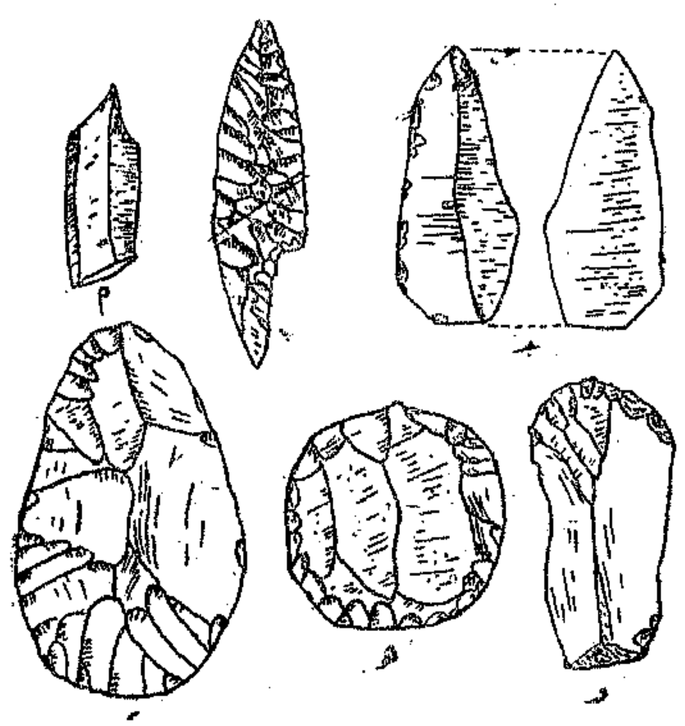
الأشيلية (*) أو رقائق الأحجار (الحضارة السكلاكتونية والليڤالوازية (*))، والآلات المصنوعة من لب الصوان خاصة بشكل مميز وهو ما يطلق عليه « يد الفأس » وهى أداة تكون عادة بيضية الشكل أو على شكل حبة اللوز منحوتة الجوانب ، فهيء بذلك على كل جانب حافة قاطعة . وأدوات العصر الحجرى القديم الأوسط مصنوعة من لب الصوان المهذب (حضارة أشيلية ـ ميسكوكية) كما ينتسب إلى هذا العصر مجموعة من الأدوات المصنوعة من شظايا بعض الأحجار الموسترية الليڤالوازية) .

أما العصر الحجرى القديم الأعلى الذى ازدهر أولا فى الدور الجليدى الرابع فيمتاز بحفريات شتى من طراز خاص يساعد على تحقيق العهود التى ينقسم إليها ذلك العهد (وهى برجوردينى ، أوريجنيشى ، سولوترينى ، مجدلينى) وأهمها الآلة ذات النصل المصنوعة من شظية حجرية طولها أكبر من عرضها .

أما بالنسبة للعصر الحجرى القديم الأدنى فإن أيدى الفئوس والأدوات المصنوعة من شظايا الأحجار التى وجدت فى الأماكن المختلفة على طول سهل نهر السوم وسهل التيمز ، حيث يمتاز الترتيب الزمنى لعصر البليستوسين خاصة بالوضوح ، فقد ساعدت هذه الأدوات العلماء على إنشاء تتابع زمنى لطرز الآلات الحجرية وأماكن تجمعها . وقد حظى الترتيب الزمنى للعصر الحجرى القديم ، المتوسط والأعلى بقسط وافر من تمحيص العلماء ، وذلك بإجراء تنقيبات فى عدد كبير من الكهوف والمآوى الصخرية والأماكن المكشوفة ، وهذه الأماكن

(*) أطلقت أسماء المدن أو المقاطعات التى عثر فيها على قطع الصوان والآلات الحجرية القديمة لتمييز حضارات العصر الحجرى المختلفة . ومعظم هذه الأسماء لمدن فى جنوب فرنسا وشمالها وتعتبر دراسة حضارات العصر الحجرى متقدمة جداً هناك . (المراجع)

الأخيرة تمدنا ببراهين أثرية وجيولوجية ، بل ونباتية أيضاً لترتيب ثقافات العصر الحجرى القديم فى نسق زمنى متناسب ، وهذا النسق بدوره يمكن أن يربط بأحداث البليستوسين .



(شكل ٥)
نماذج من أدوات العصر الحجرى القديم الأوربية

ا — أداة نحت من العصر الحجرى القديم .

ب — نصل من العصر السلوترينى .

حـ — شظية مصنوعة من العصر الموستيرى .

د — فأس يدوية من العصر الحجرى القديم الأدنى .

هـ — مجرفة من العصر الليڤالوازى .

و — مجرفة ذات طرف من العصر الحجرى القديم الأعلى .

ويعد الترتيب الزمني للعصر الحجرى القديم بغرب أوربا مقياساً تستند إليه الاستدلالات الأركيولوچية عند قياس المناطق المجاورة ؛ وبهذه الطريقة أمكن ترتيب مواد العصر الحجرى القديم التي وجدت في شرق أوربا وشمال إفريقيا والشرق الأدنى ترتيباً زمنياً جنباً إلى جنب مع ما يقابلها من مناطق غرب أوربا بحيث يكون الجميع للتاريخ البشرى القديم قصة واضحة بارزة المعالم .

وتفاصيل هذه القصة معرضة دائما للتغيير والتبديل ، ولكن يبدو أن هيكلها الأساسى ظل سليما .

إن طريقة صناعة الأدوات الحجرية في الغرب امتدت إلى آسيا فشملت تركيا وسوريا وفلسطين والعراق وإيران وأفغانستان بآسيا الغربية حيث وجدت الفئوس اليدوية في شبه جزيرة الهند (صناعة مدراس وغيرها) كما وجدت أدوات العصر الليفالوازى المصنوعة من قشرة الحجر ، ووجدت في جنوب سيبريا الأسلحة ذات النصل من العصر الموستيرى والعصر الحجرى القديم الأعلى . ووجدت في أقصى جنوب صحراء أردس بشمال الصين الأدوات النصلية التي يطلق عليها صناعات العصر الحجرى المتوسط الدقيقة.

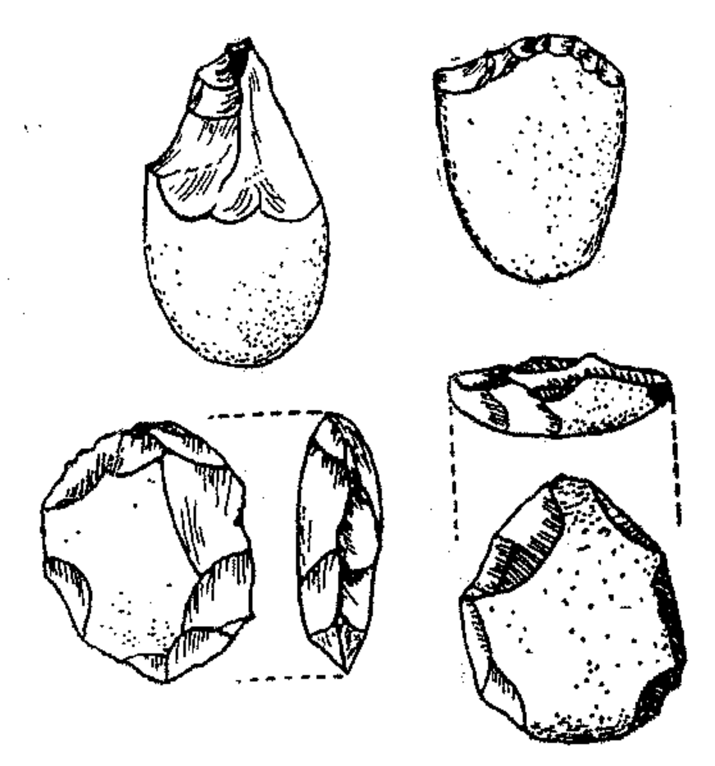
ومع ذلك فلا يوجد مطلقاً مجموعات من الأدوات الغربية في معظم شرق آسيا وجنوبها . ومن المرجح كثيراً أن مرجع ذلك إلى أكثر من سبب ، فهو إما أن يكون راجعاً إلى عجز الصناعات الغربية التقليدية عن الانتشار إلى مسافات قاصية ، وإما أن يكون السبب هو قيام صناعة محلية تقليدية للأدوات ، ويغلب أن يكون السبب الأخير هو الأرجح ، لأن دراسة المصنوعات الحجرية التي وجدت في شرق آسيا تسكشف عن وجود اختلاف تام بينها وتحسن الإشارة هنا إلى أن بعض المراجع قد رجحت أن يكون الاختلاف في الصناعة التقليدية مرجعه

اختلاف الجنس إلى حد ما : رجل نياندرتال ، والإنسان العاقل فى الغرب . والرجل القردى فى الشرق . ولكن ينبغى أن نتريث عند افتراض مثل هذا الفرض دون شك انتظاراً لنتائج البحوث القادمة ، إذ أن الدليل المستمد من الحفريات البشرية التى عثر عليها فى شرق وجنوب آسيا من القلة بحيث لا ينهض دليلا قاطعاً .

ولقد عرفت صناعة الأدوات الحجرية الشرقية التقليدية أول ما عرفت نتيجة لبحوث هـ . ل . موفيوس الصغير H. L. Movis Jn., بجامعة هارفارد ، وأهم سماتها ذلك الجهد الذى الذى بذله الصانع فى قطع وتهذيب الحافة على طول جانب واحد من جوانب الحصاة . ويطلق على هذه الآلات غالباً « الأدوات الحصوية » .Pebble Tools

وتوجد أربعة أنواع رئيسية متميزة من هذه الأدوات هى : الأدوات المنحوتة ، والمطرقة اليدوية والفئوس اليدوية الأولية و « الساطور » . وتنتج الأدوات القاطعة من نحت وجهى الحجر فى اتجاه إحدى الحافتين . ويؤدى ذلك إلى إيجاد حافة متموجة قاطعة . أما المطرقة اليدوية فهى عادة رباعية الشكل ولها حافة شبيهة بالمطرقة وهى نتيجة لنحت وجه واحد فقط أما الفئوس اليدوية فشكلها بيضى أو مدبب ، ولها حافتان قاطعتان ، وهى تشبه البلطة اليدوية الغربية أو الحقيقية ، ومع ذلك فإنها محدبة السطح عند القطاع منحوتة من وجه واحد فقط . وقد يظل جزء كبير من السطح الأصلى للحصاة أو اللب باقياً على حالته الطبيعية دون تهذيب ، ويمكن صنعها أيضاً من الشظايا أو اللب على السواء . وليس « الساطور » فى الحقيقة إلا نوعاً من القواطع الشبيهة بالسكين فهى شظية أو لب حصاة نحت سطحها العلوى دون سواه .

وتمثل هذه الأدوات الأربع الطراز التقليـدية الفارقة فى المجموعة كلها ، ولذا فإنه يتعذر تصنيف قدر مناسب منها . ومع ذلك فإن الأدوات التقليدية تختلف اختلافا تاماً عن الأدوات الأوربية ، كما أنها تكشف عن طريقة مختلفة تماماً فى صنعها .



(شكل ٦) نماذج من أدوات العصر الحجرى القديم بآسيا
عن دى ترا وباترسون ـ ١٩٣٩

وبملاحظة التوزيع الزمنى للطراز الشرقى فى صنع الأدوات لا يملك الإنسان إلا أن يدخل فى حسابه قبل كل شىء أهمية موقع تشوكوتين بشمال الصين ، إذ أن أقدم دائرة جيولوجية وجدت بها أداة حجرية كانت هى المنطقة العليا للمركز رقم ١٣ (انظر الفصل الخامس) ، التى تعزى إلى عصر البليستوسين الأوسط ، فالأداة مصنوعة من حصى الصوان المختلط بالشوائب ، وهى ذات لون داكن ، وتعد من

أدوات القطع ، أى أنها منحوتة الوجهين بطريقة توالى نزع الشظايا . ولما كانت هذه الأداة أقدم ما وجد من صنع الإنسان حتى الوقت الحاضر ، فهى تعد ذات أهمية ، ووفقاً لرأى پاى ون-تشونج القائل « إن بالإضافة إلى هذه الأداة الوحيدة من نوعها فقد وجدنا أيضاً بعض العظام المحترقة المنعزلة ، وبعض الأحجار الأجنبية المهشمة التى لا تحمل دليلا على أنها من صنع الإنسان » .

وقد يشير هذا الدليل إلى المركز رقم (١٣) بوصفه مكاناً لسكنى الإنسان ، كما يدلنا على أن كهوف تشوكوتين كانت ذات فائدة للانسان منذ أقدم العصور .

وأهم ما وجد بالطبع من مواد كان فى المركز رقم (١) لأنه المركز الوحيد بشرق آسيا الذى وجدت به بقايا بشرية بالقرب من مواقدها وأدواتها . وقد هيأ وجود الحصى من حجر الكوارتز والحجر الرملى كثيراً من المادة الخام لصناعة الكسارات والأدوات الناحتة التى يميل كثير منها إلى الضخامة والثقل .

وتكثر الأدوات المصنوعة من شظايا الأحجار بين بقايا المركز رقم (١) ومعظمها من حجر الكوارتز ، وهى مختلفة الأشكال والأنواع . وتوحى غرابة شكلها بأن صانعها كان أكثر اهتماماً بالحصول على حافة حادة منه بتهيئة شكل محدد لهذه الحافة . ويبدو أنه كان يقنع باستخدام أية شظية يحصل عليها من تهشيم نواة من حجر الكوارتز بواسطة مطرقته الحجرية . ويبدو بوضوح أن هذه الشظايا كانت تستعمل أدوات للنحت ، وقد وجد أن بعضها قد أعيد صقله بحيث يؤدى غرضاً ثانوياً فأصبح منتهياً بسن مستقيمة أو معوجة ، كما وجد أن محيط الأدوات الكوارتزية المصنوعة من لب الحجر كان منحوتاً فى جميع أجزائه .

ويبدو أن بعض العظام والقرون التى وجدت فى هذا المركز مصنوعة غير أن إثبات صنعها لايزال موضع جدل .

وكشف فى الطبقات التكلسية فى المستويات العليا للمركز رقم (١) عن عدد كبير من الأدوات المصنوعة من حجر الصوان المختلط بالشوائب ، وهى أدق صنعة من

أدوات تشوكوتين الأقدم منها ، وإن كانت كلها من طراز واحد .

أما بقايا المركز (١٥) فيرجع تاريخها إلى أوائل البليستوسين الأعلى . وبرغم عدم وجود بقايا بشرية بينها ، فقد وجد عدد كاف من الأدوات الحجرية توضح الشكل الأخير لصناعة تشوكوتين .

وتعد أدوات عصر تشوكوتين المتأخر أهم مجموعة بين مجموعات الأدوات البدائية لأن التحسينات والعمل الإضافى ظاهر فى كل أجزائها . ومن ثم فإن المجارف المختلفة والرءوس والأسنان يبدو فيها جميعاً الصقل أكثر من أية مجموعة عرفت حتى الآن . وتعتبر صناعة تشوكوتين الحجرية بشمال الصين من العصر الحجرى القديم الأعلى ، وهى بهذا الوصف تمتاز بعدم وجود الباط اليدوية التى يمتاز بها العصر الحجرى القديم الأدنى فى شرق أوراسيا . والواقع أن الهيئات العلمية تشعر بأن الصين الشمالية كانت بعيدة للغاية عن التراث الثقافى إبان عصر البليستوسين الأوسط ،وبذلك ظلت« ركناً راكداً » محافظاً فى وسط عالم إنسانى سريع التقدم .

لقد وصفنا صناعة باتجيتان التى كشفها ڤون كوينجز والد فى جنوب جاوة الوسطى (انظر فصل ٤) وهى صناعة تمتاز باستخدام المقذوفات البركانية السيليكية والحجر الجيرى بل والخشب المتحجر . وهناك تشابه ليس بالقليل بين أدوات باتجيتان وأدوات تشوكوتين باستثناء واحد رئيسى هو وجود الفأس اليدوية التى تبدو لأول وهلة مطابقة للفأس الأوربية . ومع ذلك فقد رأينا أن فأس باتجيتان اليدوية ليست ذات وجهين حقيقيين كما هو الحال فى الفأس الأوربية ، وأنها متطورة على الأرجح من الساطور . أما الأدوات الأخرى من الطراز الشرقى فقد وجدت فى باتجيتان . ومع أن مجموعات جاوة هى أكبر المجموعات التى تكونت فى معظمها من بقايا العصر الحجرى القديم الأدنى فى شرق آسيا ، فهى لا تثبت غير عدم وجود التراث الغربى . وتمتاز مصنوعات باتجيتان بضخامتها إلى حد جعل ڤون كوينجزوالد يطلق على بعضها « الأدوات الحجرية الضخمة » (يزن بعض الشظايا الكبيرة نحو سبعة أرطال) وهناك شظايا صغيرة

ذات جانبين متواز يين توحى بأنها نصال ، كما توجد بين الأدوات المصنوعة من الشظايا محارف ونصال على شكل ورقة الشجر أو مثلثة مصقولة . وجميع هذه الاشكال تمثل طرازاً شرقياً متقدم الصبغة .

ولم توجد مادة باتجيتان لسوء الحظ فى ترتيبها الجيولوجى ، بل مبعثرة فى قاع وادى باكسوكا بمنطقة يوننج . ويرجح كثيراً أن تاريخها يرجع إلى أواخر عصر البليستوسين الأوسط لأنها لم تكن مقترنة بحفائر الإنسان القردى المنتصب القامة ، وإن كان يغلب على الظن أنها ستوجد فى المستقبل مع إنسان جاوة عندما يصبح فى الإمكان تعيين مثل هذا الموضع . ومن المؤكد أنها ليست مقترنة ببقايا من نادونج .

ويتمثل الطراز الشرقى فى صناعة الأدوات القاطعة تمثيلا ثابتاً فى صناعات أنياثيان (أوائل العصر المتأخر) فى وادى الإروادى بشمال بورما . أما أدوات بورما المصنوعة من لب الحجر فهى من المقذوفات البركانية السليكية أو الخشب المتحجر . وتكون الكسارات المألوفة وأدوات النحت والبلط اليدوية الكثرة الغالبة من حصيلة الأدوات ، بالرغم من أن بعضها مصنوع من لب الحجر والشظايا ، ولكن ليس بينها ما يشبه النصال التى وجدت فى جاوة . أما الفأس اليدوية فلا وجود لها فى بورما على الإطلاق . ويبدو أن صناعات الفئوس اليدوية الهندية قد أثرت فى مثيلاتها بجزيرة جاوة .

ويوجد عصر الأنياثيان المبكر فى رواسب المدرج الثانى لنهر الإراوادى القديم ، بينما يوجد الانياثيان المتأخر (الحديث) فى بقايا المدرج الرابع ، وهذا يحدد تاريخ الأنياثيان القديم تحديداً قاطعاً فيجعله فى عصر البليستوسين الأوسط ، والأنياثيان المتأخر فى عصر البليستوسين الأعلى .

وقد عثر فى شمال الملايو على بقايا من العصر الحجرى القديم الأدنى يمكن مقارنة ما بها من أدوات حجرية مصنوعة بأدوات باتجيتان فى جاوة التى وجدت سنة ١٩٣٨ بوادى نهر براك فى براك العليا ، أما الأدوات المصنوعة من الكوارتز

فقد وجدت فى حصى النهر بمقاطعة كوتا تامپان الشهيرة بالمطاط والتى اشتق منها اسم صناعة المطاط التامپانى .

ولقد فرض اليابانيون إبان الحرب العالمية الثانيـــة على أسرى الحرب العمل الإجبارى فى إنشاء سكة حديد بانجكوك — مولين فى تايلاند ، فاكتشف أحد علماء الآثار الهولنديين فى أثناء هذا العمل وجود بعض أدوات حصوية كثيرة بين حصى أحد مدرجات نهر ميكانج (فنجنوى) . ولكن ما عرف عن وصف هذه الصناعة الفنجنوية إلى الآن قليل ، اللهم إلا أن الأدوات القليلة التى وصفت ، تكشف عن مشابهة ملحوظة بينها وبين الأدوات الأنياتيانية القديمة فى بورما .

وبرغم حدوث هذا الكشف خارج الحدود الجغرافية التى نتناولها بالدراسة فإن مقارنة هذه المكتشفات التى تمت فى جملتها بوادى نهر سوان فى شمال البنجاب بالهند وفى غربى باكستان لجديرة بالذكر فى هذا المقام . فقد كشفت هناك عدة مراكز ، وقد اقترنت هذه المراكز بمدرجات جيولوچية نهرية معروفة التاريخ .

وأقدم ما أمكن معرفته من الأدوات البشرية التى وجدت ، يطلق عليها « أدوات ما قبل سوان » وهى مكونة من شظايا ضخمة من الكوارتز منحوتة الجانبين . وهى عادة جيدة الاستدارة ومهشمة . وتوجد فى كتل الصخر المكيبة Boulder Conglomerate الذى يمثل الدور الجليدى الثانى بمنطقة نهر السند .

ويتمثل طراز كسارة الحجار » فيما يطلق عليه حضارات سوان ، وأقدم هذه الحضارات السوانية وجدت مصحوبة ببقايا الفترة الدفيئة الثانية (للعصر الجليدى) بحسب الترتيب الزمنى فى البنجاب . وتوجد بالإضافة إلى هذه الأدوات المصنوعة من الحصى (الكوارتزى) بعض الآلات المصنوعة من شظايا الحجر وليه ، وهى توحى بأنها من حضارة كلاكتون بالغرب . وهنالك طراز واحد من اللب تنعكس عليه الصفة الليڤالوازية . ورغم وجود أنماط من كسارة الحجار فى حضارة سوان الحديثة بدوريها (ا ، ب) بين بقايا الدور الجليدى الثالث بحسب ترتيب تتابع الطبقات

فى البنجاب المرموز لها بالرمز (ت ٢) ، فإن الاهتمام يتجه إلى الأدوات التى صنعت من الشظايا ، بالطريقة الليفالوازية ، حتى إن طور سوان (ب) الحديث قد طبع بالطابع الليفالوازى الحديث .

ولقد كان هذا التأثير الغربى أقوى ظهوراً فى الموقع (ب ١٦) فى شوانترا إذ حدث اختلاط بين الأدوات الخشبية وبين الفئوس اليدوية التى ترجع إلى العصر الأبيفيلى — الأشيلى ، وبعضها يرجع فى الغالب إلى الفترة الجليدية الثانية .

وتشير الأدوات التى وجدت بالبنجاب إلى أن هذه المنطقة كانت ملتقى طرازين، أحدها شرقى والآخر غربى إبان العصر الحجرى القديم الأدنى ، وتعين هذه الأدوات الحدود الغربية للطراز الشرقى بالرغم من وجود الفئوس اليدوية فى شبه جزيرة الهند والاستدلال منها على وجود اتصال بالغرب ووجود كل من هذين الطرازين جنبا إلى جنب أمر هام ، لأن الإنسان لا يمكنه أن يتخلى عن إحساسه بأثر هذا الغرب الناهض الذى بدأ يجمل ما أحدثه من تجديد أمرا محسوساً فى عالم لا يزل أكثر محافظة على ثقافته السابقة . وقد يبدو من دواعى السخرية أن نمير هذه المتناقضات انتباها بعد مضى هذا الزمن الطويل ، ومع أن هناك تناقضاً فى الأدوار الأولى ، ولكن هذا التناقض يتضح أنه يتناقص باستمرار كلما ازداد اقتناع الشرق بطرق الغرب . فكم مرة ستتكرر هذه الظاهرة فى العصور الطويلة القادمة ! ! .

ومن الظواهر الغريبة فى البحوث الراهنة التى تجرى فى شرقى آسيا ، الحاجة إلى معلومات محددة عن العصر الحجرى القديم الأعلى ؛ ففى أوربا توجد ثروة مادية من الفترة الجليدية الرابعة (المعروفة بالفورم)[1] تشتمل على وفرة من الرسوم على الأحجار ومن الأدوات المصنوعة من العظام والصور هذا عدا ، رسوم الكهوف الشهيرة بطبيعة الحال فى حين أنه لا يوجد فى شرقى آسيا أو جنوبها ما يمكن أن يقارن بمثل هذه

(١) فورم اسم مكان عرفت فيه آثار الفترة الجليدية الرابعة فى أوربا وقد أطلق على فترات الجليد الثلاث الأخرى لعصر الجليدى المعروف بالبليستوسين أسماء الأماكن التى عرفت فيها فى أوربا . (المراجع).

المادة . والواقع أن معظم هذه المنطقة الفسيحة خالية تماماً من شواهد العصر الحجرى القديم الأعلى وتظهر هنا وهنالك الدلائل على وجود ثقافة ، ولكن الأثر الذى يحسه الإنسان إزاء هذه الثقافة هو أنها امتداد لثقافة أسبق منها ترجع إلى العصر الحجرى القديم وقد تكون طريقة صنعها أكثر إتقانا ، ولكنها لا نكاد تختلف عنها .

وقد يكون هذا التوازن قوياً فى قلب المنطقة ، أما بالنسبة لأطرافها فهناك شواهد أخرى محددة على وجود تأثيرات حديثة . فقد كشف الكاهن اليسوعى العالم الأب إميل ليسنت ، والأب تيلهارد دى شاردين على حدود صحراء أردس بشمال الصين عدة مراكز بالقرب من سور الصين العظيم وقد تمخضت هذه المراكز عن عدد عظيم من الأدوات الحجرية مصحوبة بقطع من فحم الخشب (يرجح أن تكون من بقايا المواقد) وقد كان أناس ما قبل التاريخ هناك يأكلون لحم حمار الصحراء (المعروف باسم اكووس هميونس باللاتينين) (١) والضبع والوعل والماشية والخرتيت ذى الفراء وبيض النعام . وكانت مراكز حياتهم بالقرب من تكوينات اللويس التى ترجع إلى البليستوسين الأعلى أو على الأرجح إلى الفترة الجليدية الرابعة وتوجد مراكز صحراء أردوس وخاصة « شويتنجكو » ، « وسارا — أوسو — جول » بالقرب من رواسب البحيرات ، مما يدل على أن الصيادين أقاموا مساكنهم بالقرب من المساحات المائية التى تجتذب إليها بطبيعة الحال فرائسهم من الحيوانات . كما أن وفرة البقايا الحيوانية فى مضاربهم تدل على توفيقهم فى الصيد .

وتضم ثقافات أردوس مجموعة كبيرة مختلفة الأنواع من الأدوات المصنوعة من شظايا الحجر من بينها حفارات ومجارف ومثاقيب ونصال يشبه الكثير منها أدوات العصر الموستيرى ، كما يوجد بينها أيضاً قطعة من العظم المنحوت . ومع ذلك فقد وجدت كذلك أدوات حجرية دقيقة توحى إلى حد بعيد بتأثير العصر الحجرى القديم الأعلى . ونذكر بهذه المناسبة أن الروسيين عثروا فى جنوب سيبريا على عدة مراكز

(١) تعتبر حفريات الاكووس هذه حلقة من حلقات تطور الحصان (المراجع) .

تتمثل فيها ثقافات العصر الحجرى القديم الأعلى مختلطة بمصنوعات تشبه مصنوعات العصر الموستيرى، ولكن ما وجد من الشفرات ولب الحجر والأدوات الحجرية الدقيقة يؤكد انتماءها إلى ثقافات العصر الحجرى القديم الأعلى. كما أن هناك وجوه تشابه بين أنماط هذه الأدوات وطرز الثقافة الأرسية. فيتضح من ذلك أن حضارة أردوس امتداداً للعصر الحجرى القديم الأعلى من الجنوب إلى الشمال والغرب

وتعد مراكز سيبريا ذات أهمية لأنها تمثل انتشار صيادى العصر الحجرى القديم واحتلالهم الأرض الرطبة فى جنوب سيبريا حتى مداخل الصين. وأهم هذه المراكز بوسط وادى نهر ينجنسى (آفونتوفا جورا، وبريزيلنتشكى بونسكت، وكوكو ريفو)، وفى منطقة نهر أنجارا — بيلايا توجد (بوريت، وفرخولنسكايا جورا ومالطا) والإقليم المسمى ماوراء بايكال فى جنوب بحيرة بايكال.

وتقع الدائرة السفلى من مركز مالطا فى طبقة اللويس فوق مدرج الثمانية عشر متراً، وهو من مدرجات نهر بيلايا رافد أنجارا. وتقترن فيه عظام الثعلب القطبى والغزال والخرتيت ذى الفراء وبعض عظام الماموث، بالأدوات والشفرات المصنوعة من شظايا الأحجار، وكثير من الأدوات العظمية ثنها مزين بالنقوش. أما العاج من بقايا الماموث فقد استخدم مادة خام لعمل أدوات لنحت الأشكال النسائية والطيور وغيرها. ووجدت فى الطبقة التى كانوا يشغلونها خمسة مساكن نصفها غائر تحت الأرض، وعدد قليل من المواقد المنعزلة. ويدل وجود مدفن لطفل فى هذا المركز على احتلال الإنسان الحديث (رجل كرمانيون ؟) لهذه المنطقة

ويمثل مركز مالطا وما فى حكمه من المراكز مثل (بوريت وكاشايا وبوشا كوفكا وغيرها) أقدم أطوار العصر الحجرى القديم فى هذا الإقليم. ويرى الجيولوجيون أن احتلال مالطا قد حدث قبل أن يتكون مدرج الثمانية عشر متراً الذى يرجع حدوثه عندما بلغت الفترة الجليدية الرابعة (المعروفة باسم الفورم الثالث) نهايتها، أى عندما كانت درجة برودة الأرض لا تسمح بالسكنى. ولقد تكونت رواسب اللويس إبان

تراجع الجليد ، وكان المناخ لايزال بارداً ، ولكنه فى نفس الوقت كان أكثر جفافا . وكانت الوحوش القطبية كالماموث فى دور الانقراض ، فى حين كانت الأشكال الحديثة آخذة فى السيادة . ولو افترضنا أن سكان مالطا كانوا من صيادى الماموث فلا بد أنهم واجهوا صعوبات متزايدة فى سبيل الحصول على فريستهم .

وكان العصر التالى أكثر رطوبة ، والرياح أكثر قدرة على حمل المواد الرسوبية. ومع أن الماموث كان نادر الوجود ، فإن الحيوانات القطبية الحديثة كانت لا تزال متشبثة بالسيطرة . ويدل وجود الحمار الوحشى ووعل غربى آسيا على نشوء ظروف ملائمة لنمو المراعى ، ففى وادى نهر ينيسى بالقرب من مدينة كراسنويارسك الحديثة ، وفى المراكز حول جبل أفنتوفا مايدل على ظهور هذا الدور الجديد ، ومن هذه المراكز أى مراكز المدرجات ، وضع المدرجان ١٥ و ١٦ فى الطبقة الچيولوچية الخاصة بهما ، أما فى المستويات الدنيا (على عمق عشرة أمتار) من آفنتوفا جورا — ٢ فقد وجدت مجموعات هائلة من المصنوعات الحجرية والعظمية . وكانت الأدوات الحجرية خليطاً من الشظايا والنصال ولب الحجر التى تمثل شتى صناعات شرقى آسيا وتشتمل حتى على طرق صناعة شرق آسيا لكسارة الحجار ، ثم المجارف من طراز العصر الحجرى القديم الأوسط ، والفئوس اليدوية وأدوات العصر الحجرى الأعلى ذات النصل ، ومع ذلك فقد حدد تاريخ هذه الدائرة (جـ ٣) بحسب طبقتها الچيولوچية (المحلية) وبحسب القرائن الحيوانية تحديداً يدعو إلى الاطمئنان . وتعد هذه المجموعات المختلفة الصنعة دليلا ممتازاً على خطأ الاقتصار فى تحديد تاريخ مركز من المراكز على أساس الأدوات المصنوعة وحدها دون غيرها .

ويقع مركز « فرخولنسكايا جورا » على منحدر الجبل بالقرب من أركتسك . وتدل رواسب اللويس على التى كشف بداخلها عن مستويات الصناعات اليدوية الحجرية (السفلى) على تجدد فترة الجفاف أى سيادة الظروف المناخية القارية ، فأصبحت حيوانات التندرا (الثعالب القطبية والأرانب البرية) نادرة للغاية ، فى حين كانت

السيادة لحيوان الرنة . وازداد عدد الخيول الوحشية والثيران وكذلك الأغنام والماعز والكلاب المستأنسة . وواضح من وجود الأدوات الحجرية المهذبة المصنوعة بطريقة الضغط من شظايا الأحجار أن هناك نوعاً من التجميل قد أدخل على صناعات إنسان سيبريا القديم . وواضح أيضاً من البقايا الحيوانية أننا لم نعد نهتم كثيراً من الناحية الزمنية بعصر البليستوسين ، ولكنا نقترب من عصر جديد بالنسبة للانسان والحيوان فالمستويات العليا لمراكز فرخولنسكايا ومالطا وكوكوريفو (على نهر ينيسى) ، وأفونتوفاجورا ، وغيرها من المراكز العديدة الأخرى تكشف عن وجود نواح جديدة من التقدم كانت آخذة فى السيطرة برغم تشبث القديم بالبقاء .

وتعتبر المادة التى جمعت من سيبريا — وهى تنتسب إلى شرقى آسيا — على جانب عظيم من الأهمية لسببين رئيسيين : أولا أنها توضح بشكل قاطع انتشار الطرق الغربية فى صناعة الأدوات وغيرها بالشرق الأقصى . والواقع أننا لو أدخلنا فى حسابنا ثقافة أردوس فإنا نستطيع القول بامتدادها إلى أبواب الصين . وثانياً أنه يبدو أن سيبريا كانت حاجزاً فى وجه التقاليد الغربية ونجم عن ذلك فى هذه المنطقة أن ظل نمط الحياة السائد فى العصر الحجرى القديم زمناً طويلا للغاية . أما نوع الأثر الذى خلفته الثقافات القديمة للعالم الحديث فلا يزال إلى الآن من المشكلات التى قد تتضح فى المستقبل أكثر مما نعرف عنها فى الوقت الحاضر .

ويجب أن ندخل فى حسابنا فوق ذلك ثقافة العصر الحجرى القديم بسيبريا ممثلة فى شكل : رسوم منحوتة وربما فى أشياء خاصة بالعبادة وفى البيوت الغائرة وغيرها . وهناك رأى مؤداه أن مثل هذه الخصائص المادية التى وجدت بنهر أوب قد امتدت بوجه عام إلى أواسط وادى نهر « لينا » ، وربما إلى ما وراء نهر عامود وصحراء أردوس وربما كان اندماج هذه السمات فى الحضارة الصينية المحافظة ضئيلا للغاية وربما كانت ذات دلالة حقيقية ، وإلى أن يتم تعيين مراكز العصر الحجرى القديم الأعلى فى أنحاء الصين سنظل عاجزين عن معرفة ما إذا كانت سيبريا قد لعبت دوراً فى نشر نواحى

التقدم الثقافى التى تمت فى نهاية العصر الحجرى القديم وإشاعتها فى الصين، فأدى ذلك بطريقة ما إلى وضع أساس الثقافة الصينية التالية :

ويغلب على الظن أن ثقافة الكهف الأعلى فى تشوكوتين أقدم من دائرة مالطا السفلى . وإن كان ذلك لم يتأكد بعد . ومع ذلك فإن مادة الكهف العلوى تدل على سبقها لثقافة تشوكوتين القديمة الخاصة برجل بكين ، وهناك قليل من الأدوات القاطعة التى تدل على بقاء هذه الثقافة ، فى حين أن هناك ثروة من الزخارف الحجرية والعظمية تدل على وجود نمط جديد للحياة فى العصر الحجرى القديم الأعلى . ولكن أكثر ما يدعو إلى الحيرة فيما وجد بالكهف الأعلى ، جمجمة بشرية ، هذا إلى سبع خرزات حجرية استخرجت أيضاً من تجويف الجمجمة ، وهى تدل على أن الميت كان يضع غطاء ملوناً على رأسه[1] ، وقد استخدم أكسيد الحديديك فى تلوين الخرز ، كما كانت تثقب العظام والأصداف وأسنان الحيوان وتتخذ عقوداً . كما وجدت حصاة يرجح أنها كانت ملونة بأكسيد الحديديك الأحمر .

ووجدت أربع جماجم بشرية بالكهف الأعلى ، كما وجد قدر وافر من العظام تكاد تدل على أن سبعة أشخاص كانوا قد دفنوا فى ذلك المكان . ولعل استعمال كلمة « دفنوا » خير ما يستعمل فى هذا المقام ، لأن العظام هنا مصبوغة بأكسيد الحديديك الأحمر ، كما أن لدينا برهاناً آخر أهم من ذلك على أن ما حدث كان دفناً وهو موضع خرزات لباس الرأس ، كما تحمل الجماجم الدليل على أنها هشمت بواسطة أداة ثقيلة قبل الموت ، وهو السبب المرجح للوفاة . ويرى ويدنرايخ أن الأشخاص السبعة كانوا أعضاء أسرة واحدة (أربعة من البالغين — منهم ذكر كبير وآخر شاب وأنثيان إحداهما مراهقة وأخرى صبية فى الخامسة ، والأخيرة طفلة) وجميعهم لقوا حتفهم بغتة بطريقة من الطرق الوحشية السائدة فى ذلك الزمن .

ويرجح أن تكون هذه أسرة صياد كان مقامه فى هذا الكهف أو على الأقل

---

(١) وجد فى مالطا كذلك غطاء للرأس موضوع فوق جمجمة .

بالقرب منه . ومن الجائز أن كانت هذه الأسرة مهاجرة تبحث عن مقام آخر من مراكز الحياة .

وبالإضافة إلى هذه الجماجم البشرية وجدت مقادير هائلة من عظام الحيوان بينها أنواع منقرضة كالنمر والفهد والضبع والدب والنعامة وغيرها مما يفسر أن (الأسرة) كانت تعيش فى زمن متأخر جداً من عصر البليستوسين . ويبدو أن الكهف لم يكن مسكناً للانسان بل كان وكراً للحيوان كذلك ، كما أن بعثرة العظام البشرية يمكن أن تكون دليلا على تقطيع بعض أعضاء هؤلاء الأشخاص قبل دفنهم على الأقل . وأهم ما تمتاز به مادة الكهف العلوى ينحصر فى أنها توحى بأن الصين الشمالية كان يسكنها أنواع من الإنسان الحديث فى أواخر عصر البليستوسين .

ولدراسة ويدنرايخ التى أجراها على ثلاث جماجم أهمية بالغة ، فالسعة الجمجمية للرجل الكبير تبلغ ١٥٠٠ سم٣ ، والفك الأعلى ضخم ، وتميل القامة إلى الطول (٥ أقدام وثمانى بوصات ونصف بوصة) ويرجح ويدنرايخ أن هذا الرجل من المغول البدائيين ومع ذلك فإن « هوتن Hooton » يرى أنه كبير الشبه بالأوربيين البيض الأوائل مع سمات من قسمات الأستراليين الأقدمين التى « يمكن أن تكون مطابقة تقريباً لجماجم الأينو Ainu » المحدثين » .

وهنالك جمجمة ثانية يرجح أن تكون لأنثى ، كما أنه يوجد بعظمة الجبهة تفرطح جماجم نساء الأينو اللائى كن يستخدمن سيراً من الجلد يدور حول جباههن كوسيلة لحمل الأثقال . وتكوين هذه الجمجمة — وفقاً لعلم المورفولوجيا — يسلكها بين جماجم الزنوج من سكان جزر المحيط أو الميلانيزيين .

ونذكر فى النهاية الجمجمة الثالثة وهى أيضاً لأنثى ، وتمتاز بعدة قسمات من الإسكيمو (منها زيادة عرض الوجه عن عرض قحافة الرأس ، وبروز الوجنتين وارتفاعهما) .

ويبدو من ظاهر هذا الكهف العلوى أن سكانه كانوا يمثلون أجناساً بشرية

مختلفة ، وبرغم قلة المادة التي في متناول أيدينا ، وبمعلوماتنا – المبنية إلى حد كبير على المحاولة – عن العمليات التي تؤدى إلى تكون الأجناس ، فإن الاختلاف الذي نشاهده في الجماجم يجب ألا نقلل من قيمته إلا بحذر وحرص ، وهذا بالنسبة لتحليل ويدنرايخ الذي يميل إلى تأكيد وجود اختلاف بينها أكثر من وجود خصائص مشتركة منها على سبيل المثال (طول الرأس ، وقصر الجزء العلوي من الوجه ونتوء الأسنان ، وغيرها) وهناك هيئات علمية تخالف ويدنرايخ ، فهي تشعر أن مادة الكهف العلوي تمثل جنساً واحداً من القوقازيين الذين سكنوا شرق آسيا في زمن قريب جداً من عصر البليستوسين ، وبمعنى آخر لم يكن سكان الكهف الأعلى هم الأسلاف الحقيقيون للصينيين ، بل إن هؤلاء الأسلاف ينتمون إلى جنس أقدم لا تزال منه بقية إلى الآن تعيش في جيوب متفرقة بشرق آسيا .

ومن العسير أن نقدر مدى مساهمة العصر الحجري القديم في الحضارة التالية لشرقي آسيا ، وذلك أن تسجيلنا للآثار القديمة ناقص وبراهيننا غير وافية ، ففي آخريات البليستوسين كان الجليد يتراجع بسرعة أكبر ، ومياه البحار آخذة في الارتفاع ، وقلب القارة الآسيوية آخذ في الجفاف ، وكانت حدود مناطق الحياة تقترب من حالتها الراهنة ، والحيوانات القديمة إما في طريقها إلى الانقراض وإما متراجعة إلى جيوب نائية في آسيا . وربما كان الإنسان القردي كإنسان نياندرتال قد ظل يعيش في مثل هذه الجيوب إلى عصور متأخرة ، ولذا سجل وجوده في أساطير الآسيويين المتأخرين وأغانيهم الشعبية . ولا شك أنهم لم يعيشوا طويلا في تلك الأراضي التي استوطنوها ، فقد انتشرت في أوراسيا شعوب جديدة ، ولا شك أيضاً أن الشعوب البدائية البيضاء أو القوقازية قد ازدهرت حياتها في معظم الشرق ، بما في ذلك اليابان والصين الشمالية وآسيا الوسطى وسيبريا . ويبدو أن هناك دليلا على أن الزنوج الأستراليين القدماء استوطنوا الهند وجنوب شرق آسيا وإندونيسيا حينما كان المنغول في الشمال قد بدءوا في الانتشار شرقاً وجنوباً من مركزهم الأصلي الذي يظن أنه كان يمتد على نهر ينيسي .

لقد ألمحنا إلى بعض خصائص العصر الحجرى القديم بسيبريا الذى يظن أنه بلغ سهل الصين الشمالى . ونستطيع أن نمعن النظر فى البيوت الغائرة التى وجدت فى عصر متأخر فى حوض النهر الأصفر ، ونفكر فى علاقتها بتلك البيوت التى أنشأها سكان سيبريا فيما قبل التاريخ . . . إنه ليدهشنا وجود أغطية الرأس وقبور من المغرة الحمراء ، ونحار فى فهم معنى صور النساء التى وجدت بسيبريا . . . إن الحلى والخرز المثقوب والحصى الملون ، والكلاب المستأنسة ، والماعز والأغنام للطعام ، ومواقد النار المصنوعة من الحجر ، ومساكن الأسرات (؟) ، والإبر وغيرها . . . كل هذه السمات كانت معروفة فى سيبريا منذ عهد قد يرجع إلى ٦٠٠٠ سنة ق . م . ويكاد يكون مؤكداً أن مثل هذه الأشياء لم يكن يحتفظ بسرها أولئك الرجال الذين كانوا يطوفون بهضبة آسيا الوسطى ، ومن المرجح أن الكشوف المستقبلة سترفع القناع عن التراث الذى تدين به الصين لثقافات عصر الصيد فى العصر الحجرى القديم ، وهو تراث يمكن أن يكون قد عاون فى الميدان اللامادى بقدر ما عاون فى الحياة المادية إن لم يزد عليه .

فعادات العهود التالية وتقاليدها واحتفالاتها وحديث شعوبها ربما كانت تدين فى بعض مظاهرها إلى ذلك الماضى السحيق . وكان لها أساس من الثقافة المادية ، مهما صغر قدره ، بنيت عليه الثقافات التالية .

٧ — أصول الصينيين

فى القرن الثامن عشر الميلادى اندفعت جموع جنكيز خان تحمل إلى أوربا التهديد وتشن عليها نوعاً جديداً من الحرب الجماعية الحقيقية . وتساءل الناس فى جميع أرجاء الغرب عن كنه هؤلاء الرجال المستهجنين الذين حملوا إليهم الدمار من الشرق . وكتب فى ذلك الحين فردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة إلى هنرى الثالث ملك انجلترا يقول : « إن التتر رجال قصار القامة ولكنهم شداد الأطراف ـ وعلى تصميم وبأس شديد ، وهم يمتازون بالجسارة والتأهب دائماً لإلقاء أنفسهم إلى التهلكة لمجرد إشارة من قائدهم » .

لقد كان الغرب ينظر إلى المغول فى الحقيقة كأنهم من « سكان المريخ » ، فقسماتهم ومميزاتهم الطبيعية ، مع بشاعة أعمالهم كانت كافية لكى تكسبهم « نقمة الإله » . ولقد ظن فردريك ملك ألمانيا نفسه أنهم أحفاد قوم بنى إسرائيل الذين تاهوا فى صحراوات آسيا عقاباً لهم على عبادة الأوثان .

وشعر الأمريكيون برد فعل مشابه لهذا بالنسبة لليابانيين بعد حادث « بيرل هاربر » فدمغوا عدوهم هذا بوصف أقل منه سوءاً . ومع ذلك فقد أصبح كثير من الأمريكيين يهتمون اهتماماً عميقاً بأصل اليابانيين وجنسهم وثقافتهم . ولعل الفضل فى زيادة معلوماتنا عن أصول الآسيويين أكثر من أى وقت مضى إنما يرجع إلى الحرب .

لقد فرض المغول واليابانيون وجودهم على الغرب فى الأزمنة الحديثة نتيجة للضغط السياسى والاقتصادى الذى نتج عن تزايد عدد السكان والحاجة إلى موارد جديدة (المرعى والفحم والبترول . . الخ . .) وذلك بالإضافة إلى الطموح الثقافى والشخصى . . . كل هذه العوامل أدت إلى الأعراض التى ظهرت على شعب شديد العزم متكاثر العدد . وإن عدوان المغول واليابانيين ليعتبر بمثابة موجة المد العالية

حين تدفع الحاجة الجنس إلى التوسع خارج حدود موطنه الاصلى . وبمعنى آخر أننا حين نبحث عن أصول الصينيين ، يجب أن نسلم بأن بقايا تلك الأصول لا بد أن تلاحظ فى مقدار ازدياد عدد أفراد هذا الجنس الشديد المراس ، وهو الجنس الذى يعتبر الصينيون جزءاً منه .

وتمتاز الشعوب المغولية باختلاف بين فى تكوينها الجسمانى ، ويرجع هذا إلى اختلاطهم بغيرهم من الشعوب . ومع ذلك فإن المغول بوجه عام يتصفون بمميزات جسمية خاصة مثل الشعر الأسود المسترسل ، والتواء ركن العين ، والوجوه المفرطحة ، وندرة شعر الوجه ، وغيرها من الخصائص والمميزات التى تكون وسيلة لمعرفة أصل الجنس .

إن دراسة أصول الأجناس والاختلاط البشرى ، وسمات الأجناس لعمل بالغ التعقيد . وقد استخدمت هذه النواحى جميعاً فى كثير من الأحيان بواسطة الجماعات السياسية كالنازيين مثلا دفاعاً عن « نقاوة الدم » عند شعب من الشعوب ، فى حين أن الواقع هو أن الأغلبية الساحقة من الأجناس البشرية فى ذاتها ليست إلا خليطاً من أجناس مختلفة . وهذه هى النتيجة الطبيعية للواقع التاريخى ، وانتقال الثقافة . ومع ذلك فيوجد أيضاً ميل عند الناس إلى العزلة فى شكل مجموعات بشرية ، حيث تنجب كل جماعة نسلا يمتاز بسمات جسمية معينة تصبح فيما بعد من سمات هذه الجماعة . وبعض هذه السمات يمكن بطبيعة الحال ردها إلى « الجينات » أو الصفات الوراثية المميزة لأفراد الجنس . وهناك مميزات أخرى ترجع إلى العلاقات الوظيفية بين الجماعة البشرية والبيئة التى تعيش فيها ، وهو الطابع البيئى الذى درسه علماء الأجناس فى شىء من التفصيل . وتساعد هذه الدراسة على تعيين المكان الأصلى لهذه الشعوب المغولية .

ويلاحظ عالم الاجناس عند فحص توزيع الشعوب على سطح الأرض ظواهر معينة تشير إلى الدور الحقيقى الذى لعبته البيئة فى تقرير صفات الجنس : مثل سواد بشرة الشعوب التى تعيش بالقرب من خط الاستواء ، ورقة بشرة سكان العروض

الشمالية ، واستدارة صدور سكان الجبال ، ولون العينين ، وشكل الأنف ، وكثير غيرها .. وقد تكون هذه السمات من عمل الحرارة والبرودة والجفاف والرطوبة وغيرها مما أدى إلى الإبقاء على هذه النماذج شاخصة فى الجماعة كلها . ويقول الأستاذ كون Coon وزملاؤه فى كتابهم المسمى « الأجناس » :

« عندما يطيب المناخ فإنه لا يرهق بنية الجسم ، ولكنه حين يقسو ، فإن تقلباته تكون ذات قيمة انتخابية أعظم » .

ونحن نستطيع أن نسلم وفقاً لهذه الحقيقة بأن أجناساً بشرية معينة تثبت آثار تطرف البرد والحرارة . ولقد خص بعض علماء الأجناس البشرية الشعوب المغولية وانتهوا إلى أن السمات الجسمية التى تميز بها هذا الجنس عن غيره كانت نتيجة طبيعية لتكيفه للجو البارد .

ولقد انقسمت الشعوب المغولية إلى عدة أقسام ثانوية كان معظمها نتيجة لتزاوجهم المختلط مع عناصر من أصول أخرى ، ولكن هذه الأقسام ذات سمات مغولية محسوسة : مثل الهنود الحمر وبعض البولونيزيين والإندونيسيين وغيرهم ، بل يلاحظ على قسمات الصينيين الشماليين معالم الاختلاط (كالطول والبنية وحجم الجسم) ومع ذلك فيوجد فى آسيا الشمالية بنوع خاص ما يطلق عليه الأصل المغولى ، وهو يشمل الإسكيمو والمغول البورياتٍ ، وتنجوس منشوريا ، وبعض قبائل سيبريا (الجيلياك والجولدى وغيرها) .

ويظهر هذا النوع أيضاً بين اليابانيين والكوريين وأهل التبت وبعض سكان الصين الشمالية . ويصف « كون » و « جارن » و « بروسل » المغول الأصليين بالخصائص الآتية :

١ — قصار أقوياء البنية ٢ — أطرافهم صغيرة
٣ — الوجه مفرطح ٤ — العيون منتفخة ذات جفون لوزية الشكل .
٥ — شعر خشن مستقيم ينمو خفيفا على الوجه والجسم .

ويضيف «هوتن» إلى هذه الخصائص : الجلد الأصفر الداكن ، والعيون ذات اللون البنى المتوسط أو القاتم ، والأنف الشبيه بأنف الطفل ذو الجذر المنخفض . والدماء تنتمى إلى فصيلة (ب) ، والأسنان عريضة والنقطة العجزية كما أن معامل مقياس الرأس ٨٠ فأكثر (رءوس مستديرة) (١) أما علاقة هذه القسمات بنظرية التأقلم فليست معروفة .

ويقال إن هذه الصفات الجسمية تعزى إلى تأثير بيئة يسودها جو متطرف البرودة ولا بد أن يكون هذا هو الجو الذى شمل سيبريا وشرق آسيا الوسطى إبان العصر الجليدى الرابع (الفترة الجليدية الرابعة) عند ما ظهرت المناطق الخالية من الجليد فى شكل جيوب بين الثلاجات الجبلية والغطاءات الجليدية فى سيبريا . وقد كانت هذه المناطق متطرفة البرودة (غالباً تحت درجة — ٨٠ فهرنهيت) تجتاحها الرياح العالية . ولا بد أن يكون الإنسان والحيوان قد كافحا كفاحاً مريراً فى سبيل البقاء ومات عدد كبير من الناس ، أما البقية الباقية — وهى قليلة العدد — فقد طوعت ثقافتها لتلائم الظروف المناخية الجديدة : فاضطروا إلى حياكة الفراء والجلود لاستخدامها كساء واقيا (أول لباس مخيط ؟) . وكان هذا لوناً من ألوان التأقلم ، ولكن هناك أيضاً لونا آخر أعظم منه أهمية ، ذلك أنه كان من الضرورى أن يتعرض وجه الإنسان للجو القارس كالأنف والفم والعينين بوجه خاص ، فكان لابد أن يقابل ذلك تغير فيزيقى لحماية هذه المناطق الحساسة من الوجه . ومن ثم فهنا مجال ممتاز لتأخذ عملية الانتخاب الطبيعى (٢) مجراها وخاصة فى تلك الجماعات المنعزلة المحدودة من المغول الأصليين ، وهؤلاء لم يستدل عليهم بصفة قاطعة . ومادام الأمر كذلك ، فلا بد من حدوث تغيرات تشريحية ضرورية للبقاء .

فالحاجة إلى حماية الوجه استلزمت نموكية من الشحم تحت الجلد ، وبالتالى

---

(١) الرأس المستدير أو العريض يبلغ عرضه ٤/٥ طوله على الأقل .

(٢) يتلخص المفهوم الحديث لعملية الانتخاب الطبيعى التى نادى فيها داروين قديما فى نظرية أصل الأنواع فى أن الصفات الملائمة لنجاح الفرد فى البيئة تظهر وتتوارث. (المراجع)

تطلبت هذه الحاجة زيادة على تراكم الشحم ، تغيرات تشريحية معينة . فالأنف وهو أكثر أجزاء الجسم تعرضاً ، قلت مساحة سطحه نتيجة لدفع عظمى الوجنتين له ، وتراجع الأنف نفسه بعض التراجع ، ومن ثم غاص فى الطبقات الشحمية التى تراكمت على الوجه الذى أصبح متسعاً ومكتنزاً . وحدث مثل هذا للعينين ، فقد كانتا محميتين بالامتداد العمودى لمحجر العين ، وتبطنت المنطقة كلها بالشحم ، أما التواء ركن العين الممتد من منطقة الأنف إلى ما فوق العين فقد أدى إلى ضيق شق العين ، وتكون بالإضافة إلى البطانة الشحمية ما يشبه الدرع لحماية العين من البرد ، وهو درع شبيه بعوينات الثلج التى استنبطت لحماية العين من عمى الثلج . وأصبح التنفس خلال المسالك الأنفية أيسر من ذى قبل ، وذلك بالنسبة إلى غوص منطقة الأنف فى الوجه .

ويلاحظ كون وجارن وبروسل أن هذا التغير الذى انتهى إلى الوجه المغولى ذى الشكل المعروف يشتمل على ثلاثة أصول :

١ — انتقاص المساحة السطحية (للوجه) إلى أدنى حد ، وذلك بانبساط أكبر قدر ممكن من البروزات .

٢ — تبطين السطح بالشحم للاحتفاظ بحرارة الجسم .

٣ — رفع الممرات الأنفية لتكفل أقصى قدر من الحرارة اللازمة لتدفئة الهواء فى طريقه إلى الرئتين .

وقد وجد كثير من المجندين الأمريكيين من خبراتهم فى الأصقاع الباردة إبان الحرب الأخيرة أن إطلاق شعر الوجه (الذقن والشارب) يعتبر معوقا فى البرد القارس ، ذلك أن اللحية تختزن رطوبة الزفير على شكل ثلج يجمد الوجه ، لذلك كان لا بد من تقليل شعر الوجه . وإذن فقلة الشعر النسبية فى المغول القدامى قد تكون رد الفعل الانتخابى للبرد (للمحافظة على الجنس) .

وهناك نظريات أخرى تدعى المراجع أنها ذات علاقة بأصل التكوين الفيزيقى

للجنس المغولى (مثل نقص فى كمية اليود اللازمة للجسم ، والتزاوج الانتخابى المختلط وغيرهما) . وكل هذه النظريات جديرة بالذكر ، إذ من الواضح أنها مقنعة إلى حد ما ، ولأننا يجب أن نسلم بأشياء كثيرة دون أن يسندها عادة أى دليل غير نتيجتها النهائية ، وفوق ذلك فإنه من المحال إقامة البرهان على الحقيقة الراهنة على الأقل . ومع ذلك فإن نظرية كون وجارن وبروسل قمينة باستكمال فكرة الانتخاب الطبيعى (المكان المحدود ، وقلة عدد الجماعة المتزاوجة ، وضروب الضغط من نوع معين ، والاستمرار الزمنى) وليس هناك خلاف فى أن الوجه المغولى مهيأ لمقاومة البرد أكثر من أى وجه آخر . فإذا كان من الممكن للفيل أن ينمو له فراء ليقاوم شدة البرد ، وأن تنمو للحصان أسنان ملائمة لمضغ الحشائش فمن الصعب استثناء الإنسان من التأثر بمثل هذه التطورات كما يفعل غيره من الأحياء ، وبخاصة حينما تكون التأثيرات ناتجة عن عوامل بيئية (كالموارد الغذائية) معروف أنها تؤثر فى بنية الفرد الحى فى جيل واحد فقط ، ولكن عندما يكون لدينا مئات من الأجيال تحملت ألواناً من ضغط العوامل البيئية المماثلة مدى ألوف من السنين ، فإنه يبدو منطقيا أن الأنواع تتأثر هى الأخرى ، وخاصة إذا كان الأمر مسألة ملاءمة أو « فناء » . ولا يوجد بالطبع حتى الآن حل لهذه المشكلة .

إن نظرية ويدنرايخ التى تقول بوجود صفات مغولية لإنسان بكين ورجل الكهف العلوى فى تشو كوتين — قد حملت طائفة من أشهر علماء الأجناس البشرية الصينية إلى الاعتقاد بأن الأنواع المغولية قد احتلت الصين الشمالية أزمانا طويلة فى العصور القديمة كما أن هؤلاء المغول هم أجداد الصينيين فى العصور التاريخية . ومع ذلك فإن الشواهد كما رأينا ، تدل على أنه فى نهاية عصر البليستوسين كان يحتل آسيا الشمالية وشمال الصين أحد الشعوب القوقازية القديمة وهو شعب ربما كان قريب الشبه بالإينو اليابانيين من حيث التكوين الجسمى . وتدل الشواهد التى أميط اللثام عنها أيضا على أن المغول لم يصلوا إلى جنوب شرق آسيا حتى زمن متأخر جداً ولما كانت الأنواع المغولية فى

تلك الفترة لم تكن توجد فى غرب آسيا فلا بد لنا أن نسلم بوجود موطن أصلى لها فى مكان ما فى الشمال حتى بفرض عدم وجود نظرية التكيف للطقس البارد . ويجب ألا يغرب عن البال أيضا أن الصينيين ليسوا هم المغول الأصليين ، ولكنهم فرع استقر بعيدا فى جنوب المنطقة الحالية التى يعيش فيها هذا النوع الآن .

وقد أخذ المغول الأصليون الذين كانوا قد تخلصوا من بيئة العصر الجليدى وأتى عليهم الدفء الذى ساد فى أعقاب الفترة الجليدية الأخيرة أخذوا ينتشرون من موطنهم الأصلى منذ نحو ثمانية أو عشرة آلاف عام على الأرجح وتزاوج هذا الشعب مع غيره من الأجناس ونتج عن هذا التزاوج بمضى الزمن السلالات المغولية التى تنتشر فى العالم فى الوقت الحاضر . وفى الألف الثانية قبل الميلاد أصبح سكان الصين الشمالية وعلى الأقل جزء من شرق الصين تغلب عليهم الصفات المغولية وقد انتهى « دافيدسن بلاك » العالم فى فيزياء الأجناس البشرية ، والذى قام بدراسة الجماجم التى وجدت فى قبور تنتمى إلى هذا العهد فى هونان وكنسو — انتهى إلى مايلى :

« يتضح من نتيجة البحث السابق على المقاييس الجماعية ، ومن العلاقات بين جماجم هونان وكنسو فيما قبل التاريخ ، ومقارنتها بالمادة التى وجدت حديثا بشمال الصين ، يتضح أنه أصبح من المقرر بما لا يقبل أى شك أن سكان ما قبل التاريخ كانوا يمثلون التكوين الجثمانى الشرقى بنوع خاص .

ويضاف إلى ذلك أن التشابه بين سكان الصين الشمالية فيما قبل التاريخ وسكانها الحاليين يمكن معه أن نعبر عن الأولين بأنهم الصينيون الأول » .

ولا يظهر النوع المغولى فى جنوب غربى سيبريا فى الترتيب الأركيولوجى حتى عصر ثقافة « منيو سينسك كورجان » (بعد سنة ٥٠٠ ق. م على الأرجح) وهذا يدل على أن مركز الثقافات المغولية كان فى الغالب فى شرق نهر ينيسى ، وأن أكبر حركة لهذا الجنس كانت حول محور شمالى ـ جنوبى ، الأمر الذى يعزى إليه انتشارهم المبكر فى الصين ، وربما فى العالم الجديد . ويمكن أيضا أن يفسر حقيقة واقعة ،

وهى أن معظم الثقافة المغولية فى ذلك العصر كانت ثقافة من النوع المتنقل غير المستقر الذى لا يترك إلا أثرا قليلا إبان مروره .

وصفوة القول إن هناك ما يشير إلى وجود أصل آسيوى شمالى للجنس المغولى الذى تفرع منه الصينيون . ويرجح أن يكون تكوين المغول الجسمى قد تم فى أثناء العصر الجليدى الأخير حينما بلغ الانتخاب الطبيعى البيئى درجة عالية بسبب انعزال جماعة من الجنس البشرى العاقل فى بقعة غير جليدية جافة (من المرجح أن تكون سيبريا أو آسيا الشرقية الوسطى) فنجم عن ذلك أن تكونت تقاسيم الوجه المغولى الخاصة . ووفقاً لهذه النظرية يكون انتشار المغول جنوباً وشمالا قد حدث بعد أن أخذ العصر الجليدى فى الزوال بزمن .

٨ ـ أصول أسطورية

كثيراً مايقال ـ ومن المناسب هنا أن نعيد القول ـ إن وراء كل خرافة وأسطورة نصيب ضئيل من الحقيقة ، وبناء على ذلك يمكننا أن نتوقع بعض إشارات عن تجوال الصينيين الأقدمين تروى فى قصصهم القديمة . والواقع أننا لا نجد مثل هذا الدليل فى أية ناحية أخرى ، بل على العكس نجد تكرار تسجيل أدبى كثيراً ما يكون مملا ، عن تكريس الجهود للأرض التى يحرثها الفلاحون ، كما كانت أسرهم تحرث نفس هذه الأرض منذ أجيال لا يحيط بها الحصر ، مزهوين دواماً بهذه التربة مقدسين لها .

وهذا مناقض بالطبع للبرهان الذى قدمناه فى الفصل السابق ، فمعظم سكان الأرض لهم فى التجوال تاريخ مأثور عن أسلافهم تحفظه الأغنية والقصة . وليس بين شعوب أوربا من نسى تماماً « أيامه المجيدة » فى ماضيها البعيد حين كان جميع الأسلاف الأقوياء يقومون بأعمال خارقة تفوق أعمال الإنسان فى مجاهل الغابات أو السهول ، وتذكر ترانيم « الڤيدا » الهندية قصة انتشار ثقافة « حصان المتبربرين » الذين عاشوا فوق التربة . ويذكرنا الكاتب المسرحى الأيرلندى « سين أو كازى Sean O Cassy » فى كل مسرحية بتلك « الأيام البدائية الطليقة » التى كان يحياها الأجداد ، وكذلك أساطير السكندناويين القدماء (الساجا)[1] وقصص تجوالهم ويلذ للأمريكيين أيضاً تتبع مراكز استيطان أجدادهم العظام من ولاية ماساشوستس إلى أريجون أو كاليفورنيا . والواقع أن عربة النقل المغطاة التى تجرها الخيول تعتبر رمزاً محبباً إلينا (الأمريكيين) لما تثيره فى النفوس من تأهب واستعداد للتنقل والترحال .

---

(١) يعد الكاتب النرويجى أبسون من أكبر كتاب قصص (الساجا) هذه (المراجم) .

أما الصينيون فعلى العكس ، إذ ينعتون المتجولين « بالمتبربرين » ، ويحزنون على من يضطر إلى النزوح عن موطنه كأنه يواجه كارثة رهيبة . ويربى المغول أطفالهم على الجبن والزبد واللبن ، وهى جميعاً من المواد الاقتصادية بالنسبة للرحالة المتجولين ، ولا يشرب الصينيون اللبن إلا فى القليل النادر أو لا يطعمون منه مطلقاً ، ولا يستخدمون الماشية إلا فى العمل دون غيره ، حتى الماعز والأغنام التى ترفع من الحالة الاقتصادية ليس لها إلا نصيب قليل فى هذه الناحية ، فلماذا نشأ هذا التناقض ؟

ليس لدينا إجابة يسيرة عن هذا السؤال ، ففى التاريخ الصينى القديم كانت الزراعة إلى حد ما لها السيادة دون الصيد ، وربما ساد الرعى المتنقل كذلك، وهذا يشبه بطبيعة الحال العملية التى تمت فى غربى آسيا ، ففى ذلك الوقت لابد أن يكون قد قام عداء بين فلاحى الأرض وبين المتنقلين الرحل . وقد عبر « أوسكار هرستين » عن أهمية هذا العداء بالمقطوعة الموسيقية « أوكلاهوما » فى أغنية « آه ، يجب أن يتصادق الفلاح وراعى البقر » . وتاريخ هذا النزاع قديم قِدم الزراعة نفسها . ويسخر الرحل من حياة الفلاحين المستقرة ، كما يرتجف الفلاحون خوفاً لما يبدو فى ظاهر حياة التجول من بأس . وكان كل منهما يجور على أملاك الآخر ، فرقعة صغيرة من الأرض الخصبة ربما كانت تكفل علفاً للماشية وقنص الحيوان ووفرة الحبوب .. إنها قد تكفل كل تلك الأغراض ولكن ليس فى وقت واحد ، ومن هنا نشأ النضال .

وكان الفلاحون الصينيون القدامى ينظرون إلى الأرض نظرة تقديس ، فأسكنوها الأرواح التى تمنحهم النجاح إذا ماطامنوها . وهذا النجاح الذى يعتبر منحة الإله ونتيجة لكفاح العامل فى نفس الوقت ، هو الذى جعلهم فى عزلة عمن عداهم ... لقد كان مالك الأرض مباركا . وقد كفل لهم طمى « اللويس » الخصيب بالصين الشمالية غلة موفورة ، وامتزجت المقدسات والدنيويات بهذه الطريقة المثالية التى وهبت الفلاح الصينى حاسة الفهم الكامل لعلاقته بالآلهة ــ وكانت علاقة طيبة . وكان الرجل الصينى نتيجة لذلك يعد نفسه أرفع منزلة ممن عداه ، أما الأجنبى أو المتجول ، فلم يكن بسيء

الحظ فى اختيار طريقة حياته فحسب ، بل يجب أن يظل لسبب ما خارج نطاق الآلهة الأخيار. وكانت تطلق على الرحل نعوت شتى مثل « المتبربرين ، والأشرار والوحوش » وغير ذلك . ومما يدعو إلى بعض الدهشة ، أن يمسح الصينيون من ذاكرة الشعب ماضيه المتبربر « الشرير » الهائم على غير هدف ... إن رجل الأرض كان دون شك فوق من عداه منزلة ، لأن تربة الصين قد منحته البركة . ورغما عما فى ذلك من تناقض لما جرت عليه التقاليد الشعبية فى جميع أنحاء العالم ، يمكننا أن نسلم بأن الصينيين قد بذلوا كل جهدهم لمحو ذكرى « الأيام البدائية الطايقة » التى تتنافى فى الوقت الحاضر مع مركزهم المسكين السامى ، فقد كان فخرهم بالأرض لا ببسالة المحارب.

كان أول الخليقة عندهم هو « پان كو » الذى خلقته الفوضى ، وفقاً للمبدأين الثنائيين « يانج » و « ين » . ونحت پان كو العالم من حجر الجرانيت بإزميل ومطرقة فسبح العالم فى الفضاء على غير هدى . فلما ساعدته العنقاء والتنين والسلحفاة ، قسم العالم ، وظل ثمانية عشر ألف عام فى كدح ، وكان ينمو فى كل يوم من أيام كفاحه ستة أقدام . فلما أنجز عمله مات ، وتخلق من جسمه هذا العالم الذى نعرفه :

> « تحولت رأسه إلى جبال ، وتنفسه إلى رياح وسحب ، وصوته إلى رعد ، وعينه اليسرى أصبحت الشمس ، واليمنى أصبحت القمر ، ولحيته ... تحولت إلى نجوم ، وأطرافه الأربعة وحدوده الخمسة إلى أركان العالم الأربعة وجباله الخمسة العظام . وتحول دمه إلى أنهار ، وشرايينه وعضلاته إلى طبقات أرضية ، ولحمه إلى تربة وجلده وشعره إلى نباتات وأشجار ، وأسنانه وعظامه إلى معادن ، ونخاعه إلى لآلىء وأحجار كريمة . وهطل عرقه مطراً ، بينما لقحت الرياح الطفيليات التى كانت تضايق جسمه فأصبحت أصل النوع الإنسانى » .

وتوالت بعد پان كو عهود أشقاء ثلاثين هم : « الأباطرة السماويون » وذلك حين كان الناس يعيشون فى براءة ، وحين اخترعت الجذوع العشرة والفروع الاثنا

عشر التى أصبحت فيما بعد أساس التقويم الصينى « الدورة الستينية » ، وحكم كل إمبراطور ثمانية عشر ألف عام .

وجاء بعدهم حكم « الأباطرة الأرضيين » ، وهم الأحد عشر أخا الذين أعطوا الدقة الحسابية لأقسام الليل والنهار ، وطول الشهر ونظام الشمس والقمر وأبراج النجوم .

ثم جاء بعدهم « الأباطرة البشر » الذين قسموا هذا العالم المعروف .

وجاء بعدهم الخ ...

وهكذا تمضى قصة بداية العالم التى لا نفيد منها إلا معنى ضئيلا ، إلى أن نصل إلى « فو-هى » الذى يعده الصينيون أول إمبراطور ، وهو لا يزال بطبيعة الحال شخصيه خرافية . ويشتهر « فو-هى » بأنه المعلم الذى ثقف الناس بآداب الحياة الاجتماعية ، ومن بينها أهمية رابطة الزواج وطرق الاقتصاد الحيوانى ، وقنص الحيوان وصيد السمك وتركيب الآلات الموسيقية ، والكتابة المترابطة (وهى تشبه فى معظمها كتابة كويبو فى بيرو) . وأدخل أيضاً الأشكال الهندسية الثمانية الخاصة بفلسفة التصوف ، وعلم الناس طقوس التضحية فى الاحتفال الدينى .

وجاء عقب « فو - هى » الإمبراطور « شون » الأسطورى الشهير ، وكانت أعظم هباته موجهة للزراعة ، فقد اخترع الآلات وأدخل على الفلاحة بعض الطرق الفنية وعلم الصينيين قيمة النباتات المختلفة بما فى ذلك خصائصها الطبية .

وأعقب « شون » الإمبراطور هوانج - تى الذى أنشأ إمبراطورية صينية اشتبكت فى معركة مع « المتبربرين » فى الشمال . وكانت تحدث مثل هذه المعارك مع القبائل الشمالية المتجولة وتذكر باستمرار وتواتر ممل فى أخبار الصين . ويظهر بجلاء أن « هوانج — تى » كان أكثر تجديداً من « شون » إذ يعزى إليه تنمية طرق الاقتصاد الحيوانى والفلك ، واختراع المركبات ذات العجلات ، وقائمة عن زراعة النباتات الموسمية الخاصة بالإنتاج الزراعى ، وصناعة التعدين ، واستخدام حجر اليشم

وغيره من الأحجار الكريمة . أما زوجة « هوانج — تى » وهى سيدة « سى — لنج » فقد نشرت تربية دود القز وعلمت طريقة نسج الحرير . وفى حكم « هوانج — تى » اخترع تسانج — كى مؤرخ الإمبراطور الكتابة وشرح طريقة لها مكونة من نحو ٥٤٠ حرفا هيروغليفيا (بالصور) يطلق عليها خط « بصمات أقدام الطير » واستخدم « تسانج — كى » الفرشاة وألواح الغاب الهندى فى الكتابة .

وأنشأ « هوانج — تى » المنازل من الطوب ، وكذلك المعابد الخاصة بطقوس القربان ، كما أسس الإمبراطورية على نظام الأقاليم الثابتة ذات الإدارة المحلية على مستوى القرية ، كما أنشأ المراصد الفلكية ونظم التقويم ، وابتكر طريقة للملامات الموسيقية ، بل وأسس وسائل المبادلة .

ومن ثم نرى أن « هوانج — تى » من أعظم من عنى بالتمدين ، وابتداء من عهده ندخل شيئا فشيئا ميدانا مطروقا ، فنبدأ بسد الثغرة الفاصلة بين الأحداث الأسطورية والواقع التاريخى ، لأنه بالرغم من بقاء كثير من التاريخ الأسطورى قبل مجىء الأسرة الإمبراطورية الثابت وجودها تاريخيا ، وهى « أسرة شانج » فإنا نجد أن الصينيين يبدءون فى ملازمة السمات التى كونت ثقافتهم القديمة بشكل يتضح منه أن هذا التمييز لا شك قائم على حقيقة واقعة . ومن المؤكد أن إتقان مخترعات هوانج — تى ودقة صنعها ، بالإضافة إلى ضروب التقدم لتدل إلى حد ما على ظهور الحضارة ظهوراً مفاجئا .

الأسرات الصينية القديمة

هان المتأخرة	٢٣ — ٢٢٠ م
هان القديمة	٢٠٦ ق . م — ٨ م
تشن	٢٤٩ — ٢٦٠ ق . م
تشو	١٠٢٧ — ٢٤٩ ق . م
شانج	١٥٢٣ — ١٠٢٧ ق . م
	(تواريخ الغاب الهندى)
هسيا	(أسطورية)

إن كتاب التاريخ المعروف باسم « تشو – تشنج » الذى كان يظن أنه من تصنيف كنفوشيوس ، وهو من أقدم الكتابات الصينية ، يصف عهد حكم الأباطرة منذ عهد أحفاد أسرة هوانج – تى إلى عهد أسرة تشو ، ويتضمن وصفاً لحكم الإمبراطورين ، « ياو » و« شن » من أسرة « هسيا » وأسرة « شانج » . ولم يثبت أن أسرة من أسرات هذه العهود كان لها وجود حقيقى غير أسرة شانج ، أما هسيا فربما كانت دويلة صغيرة فى حوض النهر الأصفر ، ولعلها كانت تملك كثيراً من المميزات الثقافية الصينية . وربما أنها تمثل هذه المميزات الثقافية فقد حظيت بمكانة فى التاريخ . ومع ذلك يبدو أن هناك اتفاقاً عاماً على أن هسيا التى يستبعد أن تكون دولة كبرى قد سيطرت على مساحة واسعة ، كما قد يدل ذكرها فى التاريخ بوصفها من الأسرات الأولى . ولقد أثبت هرلى كريل Herrlee Creel وهو فى مقدمة الباحثين فى هذا الميدان ما يلى : —

« أن الدليل يسمح لنا أن نستنتج عدم وجود أسرة « هسيا » بالمعنى المتعارف عليه فى نفس الوقت الذى وجدت فيه دولة بهذا الاسم . أما لفظ « هسيا » الذى استخدم فيما بعد بإصرار بمعنى « صينى » و« الدول الصينية » فيما يتصل بالمفهوم الثقافى فإنه يقودنا إلى استنتاج أن هذه الدولة كانت القوة الموجهة للثقافة الصينية على أيامها . وما دام الأمر كذلك فلربما تكون قد أثرت تأثيراً سياسياً شمل أراض فسيحة . ولعل اعتبارها الثقافى منحها السيادة حتى خارج نطاق حدودها الأصلية .. وإذن فقد لا نكون بالمعنى الثقافى مخطئين تماماً إذا نظرنا إلى « هسيا » بوصفها أسرة صينية » .

وليس هناك دليل أثرى يثبت قيام أسرة « هسيا » وإلى أن يقوم الدليل الذى يوشك أن يظهر ، يجب أن نوافق على ما استنتجه الأستاذ « كريل » بوصفه أكثر الاستنتاجات ملاءمة فى الوقت الحاضر .

ويحظى «ياو» و« شن» باحترام عظيم في الصين لأنهما يكملان مثل كنفوشيوس العليا في القيادة ، فكل منهما عاون الحكومة الصينية في الأعمال الهندسية والصالح العام . ولعل خير تلخيص لحكمها نجده في مقدمة « تشو ـ تشنج » وإن المقصود منهما وصف « ياو » إلا أن هذا الوصف ينطبق على « شن » أيضا .

« لقد رفع من قدر القادر والفاضل ، ولذا ظفر بحب جميع الطبقات التسع من ذويه الذين أصبحوا على وفاق . كما أنه نظم وصقل شعب بلاده فأصبحوا جميعاً أذكياء مستنيرين. وأخيراً ربط ونسق ولاياته العشرة الآلاف. وبذلك تغير ذوو الأخلاق السيئة ، وكانت النتيجة هي الوفاق الشامل».

ويبين هذا التقرير المثالي من تعاليم كنفوشيوس القيمة مقدار ابتعادنا عن مغلقات « بان كو » التي رواها تاريخ الصين الجغرافي . ومع ذلك فيبدو أن هناك موضوعاً عاماً يربط الكل من البداية حتى النهاية ، وذلك هو الكفاح الدائم في سبيل النظام والتناسق ، والإشارة المستمرة إلى الفلك والتواريخ وطرق الحساب وقوائم الفصول وملاحظة الطقوس والتصرف اللائق في كل مناسبة من مناسبات الحياة ، والحالة الاجتماعية المستقرة وغيرها . كل ذلك يلخص كثيراً مما هو صيني ، ومع ذلك فإننا نجد أيضاً مثل هذا الاحترام للحالة الراهنة وكراهية التغيير في بلاد الشرق الأدنى في الزمن القديم . فالمصريون مثلا كانت القوة الدافعة في حياتهم هي حاجتهم إلى التناسق والانسجام في التوازن . وقد حققوا كل هذه الأشياء في كافة مظاهر حضارتهم . ويبدو أن الشيء الذي يؤدي إلى عزلة أفكار الصينيين وتصوراتهم ، هو شعورهم القوي بالتاريخ الذي يتغلغل في أعمالهم ـ التاريخ بوصفه ألف باء الحاضر .

ومن كتابات كنفوشيوس :

« ما أثمن ما أحرزه الحكام المتأخرون في سجلات شو ! » . إن دروس الماضي كان يشخصها الحكماء بقوة أمام حكام الصين ، وكان الأطفال الصينيون يربون على التقاليد المرعية وهي احترام السلف الذين تظل أرواحهم ماثلة دائما لتقضي بينهم أو لتؤثر فيهم . ونجم عن هذا شعور قوي بالزمن في الصين ،

فالماضى والحاضر والمستقبل كلها تجرى عادة لتربط الإنسان عن كثب بأساطير ومصيره المحتوم ، وبحقائق حياته اليومية . وليس من اليسير أن نطرح أساطير ما قبل التاريخ جانباً بوصفها لغواً سخيفاً بناء على هذه الفلسفة ، ومن ثم فإن هذه الأساطير ــ حتى فى العصر الحاضر ــ تعاون معاونة حقيقية فى الأعمال اليومية .

من أعظم المشكلات التى تتضمنها الكتابات الأسطورية التى ذكرناها هى أنها تبدو وكأنها تعبر عن وجهة نظر الطبقة الحاكمة ، وعن وجهة نظر القادة أكثر منها عن وجهة نظر الشعب ، وهى تبدو شبيهة بكتابات الطبقة الأرستقراطية التى يحترمها العامة من الناس ، ولكنهم لا يتمتعون بها . ومع ذلك فهناك طائفة من القصص الشعبية يحبها سكان القرية الصينية حباً جماً . والواقع أن هذه القصص ترجع إلى أصول أقل بكثير من أصول القصص السابقة ، ومع ذلك فهى مفيدة من حيث هى تعبير عن التقارب بين الإنسان والطبيعة ، وهو أمر أساسى بالنسبة لشعب زراعى .

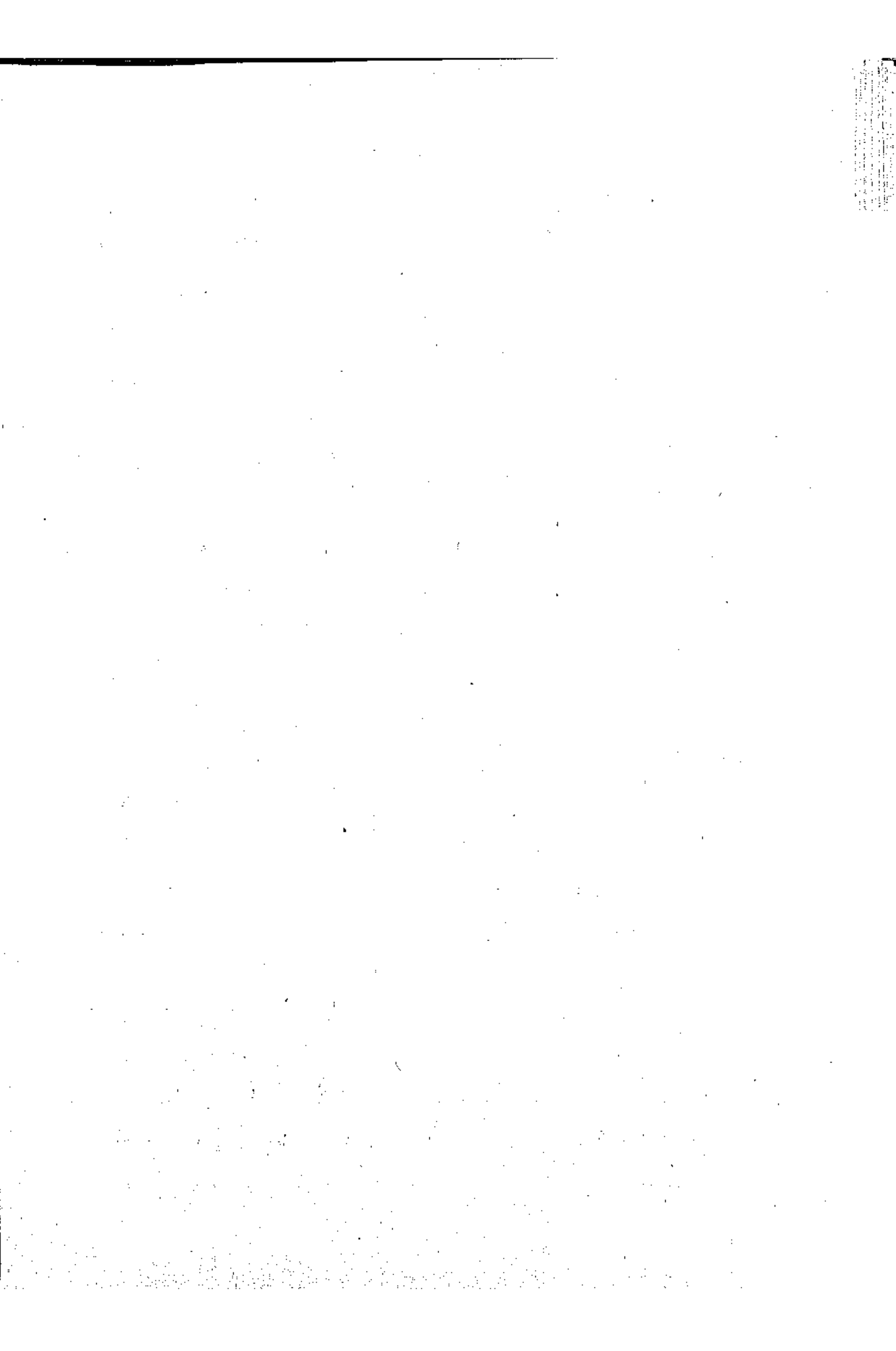
إليك إذن عالم يعتقد بوجود روحى منفصل ملىء بالآلهة والشياطين والأرواح حيث لا يحتاج السحر فيه إلى تفسير . ومن المتوقع أن يكون ذا علاقة قوية بالفولكلور الأوربى . فالثور فى هذا العالم يشقى فى سبيل الجنس البشرى لأنه كالنجم يخطىء فى رسالة « حاكم السماء » ... والأرواح الشريرة تبغض الطرق الملتوية ، ولذا تبنى الجدران الروحية بالقرب من المنافذ لكى تمنع دخولها وهنا تنانين (جمع تنين) طيبة وأخرى شريرة (تسعة أنواع) وكثير من هذه التنانين ترتبط بالشمس والقمر والسحب والمطر والأرض . وتوجد طوائف من القصص تدور حول هذه الأشياء وتهتم بغير ذلك من الوحوش . ويغلب على الظن أن العالم الروحى المنفصل العامر بالصينيين قديم للغاية ، غير مقيد فى جوهره ، منمق على مدى الزمن ، مختلط بأساطير أخرى ، ومعتقدات وتقاليد . وهو مع ذلك أساس بالنسبة لعالم الثقافة الصينية بحيث لا يمكن تجاهله بوصفه مصدراً لمعتقدات الماضى البعيد . ولربما تصبح بعض هذه الأساطير والخرافات والقصص برهاناً مادياً على وجود عالم بدائى أكثر قدماً

من ذلك العالم الذى تصفه تواليف كنفوشيوس ، وذلك حين تتقدم طرائق التنقيب عن الآثار وتتم الكشوف فى بلاد الصين نفسها على أيدى أبنائها .

ويجب أن نذكر ، أن المؤرخين حين يتكلمون عن تاريخ الصين المبنى على المصادر المحلية، إنما يقصدون عادة التأريخات والسجلات والتقارير الرسمية التى كتبها علماء حكوميون . ومن أعقد المشكلات التى تواجه مؤرخى العصور التاريخية ، ومؤرخى عصور ما قبل التاريخ هى كيفية فهم تاريخ الثقافة الصينية ووصفها دون أن يجعلوا التقارير المكتوبة والفنون الجامدة والهندسة المعمارية ، والشئون الملكية وغيرها أساساً لوصفهم . وحين يبحث مؤرخ ما قبل التاريخ عن أصول يستقى منها نوع التغير الثقافى والخصائص الأساسية للثقافة القديمة ، حين يبحث عن كل ذلك عليه أن يتأكد أن حقائقه مستمدة من التاريخ الثقافى لا من التاريخ السياسى ولا من التاريخ المكتوب مهما كانت قيمتها . ولقد وقع علم الآثار بالصين كما سنرى فى شرك فاختلط عليه الأمر وأسكرته الصورة القوية التى تصور أصول الحضارة ، فالتناقض بين ما ترويه التقارير الرسمية التاريخية عن أصول الصين ، وبين ما تشير إليه الدلائل الأثرية (الأركيولوجية) التى فى متناول أيدينا ، يمكن أن يعلل أيضاً بأن علم الآثار يتناول تاريخ الثقافة ، فى حين أن السجلات تتناول الحوادث التاريخية ، وشتان ما بين المصدرين .

وحين نبحث عن إشارات فى الخرافة أو الأسطورة الصينية لنفهم التاريخ الماضى الطويل يجب أن نحرص على ألا تعرقلنا الدعاوة القديمة التى تطنطن بها فى آذاننا الأساطير الرسمية المسلم بها ، إذ ليس من المستبعد أن يجد الدارسون فى المستقبل للثقافة الشعبية الصينية غير الرسمية (الفولكلور) معلومات قيمة عن هذا التاريخ القديم وذلك عن طريق دلائل أخرى غير تلك التى نعتبرها اليوم قضية مسلمة .

فالاهتمام الشامل بأمر الزراعة — التى يعتبر الصينيون أول من مارسوها — يؤكد أهمية عثورنا على دليل قاطع عن بداية هذه الحرفة فى الصين ، لأننا إذا عثرنا على هذا الدليل فإنا فى الواقع نكون قد عثرنا على أصول كل من الحضارة والثقافة الصينيتين .



٩ – بزوغ الفجر على النهر الأصفر

من أغرب المعالم فى دراسات النظم التاريخية ، بل مما يعد من عدة وجوه من سوء طالع هذه الدراسات ، تلك الحاجة الملحة إلى شخص يتخصص فى دراسة منطقة معينة ، وفى موضوع بعينه . فتاريخ الصين مثلا يبلغ من سعته وتعقيده ، أنه إذا لم يخضع للتخصص فلن تخطو معرفتنا عن ماضى الصين خطوة هامة إلى الأمام . وما يصدق بالنسبة لدارسى الثقافة الصينية يصدق أيضا على غير الصين من المناطق والأزمنة الأخرى . فالأمر غير مقصور إذن على المسائل الصينية فقط .

وتتجلى الأخطاء التى تنطوى عليهاهذه الظاهرة عندما تبذل المحاولات لفهم أصل ثقافة ما كالثقافة الصينية وتطورها . وقد أظهر علماء الأجناس البشرية مراراً أنه لا توجد ثقافة فى الوجود قامت بذاتها ومن تلقاء نفسها ، بل هى عادة نتيجة تطور ثقافى دائم متفاعل مع غيره من الثقافات التى تفاعلت بدورها مع الزمن والمكان . ولا تختلف بلاد الصين عن غيرها من المناطق التى وجدت فيها جذور الثقافة البشرية .

وتبعد الصين عن غربى آسيا بعداً شاسعاً . وقد انتقل الناس فى غربى آسيا من دور البحث عن الطعام إلى دور إنتاج الطعام فى العصر اللاحق لسنة ١٠٫٠٠٠ ق.م. وبذلك وضعوا أساس الحضارة حتى لقد تعذر على علماء الصينيات إدراك الارتباط بين الشرق والغرب ، وكان ذلك نتيجة التخصص الفائق من ناحية ، ومن ناحية أخرى للحاجة إلى معرفة كنه العملية الثقافية على وجهها الصحيح .

وإليك بياناً ظهر فى مؤلف حديث لكاتب يبحث فى أصل صناعة البرونز على عهد أسرة « شانج » الصينية :

« إذا اعتقدنا بوجود أصل غربى فى صناعة البرونز الصينى ، فيجب أن نسلم بأن جماعة كبيرة العدد من المعدنين وصناع الآلات، وصناع البرونز

المهرةهاجروا من الشرق الأدنىقبل احتلال « آن ـ يانج » ببضعة قرون ، فقد قاموا برحلة محفوفة بالأخطار قطعوا فيها آلاف الأميال . ولا بد أن تكون هذه الرحلة الطويلة قد استغرقت عدة سنين . ولكنهم لم يتركوا خلال هذه المدة أى دليل فى الطريق الذى سلكوه ، كما أنهم حين وصلوا إلى الصين لم يخلفوا أى أثر أجنبى فى الأدوات البرونزية ، لا من الناحية الرمزية ولا الشكلية . فأى باعث يمكن أن يكون سبب هذا التدبير ؟ .. ليس هناك دليل أو سابقة ، على وجود أجانب بالصين » .

ومثل هذا البيان قد يشوه — فوق ذلك — كتاباً ممتازاً كهذا لأنه يكشف عن سوء فهم جوهرى لظاهرة انتشار الثقافة . ومما يؤلم أن مثل هذه البيانات يصدرها فى كثير من الأحوال مؤرخو الفن وعلماء الصينيات من ذوى الشهرة ، حتى إن كثيراً مما يصلون إليه من النتائج المبنية على بيانات كهذه تكون واهية بوجه عام .

ويبدو أن هناك نوعين من الانتشار الحضارى : الأول انتقال حقيقى لميزة أو فكرة عند مرور من يحملها فى طريقه من منطقة إلى أخرى بصرف النظر عن الأدوار الثقافية التى تشملها ، كما هو الحال فى العبارة التى اقتبسناها آنفاً . وفى عصور ما قبل التاريخ ، وفى فجر العصور التاريخية كان هذا النوع من الانتشار محدوداً للغاية ما دامت وسائل النقل والمواصلات ومداها كانت هى الأخرى محدودة أيضاً فى أضيق نطاق . والنوع الثانى للانتشار هو الانتشار عن طريق التأثير ، وهذا يتضمن انتقال طريقة فنية من منطقة إلى أخرى ، بسبب اتصال سكان المنطقتين ، فتصبح الأفكار وضروب التقدم فى إحدى المنطقتين هى نفسها فى المنطقة الأخرى ، وذلك الوصول إلى نوع من التوازن الثقافى . وهذه العملية الأخيرة تحدث تدريجياً فى العادة بعكس النوع الأول ، وهى تحدث أحياناً بحكم الضرورة الملحة ، فمثلا : « إن كان لدى جارك أسلحة حديدية ، فخير لك أن تهجر أسلحتك البرونزية إن أردت أن تظل نداً له » . وغالباً ما تدفع الحاجة إلى تحسين الوسيلة التى تحققها ، ومرد ذلك إلى نوع من التنافس ومع ذلك فإن عملية تكميل القديم بالحديث قد تكون بطيئة ، كما يلاحظ ذلك كل من

يسير فى طرق آسيا فى الوقت الحاضر .

ومثال انتشار البرونز من الأمثلة الرائعة لانتقال الثقافة عن طريق التأثير ، فمن المعروف أن البرونز كان مستعملا فى صناعة الحلى فى الشرق الأدنى فى نحو ٣٠٠٠ ق.م. وخلال الألف الثالثة قبل الميلاد كان يستخدم فى صناعة الآلات والأدوات على نطاق أوسع ، إذ كان قد حل مكان النحاس. وأصبح البرونز فى نحو ٢٠٠٠ ق . م . جزءاً هاماً للغاية فى اقتصاديات مناطق عديدة بغرب آسيا . وحين نفكر فى أن مصنوعات آن-يانج ، البرونزية كلها متأخرة عن عصر «شانج» أى بعد سنة ١٤٠٠ ق.م. وأنه إلى ذلك الوقت لا توجد إلا دلائل قليلة إن لم تكن منعدمة ، على قيام صناعة برونزية محلية سابقة بالصين ، فإنا يجب أن نفكر بالضرورة فى احتمال تلقى الصين لنفس البواعث لصناعة البرونز التى كان يتلقاها سكان أوربا وإفريقيا (مصر سنة ٢٠٠٠ ق.م وبريطانيا سنة ١٥٠٠ ق.م) . ويؤيد وضع الترتيب الزمنى على الأقل هذا الاعتبار .

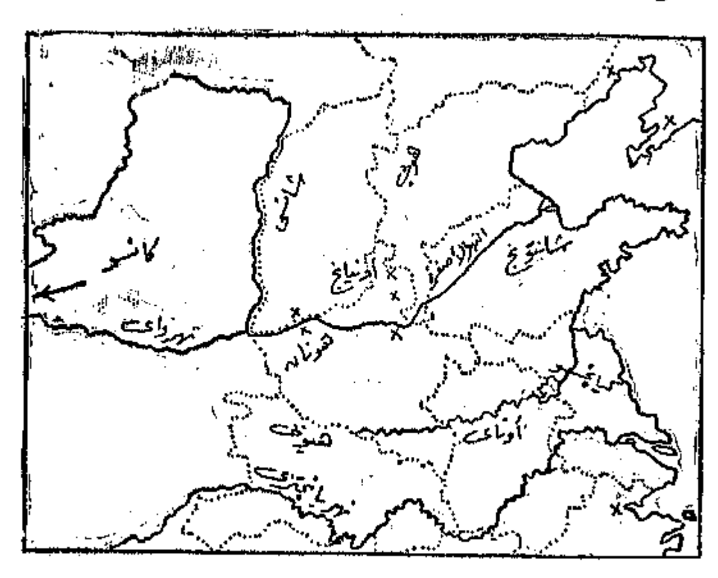
ولكن كيف نفسر هذا الشكل المتقن والزخارف التى تمتاز بها مصنوعات شانج البرونزية ؟ لا شك أن هذه السمات دخيلة على غرب آسيا . ونجد الإجابة عن ذلك أيضاً فى طبيعة العملية الثقافية ، فإذا كان الناس يصنعون أوعيتهم من الخشب فإنهم لا يعزفون عن استخدام « الأوعية » كلية عند ما تظهر الأوعية الفخارية ، لأنهم بدلا من ذلك يتحولون من الخشب إلى الفخار و يستمرون فى صنع الأوعية . وبالمثل إذا كان لدى الصينيين مجموعات من الأوانى المتقنة الزخرفة المصنوعة من الخشب ، فإنهم لا ينبذون على الأرجح صنع الأوانى المزخرفة لمجرد إمكان صنعها من البرونز بل يرغبون غالبا فى التحول من الأوانى الخشبية إلى الأوانى البرونزية لأنها أكثر تحملا . ويغلب على الظن أيضاً أن هذا التحول لم يحدث دون كفاح ضد المحافظين التقليديين . ونتيجة لذلك يظهر أن إتقان أعمالهم البرونزية قد احتاج إلى نمو محلى طويل الأمد . والتفسير الحقيقى هو أن « الفكرة » وربما بعض «الطرق الفنية» التى كانت متبعة فى الصناعات البرونزية البسيطة فى أماكن مثل قرى إيران أو تركستان فيما قبل العصر التاريخى قد وصلت إلى الصين ، ويغلب على الظن أن يكون ذلك

نتيجة مقابلات جرت عفواً فى غرب الصين أو آسيا الوسطى ثم انتشرت شرقا على شكل أسلحة بسيطة وأدوات . وقد وجدت بالصين — وفقا لبعض المراجع — صناعة حفر الخشب الدقيقة قبل عصر البرونز ، أما الخصائص الصينية المميزة فى المصنوعات البرونزية فهى على الأرجح مستمدة من النماذج الخشبية الأصلية ، فيكون لدينا حينئذ مكمل للأسلوب المحلى من الصنعة الأجنبية فى إنتاج مصنوعات ممتازة مثل مصنوعات آن ـ يانج البرونزية . وهناك أمثلة عديدة على هذا النوع من الانتشار والتكامل وهى تمثل السير الطبيعى للعملية الثقافية .

ويحسن فى هذه الناحية ملاحظة مظهرين للتغير الثقافى : الأول ويمكن أن نطلق عليه المظهر الأولى ، وهو رسوخ فكرة استخدام البرونز والزراعة وتربية الماشية ، واستخدام الحجر فى صنع الأدوات . ومن ثم يكون المظهر الأولى هو « الدافع » الأساسى للحاجة إلى التغير ، أما المظهر الثانى فيمثل « الشكل » الذى يوضع فيه المظهر الأول . ومثال ذلك الفرق بين مصنوعات « آن ـ يانج » البرونزية فى الصين والمصنوعات البرونزية القديمة فى بلاد اليونان ، فهذا الشكل فى الحقيقة هو التعبير الثقافى لمميزات الثقافة كما اشتقت من أصولها القديمة . وواضح أن هناك اختلافات كبيرة محتملة فى مثل هذه الظروف ، فكل ثقافة لها القدرة على تكييف العامل المؤثر فى سمة من سماتها وفقا لشروطها .

وحين يدرس الإنسان مواد الصين القديمة يتزايد اعتقاده باطراد أن أساس تلك الحضارة كان متعدد الأصول (أى ساهمت فيه شعوب متعددة اللهجات) ، الأمر الذى يرجع الفضل فيه إلى المناطق المحيطة به . فإذا ما وصل المرء إلى هذا الاعتقاد فإنه ليتساءل عن حقيقة الموطن الأصلى للصينيين ، لأنه بالرغم من اعتبار سهل النهر الأصفر الأدنى (المشتمل على مقاطعات : شنسى وشانسى وهوپى ، وكيانجسى ، وشانتونج ، وهونان) موطنا أصيلا لهم من الناحيتين العرقية والتاريخية ، فإن هناك دلائل على وجود مراكز ثقافية أخرى قد تضارعها أهمية فى أزمان قديمة سابقة . ويوجد أحد هذه المراكز فى غرب الصين فى بعض أودية النهر بمقاطعة « كنسو » ، حيث وجدت مجموعة ثقافية

متقنة ، كما توجد أدلة كافية على أن حوض سشوان فى الجنوب الغربى ، كان ذا تقدم ثقافى كبير فى الأزمنة البعيدة .



شكل ٧ ـــ خريطة الصين الشمالية
موضح عليها موقع المراكز الثقافية فيما قبل التاريخ

(١) مراكز كنسو (٢) شانسى (٣) هوبى (٤) شانتونج (٥) آنياغ (٦) هونان
(٧) النهر الأصفر (٨) كيانجسو (٩) أنهوى (١٠) هيوپى (١١) يانجتزى (١٢) نهر وى

أما الكشوف التى أجريت على سواحل الصين فهى من القلة بحيث لا تجيز لنا افتراض وجود حضارات قديمة يمكن العثور عليها هنالك ، ومع ذلك فهناك أدلة عن الممر الذى يصل جنوب شرقى آسيا باليابان ، وهى أدلة معقدة السمات وترجع إلى عهد سحيق . كما أن ثقافات ساحل الصين ربما كانت حافزاً على هذا الانتشار ، وحتى بالنسبة لأوائل العصر التاريخى فى الصين نجد لدينا دليلا كافياً على تعدد الدويلات التى كان كثير منها خارج حدود حوض النهر الأصفر ولم تحجب دعاوة « شانج » أو « شو » تماماً ما قامت به هذه الدويلات من أعمال . ويبدو أنه من الضرورى تناول الصين تناولا أوسع أفقاً ، وذلك أنه إذا كان علم الآثار يدلل على أن السهول والوديان الخصيبة فى غربى الصين وجنوبها كان نتاجهما الثقافى فى العهد القديم

يضارع نتاج حوض النهر الأصفر ، فإنا بذلك نكون قد أفلحنا فى تضييق الثغرة الجغرافية القائمة بين الشرق والغرب ، ومن ثم يمكن أن نقتفى أثر انتشار السمات الثقافية فى اتجاهين ، كما يمكن أن نفصل نصيب كل منطقة من المناطق المحلية فى هذه الرقعة الفسيحة من الأرض أى فى الصين الحديثة .

لقد كتبت ما ذكرته آنفاً لأن كثيراً من الكتاب يعلقون أهمية كبرى على نمو الحضارات الراقية فى خطوط متوازية فى وقت واحد وذلك فى الوديان الفسيحة ، كوادى النيل ، ودجلة والفرات ، والسند ، وهوانج هو حتى كاد هذا الأمر أن يحجب التقدم الثقافى الذى حققه إقليم غربى آسيا الشرق إذ من الضرورى فهم ذلك قبل أن نتمكن من إدراك أصول الحضارة الأولى للصين .

لقد حدث منذ الحرب العالمية الثانية تقدمان عظيمان ، هما : تجميع مواد ما قبل التاريخ الخاصة بغرب آسيا ، ثم تحديد مكان هذه المواد من حيث الترتيب الزمنى . وكان التقدم الأول نتيجة للتوافق المتزايد بين ميدان التنقيب الأثرى الذى يهدف إلى استخلاص الدليل المادى لأصول الحضارة فى الشرق الأدنى ، وبين تطبيق الوسائل الأنثربولوجية (البشرية) المستخدمة فى تحديد مجرى التاريخ الثقافى أما التقدم الآخر فهو نتيجة لتزايد الدراسات التى أجراها علماء الطبيعة على المواد غير الثقافية التى وجدت مع مخلفات المصنوعات اليدوية . ويعد ابتكار طريقة الكربون المشع [١] (ك ١٤) فى تقدير الزمن الماضى ذا أهمية عظمى فى هذه الناحية بوجه خاص .

---

(١) طريقة الكربون المشع لتقدير عمر المخلفات الأثرية ابتكرها العالم الطبيعى الأمريكى ويلارد ليبى W.Libby بعد الحرب العالمية الثانية . وتتلخص فى أن الكائنات الحية كالنبات والحيوان تحتوى أجسامها على قدر معين من الكربون المشع الذى يرمز إليه برمز (ك ١٤) الذى يوجد مختلطا مع ثانى أكسيد الكربون المنتشر فى الجو نتيجة لفعل الأشعة الكونية فى طبقات الجو العليا ثم تمتصه الكائنات الحية فى أجسامها فى أثناء الحياة . وعند موت الكائن الحى تبدأ ذرات الكربون المشع المتراكمة فى خلاياه فى فقدان نشاطها الإشعاعى ببطء شديد ولكن بسرعة منتظمة . وتفقد ذرة الكربون المشع نصف إشعاعها فى نحو ٥٠٠٠ سنة . =

ويغلب على الظن أن أهم المستكشفات هى التى توصل إليها ر . ج بريدوود فى جارما بتلال الكرد بالعراق ، وهى تنتمى على الأرجح إلى عصر الانتقال من حالة جمع الطعام إلى حالة إنتاج الطعام . وكذلك مجموعة كاثلين كنيون الرائعة لآثار قرية كاملة النمو وجدت فى الطبقات الأرضية السفلى فى جريكو ، ولعلها ترجع إلى الألف السابعة قبل الميلاد . ومستكشفات « س . كون » فى كهوف « بلت » و « هوتو » بشمال العراق ، وهى ترجع إلى أدوار الانتقال فى العصر الحجرى المتوسط والعصر الحجرى الحديث ، وكذلك ازدياد المعرفة بمعنى التجمعات القروية القديمة لإنتاج الطعام التى وجدت فى مصر (الفيوم) وفلسطين (جريكو ١٧ — ٩) وسيليشيا السورية (أموق ومرسين) ، والعراق (كرميشهر وجارمو ، وماليفات ، وحسونة ، وطبقات حلف عبيد) وإيران (سيالك ١) وغرب باكستان (كيلى جول محمد ١) .

ويبدو أن الدليل الذى تقدمه هذه الأماكن يشير إلى أنه فى نهاية العصر الجليدى (بعد سنة ١٠٠٠٠ ق . م) حين كانت منحدرات التلال المحيطة بالهلال الخصيب تتلقى فى الغالب قدراً من الرطوبة أوفر منه فى الوقت الحاضر ، كان الناس الشبيهون بسكان حوض البحر المتوسط يسكنون الكهوف أو المغاور الصخرية ، ويربون شتى ضروب الحيوان بما فى ذلك الأسلاف البرية للخنزير والغنم والماعز والماشية ، وربما كان الكلب يستأنس أيضا فى ذلك الدور . كما كانت تنمو الحنطة البرية والشعير وكانت

= وبعد خمسة آلاف سنة أخرى تفقد الذرة نفسها نصف ما بقى فيها من إشعاع وهكذا حتى إنه بعد نحو ٢٥ ألف سنة لا يكاد يوجد إشعاع يذكر فى ذلك الكربون . وعلى ذلك فمن الممكن قياس العمر فى مدى الخمسة والعشرين ألف سنة الماضية من تاريخ الإنسان . وأحسن المواد الأثرية التى يمكن اختبار الزمن فيها هى قطع الأخشاب القديمة ، مثل بقايا مواقد النار التى تركها الإنسان القديم ، وقطع الخشب من توابيت الموتى أو من مراكب الشمس عند قدماء المصريين وما إلى ذلك .

وبهذه الطريقة تمكن ليبى Libby من تأريخ حضارة الأسرة الأولى المصرية وحضارة المايا والأزتك فى أمريكا الوسطى ، والإنكا فى أمريكا الجنوبية . كما تمكن من تحديد زمن الإنسان الأول الذى استوطن أمريكا الشمالية فى أعقاب العصر الجليدى الأخير وهكذا. (المراجع)

الأدوات العظمية والأدوات الدقيقة المصنوعة من شظايا الصوان وبعض الأحجار المنحوتة تكون قائمة أدواتهم (كما فى ناتوفيان بفلسطين).

ولقد حدث انتقال فى وقت ما، ويرجح أنه حدث بعد سنة ٨٠٠٠ ق.م، جعل الناس يخرجون من الكهوف إلى الأماكن المكشوفة أو «القرى البدائية» «الأولى» التى كانت تنشأ على الأرجح بالقرب من موارد المياه كالينابيع الطبيعية والآبار. كما يغلب على الظن أن أقدم أنواع الزراعة واستئناس الماشية قد بدأ فى هذا العهد. وفى سنة ٤٠٠٠ ق.م انتشرت من مصر إلى إيران صناعات النسيج والفخار والطوب النى (اللبن) والأسوار الطينية، والبناء بأغصان الشجر والطين، والاستئناس الكامل للأغنام والماعز والماشية والخنازير، وزراعة حبوب القمح؛ وربما زراعة بعض الخضروات. كما انتشرت أيضا المعتقدات الدينية وعبادة الأصنام وطقوس الدفن بثنى الجثة وصناعة السلال، وحياة القرية الكاملة النمو. ومنذ ذلك العهد تبدأ قصة النمو الاقتصادى للقرية وإحكام الطقوس الدينية وازدياد التخصص حتى سنة ٣٠٠٠ ق.م حين ظهرت الحضارة نتيجة لنمو المدن تحت حكم ملوك من الكهنة وازدياد نفوذ الحكومة الدينية وتكون المجتمع والكتابة وزيادة الميل إلى التجارة، وإقامة النصب التذكارية وغيرها.

ونبدأ العصر التاريخى بعد سنة ٣٠٠٠ ق.م الذى يتمثل عادة فى قيام أسرات الملوك الكهنة فى العراق والدولة القديمة والدولة الوسطى فى مصر الفرعونية. وفى سنة ٢٠٠٠ ق.م كانت حضارة العراق قد انتشرت نحو الشرق إلى وادى السند حيث خلفت فيما يبدو الدور القروى البحت الذى كان قد وصل إلى بلوخستان ونهر السند قبل ذلك بنحو ١٥٠٠ سنة فيما يظن. أما فى شرق نهر السند فلم يكشف عن شىء إلى الآن مشابه لهذا الدور القروى المبكر بالرغم من تصور وجود مراكز زراعية مناسبة بمنطقة نهر الكنج ومناطق أخرى بشبه جزيرة الهند، ومع ذلك فهناك عصر حجرى وسيط ظاهر، كما أن الكشوف المستمرة للفئوس الحجرية من الشظايا المنحوتة فى جنوب الهند تدل على وجود طور انتقالى بين العصر الحجرى الوسيط والعصر

الحجرى الحديث ستحدده الكشوف فى المستقبل . وتوجد أيضاً أنماط من الفئوس الحجرية المنحوتة والمصقولة فى جنوب شرق آسيا ، وتمتد منها إلى داخل الصين ، بل وجدت أيضا فى سيبريا . وقد حقق « تشنج تى — كون » أربعة أدوار فى سشوان ووادى ينجتسى تحقيقاً مبدئيا على أساس أنماط هذه الأدوات وذلك كالآتى : —

الدور الأول : أدوات حجرية منحوته مع أدوات باقية منذ العصر الحجرى القديم على الأرجح .

الدور الثانى : إضافات من شظايا الحجر المصقول .

الدور الثالث : أحجار للنحت والصقل والنقر .

الدور الرابع : « صناعة نحت كاملة » — ظهور الفخار .

أما أصل هذه الأنواع من الأدوات فغير معروف على وجه التأكيد ، ولكن لم يظهر أنها مقتبسة من غربى آسيا ، ويمكن أن تكون هذه الأدوات محلية النشأة فى منطقة جنوب شرق آسيا ثم انتقلت من هناك إلى الهند وشمال الصين . وهناك بطبيعة الحال احتمال كبير جداًفى أن صناعة صقل الأدوات الحجرية القاطعةمقتبسة من الأنماط الأولى المصنوعة فى أوائل العصر الحجرى الحديث فى الشرق الأدنى ، وأن هذه الأنماط كانت ضربا من العوامل المساعدة لحفز انتشار صناعة الأحجار المصقولة اليدوية إلى الشرق حيث اتخذت أشكالا محلية هناك .

وقد أشار « ورمان » إلى هذا الاحتمال حين لاحظ أن أكثر أنواع الآلات الهندية القاطعة خشونة (ويحتمل أنها أقدمها) هى أكثرها شبهاً بالآلات القاطعة التى وجدت بغربى آسيا . ويظهر أن طراز الأحجار القاطعة المصقولة ليس قديماً جداً فى الهند كما يبدو .

ويبدو أن الدليل المستمد من جنوب شرق آسيا ، كما سنبين فيما بعد ، يوضح أن هذه المنطقة كانت مركزاً ثقافياً قوياً تلقى مؤثرات من الهند والصين ، كما أثر فيهما بدوره . ويظهر أيضاً أن هذا المركز لم يكن واقعاً مباشرة فى مسار الخط الحضارى

الممتد من غرب آسيا . ومن الواضح أن هذا المركز قد قدّم لثقافات المناطق المجاورة عدة مساهمات جوهرية ، ولكن الصورة الأركيولوجية لم تتضح وضوحاً كافياً بحيث تهيء لنا بعد معرفة تفاصيل كثيرة عن نوع هذه المعاونات المبكرة وتاريخها . ويكفى أن نلاحظ فى الوقت الحاضر أن طابع منطقة جنوب شرقى آسيا اتخذ فى سيره اتجاهين عامين بالنسبة للصين أحدهما بالداخل إلى جنوب الصين وغربها ، ويحتمل أن يكون قد وصل إلى وادى نهر يانجتسى ، أما الثانى فكان على امتداد ساحل الصين ، ويحتمل أن يكون مسيره عن طريق البر والبحر حتى شمال منشوريا واليابان .

أما المصنوعات الحجرية الدقيقة بشمال الصين التى تمثل امتداد العصر الحجرى الأوربى الوسيط عبر أوراسيا فتوجد فى منغوليا ومنشوريا وسنكيانج وإقليم أردوس . وقد عاشت هذه الصناعة أمداً طويلا فى آسيا الوسطى ، وهى تظهر أخيراً مصحوبة بالأوانى الفخارية المزخرفة بخطوط متصالبة أو على شكل الحبل أو الضفيرة (١) وانتشرت فى مساحات واسعة بآسيا الوسطى الشمالية . ويظهر أن هذه الأنواع الفخارية تطابق تماماً أوانى شمال أوراسيا ، إذ أنها توجد على امتداد الطريق إلى اسكنديناڤيا. وهى تمتد أيضاً إلى العالم الجديد حيث أمكن الكشف عنها جنوبا فى السهول الشمالية العظمى بالولايات المتحدة . وتمثل هذه المجموعة المتناثرة من السمات الثقافية نوعا من الاقتصاد مبنيا على حرفة الصيد وجمع الطعام مع زراعة محدودة فى بعض الأحيان يشتمل على الزراعة . أما فيما يتصل بتقويم الشرق الأدنى الحضارى فإن طراز الفخار ذى الزخارف الحصيرية والضفيرية ، فمن المرجح جداً أنه جاء بعد سنة ٣٠٠٠ ق . م .

ومن المرجح جداً أن خصائص آسيا الشمالية وآسيا الجنوبية الشرقية طرأت على المسرح الصينى فى وقت متأخر أى بعد سنة ٣٠٠٠ ق . م . وتدل الحقائق التى جمعت

(١) سنعبر عن Mat - marked بالزخرف الحصيرى نسبة إلى الحصير ومن Cord - marked بالزخرف الضفيرى نسبة إلى الضفيرة أو الحبل المجدول . (المترجم)

من شرقى آسيا على أن أقدم الفلاحين ربما ظهروا فى بلوخستان فى وقت سابق على سنة ٣٠٠٠ ق.م. ويمكن اتخاذ هذا التاريخ لتفسير حركة من حركات إحدى الثقافات القروية الزراعية نحو الشرق إبان الألف الرابعة قبل الميلاد. أما فى الشمال، أى شمال إيران، فإن ثقافات الفخار الملون التى تتمثل فى مراكز مثل « تيبى هيسار » وآنو (بالتركستان الروسية) فربما كانت قد وصلت إلى تلك المنطقة مبكرة فى سنة ٣٥٠٠ ق. م. والبرهان الذى نستمده من الهضبة الإيرانية يوضح لنا توزيعاً ظاهراً للقرى الزراعية حول الصحارى وبالقرب من منحدرات الجبال حيث التربة الخصبة ومنابع الماء كلها تتعاون على توفير اقتصاد ريفى مناسب. ولم تكن القرى عظيمة الاتساع إذ لم يزد فى الغالب عدد سكانها على عشرات قلائل من الأسرات. وكان السكان يزاولون تربية الحيوان وخاصة الماعز والأغنام، وعرفوا النسج وأختام الطبع، وشيدوا المساكن من اللبن أو الطين، وكان لديهم أصنام من الطمى لأشخاص أو حيوانات، وعقود من العظم والحجر، وأساور من الصلصال. واستخدموا النحاس فى صناعة الحلى والدبابيس والأسلحة. وكانت جثث موتاهم توضع مثنية ويحيطونها بأشياء مما يستخدم فى حياتهم اليومية، من بينها الأوانى الخزفية المزخرفة باللون الأسود على رقعة صفراء أو حمراء. أما زراعة القمح والشعير والدخن والذرة فقد سبقت الإشارة إليها.

ولقد فشلت البحوث الأثرية فى تركستان الروسية إلى حد كبير فى الكشف عن بقايا هؤلاء الفلاحين فى شرق مركز آنو. ومع ذلك فقد كشفت أخيراً أطوار جديدة مثل « نامازجا تيبى » (Namazga Tepe) ونحن نشك قليلا فى إمكان القيام بمقارنة هذه الأطوار المبكرة لأن الروس يضخمون من قيمة البحوث التى يجرونها فى الجيوب الخصيبة الموجودة على امتداد الحدود الشمالية لجبال ألطاى وسلاسل جبال البامير.

وبناء على الأدلة التى كشفت عنها دراسات المناطق الملاصقة للأقاليم الصينية

بشرق آسيا يتضح وجود مؤثرات ثقافية انتشرت من ثلاث جهات . وأقدم هذه المؤثرات فيما يرجح هي مؤثرات غربي آسيا ويغلب على الظن أنها ذات ثلاث شعب

(١) زراعة مبكرة جداً اقترنت بالأدوات المصنوعة من العظام والحجر . ويغلب وجود الماعز والضأن (وربما الخنزير) مع عدم وجود الفخار .

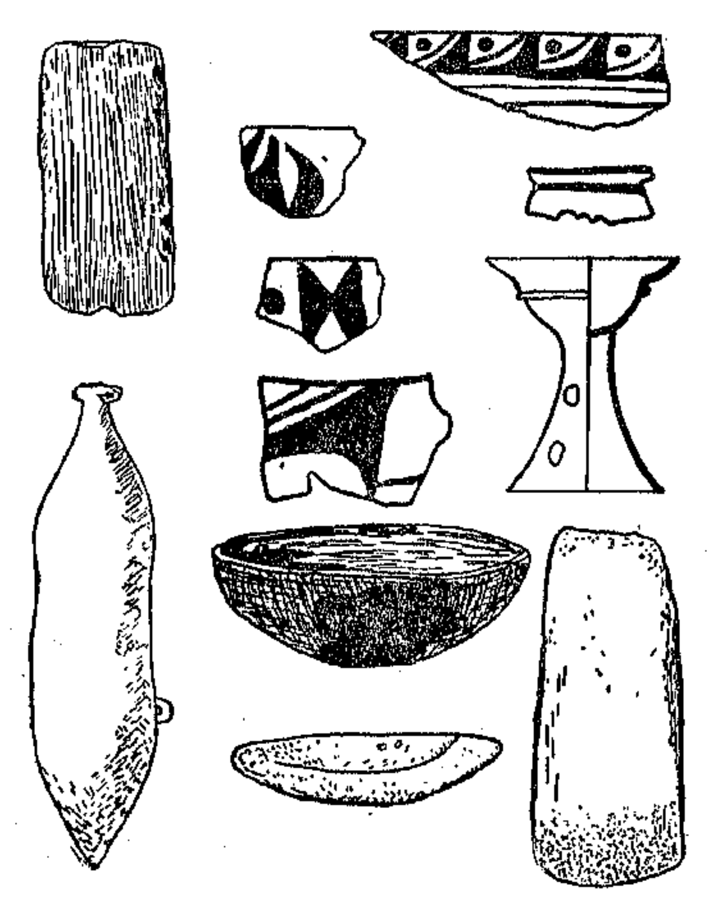
(٢) القرى القديمة وبها صناعة الفخار اليدوى ، ثم ظهور الخزف الملون متأخراً ، وتماثيل العبادة والنحاس وقوالب الطوب وتربية الحيوان (بما فى ذلك الماشية) ، ووسائل متقدمة فى زراعة حبوب الحنطة .

(٣) القرى المتأخرة التى كانت صورة متقنة للقرى السابقة ، وكان ذلك مع بداية عصر البرونز ، كما تقدمت صناعة الفخار المزخرف . وربما كانت العلامات التى يضعها الخزّاف من الرموز الدالة على الملكية المشتركة فى المجتمع ، هذا إلى وجود نوع من التخصص فى البناء ، وخاصة ما يتسم منها بصفة التقديس (كإنشاء المصاطب والحواجز الجدارية) . وهناك مؤثر جاء من شرق آسيا ربما كان يتضمن قائمة من الأدوات الحجرية المصقولة والمنقورة والمتخذة من الشظايا ، هذا إلى استئناس حيوانات أخرى مثل جاموس البحر ، واستخدام أنواع من المحصولات كالأرز وربما طريقة صنع الحرير ، وهذه الأخيرة جاءت فى الغالب متأخرة كثيراً من حيث الزمن (بعد سنة ١٢٠٠ ق . م) .

أما المؤثر الثالث فهو من الشمال ، ويشمل الخزف الحصيرى والسكين الهلالية الشكل ، والملابس المحاكة ، وربما وجدت عناصر زخرفية منحوتة فى الخشب . ومن المرجح جداً قدوم أمداد مستمرة من الشعوب المغولية لتزيد من عدد السكان المحليين .

ومن المحتمل وجود مؤثر رابع ذكرناه فى فصل آخر بوصفه تمهيداً محتملا للعصر الحجرى القديم . ويتضمن هذا المؤثر بناء بيوت نصفها غائر تحت سطح الأرض . (وقد شاع أيضاً فيما بعد بشمال آسيا) وأسلحة الصيد ووسائله ، والدفن فى المغرة

الحمراء ، والشارة الرمزية للأسرة ، والأسلحة المنحوتة من الشظايا وهى مقتبسة من الساطور القديم فى شرق آسيا .



شكل ٨ — أدوات من حضارة يانج — شاو (هونان)

وفى سنة ١٩٢١ اكتشف ج . ج أندرسن الچيولوچى السويدى ــ الذى أدى فهمه إلى معرفة ما فى تشوكوتين من احتمالات العثور على إنسان بكين ــ اكتشف هذا الچيولوچى مكان قرية من قرى ما قبل التاريخ لا تبعد عن قرية (يانج شاو) الحديثة . ويقع هذا المكان جنوب النهر الأصفر مباشرة بإقليم هونان . وواضح أنه كان فى الزمن القديم عامراً بعدد وافر من السكان لأن مساحة هذه المنطقة الرسوبية

تبلغ نحو ٢٤٣ ألف متر مربع ، ومتوسط عمق هذا الموقع نحو ثلاثة أمتار وربما كانت أعمق من ذلك . ما دامت عوامل التعرية وأثر الزراعة على السطح فى هذا المكان وجدت على نطاق واسع . وقد وجدت المادة الثقافية بين طبقات « اللويس » التى شرحتها التعرية المائية حتى أصبح الشطر الأكبر من المكان معزولا بواسطة أخدودين عظيمين على جانبيه . وقد كشفت قطوع التعرية عن البقايا ، إما مرتكزة فوق الصلصال الأحمر ، وإما غائرة فى الطفل الذى يكون الطبقة القاعية للويس .

وأهم مااستلفت نظر أندرسن فى هذه الحفريات وجود رسم دقيق أسود على خزف أحمر ، وقد لون هذا الخزف بألوان لطيفة فتحولت الخطوط المنحنية فيه رسوماً هندسية بسيطة . وقد وجد فوق ذلك خزف مزخرف بزخارف ضفيرية وحصيرية ، بعضه من الخزف الأسود ، بل الأسود اللامع الجميل ، أو من الخزف الرمادى أجمل أشكاله ما يشبه الكئوس ذات القاعدة أو أطباق الفاكهة . ووجدت بين هذه الأوانى ذات الزخارف الضفيرية الآنية الغليظة ذات القوائم الثلاث التى كانت تستخدم فى الطهو أو تخزين الطعام ويطلق عليها اسم « لى » الثلاثية القوائم . وكذلك الكأس ذات القوائم الثلاث التى يظن أنها من النوع البدائى للشكل الذى يطلق عليه الصينيون لفظ « تنج » . والحليات الزخرفية شائعة فى مجموعات الخزف ، ومن بينها الحليات ذات الأربطة الأفقية الشبيهة بالحبل ، والمقابض البارزة الشبيهة بالأصابع . وكانت الأوانى ذات القواعد المدببة شائعة أيضاً . كما وجدت كذلك المقابض المستديرة بوفرة تدعو إلى الدهش بالنسبة لثقافة تعد سابقة على العصر التاريخى . وبعض هذه الأوانى لا شك مصنوع آلياً على عجلة الفخار .

ووجد بين هذه الأدوات فئوس حجرية قطاعاتها مربعة الأضلاع مصقولة ، ومعازق ومطارق وخواتم وأساور « وعقود » مصنوعة من الحجر الصلب ، كما وجدت كل من السكاكين الهلالية الشكل والرباعية الأضلاع . وكان سن الرمح والسهم وأحياناً الكرة الحجرية تكمل قائمة هذه الأدوات الحجرية .

ووجدت مبسطة[١] من العظم (يحتمل أنها كانت تستخدم فى النسيج) وإبر وخواتم وأساور وبعض حراب عظمية مدببة. وكانت أصداف الأسماك البحرية تستخدم بدلا من السكاكين، أما أصداف اللؤلؤ فكانت تستعمل للزينة.

ووجدت الجثث بالأماكن القريبة مدفونة فى وضع مستقيم، وعثر على عظام خنازير وكلاب وضأن وماعز مع وفرة فى النوعين الأخيرين. وفحصت حبوب الأرز غير البرى فأثبت الفحص وجود هذه السلعة الثمينة. ووجدت كذلك أصداف بعض أسماك المياه العذبة.

وفحصت بقايا الأبنية فحصاً سطحياً. والأبنية الوحيدة التى وجدت كانت أغواراً مخروطية الشكل محفورة فى الصلصال الأحمر يبلغ عمقها متراً أو ما يقرب من ذلك، وهى ضيقة عند المدخل، تتسع فى القاع إلى ثلاثة أمتار، وربما كانت أرضها مدكوكة. ولم يعرف الغرض من إنشاء هذه الأغوار. وهناك من يرى أنها كانت تستخدم للتخزين، بينما يرى آخرون أنها كانت أساسات مساكن[٢].

واكتشف موقع قرية أخرى لا تبعد كثيراً عن «يانج شاو» ذات طراز أكثر بدائية، ويطلق على هذا الموقع «بوتشاو وتشاى» وهو هام للغاية إذ يبدو أنه يحتوى على معظم المواد الثقافية الموجودة فى يانج شاو «ما عدا» الخزف الملون، كما وجد به

(١) آلة شبيهة بالسكين مستديرة الطرف يبسط بها الصيدلى المواد الرخوة.

(٢) يذيع علماء الآثار بالصين الحمراء منذ سنة ١٩٤٩ أنهم اكتشفوا عدة مئات من مراكز العصر الحجرى الحديث، ومنها المراكز الشبيهة بمراكز يانج — شاو. وإحدى هذه القرى، وهى قرية «پان پو» الواقعة فى شنسى، تبلغ مساحتها فدانين ونصف فدان. وقد وجدت فيها أبنية دائرية وأخرى مربعة، والأخيرة كان نصفها غائراً تحت الأرض. وفى وسط كل غرفة عمود ضخم يسند بناءها. ويرجح أن تكون المساكن الدائرية الشكل أقدم من الرباعية. ومع ذلك فهناك دلائل على أن بعضها متعاصرة. وللمنازل الدائرية أفران كمثرية الشكل تقع فى وسطها ويحيط بها قوائم خشبية يبدو أنها كانت دعامات السقف. ووجدت المخازن بجوار معظم البيوت. كما كان الأطفال فيما يظهر يدفنون فى أوان جنائزية تحت أرض المنزل (انظر كتاب هسيا ناى: أسلافنا أهل العصر الحجرى الحديث — مجلة الآثار، مجلد ١٠ رقم ٣، خريف سنة ١٩٥٧، ص ١٨١ — ١٨٧).

تمثال من الطين لأحد الذكور وآخر لطير من الطيور . ووجدت شفرة منجل من الحجر ، وهى ذات أهمية خاصة كما وجد حجران لشحذ الأحجار وتهذيبها . (لا بد أنها وجدت أيضاً فى يانج شاو ولكنها لم تذكر فى قائمة موجودات هذا المركز).

ويوجد فى شرق هذه المنطقة بناحية « هو ـ ين » عدة مراكز زارها منقبو بعثة أندرسن الصينيون ، وجمعوا منها عينات كثيرة (وهذه المراكز هى : تشيه كوتشى ، نيوكو يو ، تشن وانج تشى) . ولا يعرف عن هذه المراكز شىء كثير ، اللهم إلا المصنوعات الحجرية المماثلة لمصنوعات يانج ـ شاو بما فى ذلك : الخزف الملون . وتحتوى مراكز « هو ـ ين » على كمية كبيرة من السلع الملونة بالأسود والأحمر فوق اللون الأبيض ، وهو ما لا يوجد إلا فى أماكن متباعدة فى « يانج ـ شاو » . وقد وجدت فى حفريات « آن ـ يانج » قطعة ملونة من هذه الأصناف .

وهناك مركز آخر غربى هونان بوادى نهر « فنج » وهو مركز « هسى ـ ين تسون » الذى أجرى فيه التنقيب الدكتور « لى تشى » وترجم تقريره أحد زملائه وهو الدكتور « سسو يونج ليانج » . وبالرغم من أن أعمال التنقيب فى هذا المركز كانت على نطاق واسع ، فيظهر أن مجموعة الحفريات التى وجدت فيه كانت أصغر من تلك التى وجدت فى حفريات « يانج شاو » . أما الخزف الملون فكان شبيهاً بما وجد فى « يانج شاو » كما أنه وجدت عدة أشياء (أساور محززة ، وأوان ذات قواعد مدببة) تكشف عن الأهمية الثقافية والزمنية لتشابه المركزين .

ويتضح أن طراز الخزف الملون ينتشر شمالا حيث يوجد فى طبقات اللويس الدنيا بكهف « شا كيوتون Shakuo Tùn » فى جنوب غربى منشوريا حيث وجدت قطع قليلة من هذا الخزف . ولقد اكتشف اليابانيون خزفاً ملوناً كبير الشبه بخزف « يانج ـ شاو » فى مراكز « هونج ـ شان هو » فى « چيهول » كما وجدت أوان ملونة من طراز مختلف كل الاختلاف فى مراكز « پى تزو وو » جنوب منشوريا .

وحصل ن. س. ناسون بوادى يانجتزى فى الجنوب على عدة قطع ملونة .

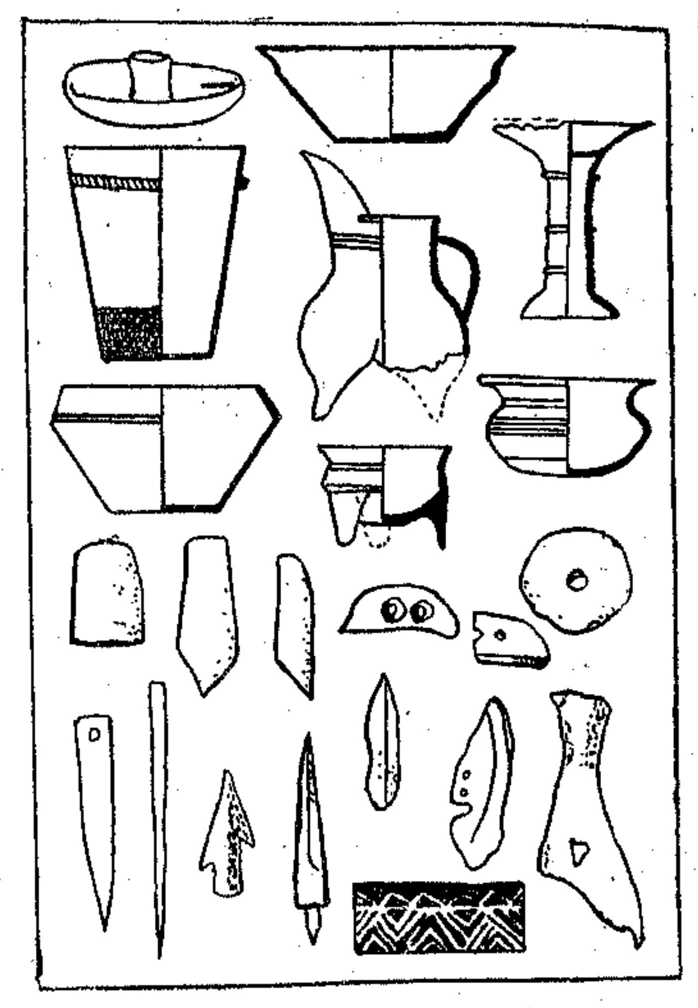
وبالرغم من هذه الأدلة على سعة انتشار الخزف الملون ، يبدو أنه مركز قبل كل شيء في غربي هونان . والواقع أنه يكاد يختفي من شرق هذه المنطقة ليظهر بدلا منه طراز آخر ، وهو ما يعرف « بثقافة الخزف الأسود » .

ويجب أن نمعن الملاحظة في التعبيرات العامة التي تطبق على ثقافة ما . وذلك على أساس سمة أو مميزة واحدة . لأن مثل هذه التعبيرات يمكن أن تكون مضللة ، فقولنا ثقافة « الخزف الأسود » مثال حسن لتسمية غير سليمة ، وإذن فعلينا قبل كل شيء أن نفهم المقصود من عبارة « الخزف الأسود » لأن هذا التعبير يعني وجود طرازين من الخزف .

وأول هذين الطرازين من الخزف هو هذا النوع من السلع العادية المصنوعة غالباً على الآلة أو عجلة الفخار ، ولونه أسود بسبب قلة الأوكسيجين في الفرن أو (القمين). ويوجد هذا النوع الرديء من السلع كثيراً لدى الشعوب صانعة الخزف في كل مكان . أما بالنسبة للصينيين فإن هذه السلعة تمتاز غالباً بزخارف ضفيرية أو حصيرية ، أما أشكالها فشبيهة بقطع «لي» الثلاثية القوائم والكئوس المفتوحة والأطباق وغيرها . وفي كثير من الأحيان تكون ذات مقابض أو حلقات بارزة ، وربما كانت بسيطة خالية من الزخارف ، وقد تكون رمادية أو بنية اللون .

أما النوع الثاني من السلع السوداء التي وجدت فهي أكثرها روعة ، ومنها آنية ذات قاعدة ، وطبق للفاكهة . كما وجدت أوان على شكل سلع ملونة باللون الرمادي أو باللون الأحمر ، وقد يوجد كل من نوعي « الخزف الأسود » في مراكز الخزف الملون في « هونان » . يضاف إلى ذلك أن مراكز الخزف الأسود لا ينقصها غير الأواني ذات القواعد المدببة والأساور المحززة ، والخزف الملون التي تميزها من مراكز الخزف الملون (١) .

(١) ربما كانت هذه الفروق نتيجة القصور في التنقيب بالمراكز الملائمة ، أو على الأقل بالنسبة للأواني ذات القواعد المدببة والأساور .



شكل ٩ — قطع من ثقافة الخزف الأسود
(عن لى اشى وآخرين)

ويفرق لورستون ورد ، بمتحف بيبودى بجامعة هارفارد كذلك بين الزخرف الحصيرى والضفيرى الذى يظهر فى (كل ـ) من مراكز الخزف باعتباره يمثل طرازاً ثالثاً ، وهو طراز الخزف الحصيرى والضفيرى الذى ينتمى إلى منطقتى سيبريا وآسيا الجنوبية الشرقية .

وتوجد مراكز الفخار الأسود فى المناطق الساحلية بالصين الشمالية ، وخاصة بإقليم سانتونج ، وتمتد جنوباً حتى خليج هانجتشاو جنوب شنغهاى مباشرة بإقليم تشكيانج.

وقد أجريت حفريات واسعة بمركز واحد فقط من هذه المراكز . و يقع مركز « تشينج-تزو-باى » بالقرب من قرية لونجشان غربى شانتونج فى منطقة اللويس قريباً من نهر صغير (دو-يوان) وتبرز من هذا النهر عدة مدرجات يقع هذا المركز على أحدها .

أما المركز نفسه ، فإن سكان الريف يطلقون عليه « تشينج-تزو-باى(١و٢) » ويعتبرونه أحد مدرجات النهر . وهو أكثر اتساعا من المدرجات الأخرى فى المناطق المجاورة . وسطحه مستطيل وحافتاه الغربية والجنوبية محددتان تماماً ، ويبلغ ارتفاعهما فوق مستوى الأرض نحو ثلاثة أمتار إلى خمسة ، ويبدوان عن بعد كأنهما سور مدينة . ومع ذلك فالجزء الشمالى منه عبارة عن منحدرات ، ولذا فإن الناظر إليه من جهة بنج-لنج لايراه واضحاً تماماً . أما الجزء الأوسط من سطح المركز فمجوف . فإذا وقف الشخص تحت السور الغربى وألقى نظرة على امتداد نفس المستوى حتى سطح المركز فإنه يستطيع أن يرى التجويف بوضوح ، وسطح الجزء الغربى أكثر الأسطح ارتفاعا ، يليه فى الارتفاع سطحا الجزءين الجنوبى والشمالى ؛ يليهما سطح الجزء الشرقى ، ثم سطح الجزء الشمالى الشرقى وهو أقلها ارتفاعا . أما بالنسبة لاتجاه جريان الماء فيه ، فهو يتجه أولا نحو الوسط ثم من الوسط إلى الشمال الشرقى بالقرب من الركن الشمالى الشرقى . وفى جنوب الطريق الرئيسى ساحة ضريح حديث ، وبالقرب من الركن الجنوبى الغربى خارج حدود المركز ساحة ضريح آخر . ويقع الركن الشرقى من المركز بالقرب من القسم الشمالى من شان تشينج-تشونج .

ويقطع الحافة الشمالية للمركز طريق يتجه إلى « تشانج – تشيو » Chang-Ch'iu ويكون هذا الطريق قطعاً واسعاً فى الجبهة الشرقية من المركز . وتظهر التربة الرمادية والمصنوعات الحجرية المنحوتة بجدارى المركز .

وقد عين المنقبون مستويين ثقافيين : الطبقة الدنيا ، وهى تتعلق بطراز « الخزف الأسود » ، والطبقة العليا التى سبق أن ذكرنا أن بها البرونز والكتابة التصويرية ، كما أن الخزف المصنوع على العجلة يعد من معالمها الأساسية . ويبدو أن بقايا

المصنوعات اليدوية التي بها مطابقة تماماً لمصنوعات الطبقة الدنيا .

ومن أهم المعالم ، ذلك الجدار الطيني المسدود الذى يحيط بالمركز ، ومتوسط عرضه تسعة أمتار . ومن المرجح أن ارتفاعه كان يبلغ ستة أمتار ، وأن قمته كانت مستوية فيما يظن . ولقد وجد الخزف الأسود تحت الجدار وفى صميم بنائه مما يدل على معاصرته لتلك الخاصية الثقافية ، وبذلك ينتمى إلى الطبقة الدنيا . ويدور هذا الجدار حول مساحة يبلغ طولها ٤٥٠ متراً وعرضها نحو ٣٩٠ متراً ، وهى مستطيلة الشكل تقريبا ، وهى تعد قرية بالغة الاتساع إذا ما قورنت بكثير من قرى غربى آسيا التى لا يزيد مسطح الواحدة منها فى الغالب على مائة متر مربع .

وعلى الرغم من الشك فى وجود أية محصولات زراعية حتى الآن (من العسير العثور على بقايا حبوب أو خضروات بين المواد الأركيولوجية) ، فإنه من المؤكد أن هذا المجتمع كان زراعيا .وقد أمكن الاستدلال على وجه التحقيق على البقايا الحيوانية ، كبقايا الخنازير والأغنام والماعز والماشية والكلاب والخيول ، وكانت غالبا مستأنسة كلها . أما الخنازير والكلاب (وكانت هذه الأخيرة تؤكل على الأرجح) فوجد أنها تكون الأغلبية العظمى . ووجود عظام الغزلان يدل على استمرار القنص ، كما أن الأسماك الصدفية كانت جزءاً من غذائهم .

وقد اشتمل الخزف على الأوانى ذات الزخارف الضفيرية والحصيرية والسلع الملونة باللون الأسود فوق اللون الرمادى ، بل اشتمل على خايط من الخزف الأبيض الذى وجد بوفرة فى « آن يانج[1] » . كما وجدت هنا أيضاً آنية « لى » الثلاثية القوائم وكأس « تنج » ذات القواعد الثلاث المتقدم ذكر وجودها فى موقع « يانج شاو » . ولم يعثر فى مركز الخزف الملون على موقد « هسين Hsien » . الذى وجد فى العصور التالية مصنوعاً من البرونز .

أما الزخارف فكانت مقصورة على الحزازات وأربطة الحليات مع عدم وجود

---

(١) ومع ذلك فيحتمل أنها لم تذكر .

أى أثر للون . وهناك كشف غير عادى هو العثور على غطاء مصنوع من الصلصال بوسطه مقبض يشبه عش الغراب ، وهو نوع من الأغطية يوجد بكثرة فى مراكز « هاربان » بوادى السند . وكان للخزف مقابض تشبه القوارير ، مع مقابض أخرى دائرية كبيرة ، وكذلك أيد على شكل حليات .

وهناك فرق ضئيل للغاية بين أدوات « تشينج ـ تزو ـ ياى » الحجرية وأدوات « يانج شاو » كالمعازق والبلط والفئوس وأحجار الطحن والدق وما إليها (لم تسجل أحجار الدق فيما كتب عن مركز يانج شاو ولكن ذلك يرجع فى الغالب إلى السهو عنه لا إلى إغفاله فى تلك الثقافة) كما لم تسجل الأطواق أو الخواتم الحجرية الصلبة فى « تشينج ـ تزو ـ ياى » بينما سجلت السكين الهلالية والمستطيلة .

الواقع أن بيان « يانج شاو » عن الأدوات العظمية يتفق مع بيان مركز « شانتونج » غير أن الأخير لم يسجل فيه الملاوق والخواتم والأساور ، ومع ذلك فهناك دليل معين على استخدام اللوح العظمى فى النقش عليه . وقد وجدت بالفعل عظام لوح الكتف للثور مثقوبة . ولم يكن على هذه الألواح نقوش فى الطبقة الدنيا بينما وجدت فى الطبقة العليا ألواح منقوشة . ويدل وجود عظام الكهانة المكتوبة التى وجدت بالطبقة العليا مع وجود البرونز معها على أنها تنتمى إلى عصر آخر يرجح أن يكون عصراً تاريخياً .

ولوصف الطبقات الأرضية فى « تشينج ـ تزو ـ ياى » شىء من الأهمية من حيث أن الطبقة العليا تضم نقوشاً وأدوات برونزية ، فى حين أن الطبقة الدنيا لا تحتوى على شىء من هذه السمات . والواقع أنه يحتمل أن الطبقة الدنيا تمثل ثقافة سابقة تماماً للعصر التاريخى . فهل نحن إزاء دور انتقالى نجتاز فيه ظلام ما قبل التاريخ مباشرة إلى أضواء العصر التاريخى ؟ إن الصينيين يحسنون صنعاً حين يطلقون على الطبقة العليا « موضع المدينة القديمة تان » ، وهى مدينة ذكرت فى عصر « تشو » . فإذا كان الأمر كذلك تكون « تشينج ـ تزو ـ ياى » ، ذات أهمية بالنسبة للتاريخ الصينى والحضارة الصينية التى يظهر أنها ـ ولسبب غريب ـ لم يتحقق ورود ذكرها فى الأدب ؛ وفوق ذلك

فإن « كل حفرية فى الواقع » مما وجد فى الطبقة الدنيا وجد لها مثيل فى الطبقة العليا ، ويستثنى من ذلك أن هذه المنطقة خالية من السلعة السوداء المصقولة ، وأن الطبقة الدنيا تنقصها سلعة رمادية معينة ، وينقصها بطبيعة الحال البرونز والكتابة اللذين وجدا بالطبقة العليا . فهل هناك ثغرة زمنية بين الطبقتين ؟ لقد ذكر ذلك فى التقرير ، ولكن وصف الطبقات الأرضية يدعو إلى التشكك بالنسبة لما وجد من تداخل الطبقات واختلاطها . ويقرر الصينيون أن هناك طبقة من الرمل مختلفة السمك تفصل بين الطبقتين المذكورتين فصلا واضحاً . ويدل التحقيق الذى أجرى على مخلفات عديدة جداً فى كل من الطبقتين وعلى غيرهما من الطبقات الأخرى ، حيث تختلط الحضارات — يدل هذا التحقيق على أن الفصل إذا كان قد وجد فعلا ، فلا يمكن أن يكون قد ظل أمداً طويلا . والواقع ، فى رأينا ، أن كلا من الحضارتين استخدمت الجدار الطينى المسدود ، وإن كان من الواضح أن هذا السور قد تحطم فى الأدوار التالية لبنائه .

ومن الأشياء الهامة التى وجدت فى الطبقة الدنيا فى « تشينج — تزو — ياى » رأس حربة وهو يشير مع بقايا من الأسماك الصدفية التى وجدت أيضاً إلى اعتماد الناس ولو اعتماداً جزئياً على الأقل ، على غلات النهر . ويمكن أن تكشف البحوث المستقبلة عن بقايا ثقافة أقدم قامت على امتداد الساحل واعتمدت فى معاشها على البحر ، ومثل هذه الثقافة التى تقوم على جمع السمك المحارى قد تضم أيضاً الأدوات الحجرية المصقولة التى تنتمى إلى آسيا الجنوبية الشرقية ، وخزف شمال آسيا الضفيرى والحصيرى ولا بد أن تحوّل هذه الثقافة إلى الزراعة يؤدى إلى حركة داخلية على امتداد الأنهار خاصة ، حيث ظل صيد السمك مصدراً ثانوياً للطعام . ولقد افترضت إحدى المراجع وجود ثقافة لعصر حجرى حديث مبكر ، وأن هذه الثقافة كانت عماد الثقافة التالية (ثقافة الخزف الملون الأسود) التى وجدت فى سهل الصين الشمالى . ووجود هذه الثقافة ... لابد يستند على كشف مراكز الخزف الحصيرى والآلات القاطعة الحجرية المصقولة دون الخزف الملون أو السلعة السوداء . وانتشار السلع الضفيرية والحصيرية من

سيبريا حتى آسيا الجنوبية واليابان ، يدل على وجود طريق ساحلى . وبناء على ذلك يمكن أن تضاف السمات المادية للاقتصاد السمكى إلى افتراض « وارد Ward » وهو قيام ثقافة مبكرة . ويدل قيام حضارة الخزف الأسود التى استأنست الحيوان (الماشية والأغنام والخنزير والكلاب) ، بل من المرجح أنها زرعت القمح وعرفت استخدام عجلة الفخار ، يدل قيامها على وجود تأثير غربى طارىء على تلك الحضارة التى افترض قيامها بأقصى الشرق ، وأن هذه أنتجت بدورها هذا النوع من الحضارة الذى كشف عنه الستار فى « تشينج - تزو - ياى » وهى حضارة مجتمع زراعى نشأ بالداخل ، ولا تختلف كثيراً عن حضارات الصين فى العصور التاريخية . ولربما تهيىء البحوث الأثرية على ساحل الصين الإجابة عن هذا اللغز ، وهى إجابة سوف لا تخالف كثيراً النظرية الحالية فى أغلب الظن .

وانتشار ثقافة الخزف الأسود فى الجزء الشرقى من الصين الشمالية، وثقافة الخزف الملون فى غربى هذا الإقليم واضح للغاية . أما ما يدعو إلى الحيرة فهو العلاقة الزمنية بين هاتين الثقافتين فهما تشتملان بوجه عام على كثرة وافرة من السمات المشتركة بحيث يبدو بجلاء عدم وجود فارق زمنى ، بل يغلب على الظن أن هناك قدراً من المعاصرة بين أدوار كل منهما .

ويظهر أن ثقافة الخزف الملون كانت ذات طورين إذا استندنا فى الحكم على الدليل المنشور وهذان الطوران يتداخلان فى المواقع . فالطور الأول هو ما كشف عنه فى مركز « يانج شاو » فى « شنسى » حيث وجد أن الخزف الملون بالأسود على اللون الأحمر أوفر كمية من الأنواع الملونة المزخرفة الأخرى وفى شرق « يانج - شاو » فى « شنسى » استخرج من مركز « هسى - ين » نوع مماثل من المواد الثقافية باستثناء آنية « لى » الثلاثية القوائم التى وجدت بكثرة فى « يانج - شاو » على الأقل . ومع ذلك فمن المرجح أن يعنى هذا أيضا أن حضارة « هسى - ين » كانت طوراً ثانوياً للحضارة الممثلة فى « يانج - شاو » .

وتوجد شظايا الخزف الملون بالأسود والأحمر فوق الأبيض فى « يانج - شاو »

ولـكن يبدو أنه أكثر كمية من الموجود بالمراكز التى إلى الشرق فى إقليم «هو-ين» كما يبدو أيضاً أن المراكز متشابهة فى الموقعين من كافة الوجوه . وبوصف أن هذا ربما كان مجرد اختلاف جغرافى أكثر منه زمنياً ، فتكون مراكز « هو - ين » ليست إلا طوراً متأخراً لطراز من الخزف الملون .

ومركز « بو - تشاو - تشاى » قريب جداً من مركز « يانج - شاو » ولـكن ينقصه تماماً الخزف الذى وجد فى هذا الأخير . ومع ذلك ففيه أوانى « لى » الثلاثية القوائم ، والمدببة القواعد ، بل وجدت الأساور المزخرفة ذات الزوايا فى « يانج - شاو » كما وجدت كافة السمات الأخرى . ويغلب على الظن إذن أن « بو - تشاو - تشاى » تمثل دوراً تالياً لدور الخزف الملون مباشرة جاء على غير المألوف ، ويمـكن أن نعتبره كذلك طوراً مبـكراً لحضارة الخزف الأسود فى « هونان » لأنه يبدو أن بها سلعاً سوداء مصقولة أكثر مما يوجد فى « يانج-شاو » و « هو-ين » أو « هسى - ين » .

وقد أجرى الصينيون بحثاً سريعاً بمركز « هو - كانج » الواقع فى « هونان » بالقرب من مركز « آن - يانج » عاصمة أسرة « شانج » المتأخرة . وهو مركز هام جداً لأن أعمال التنقيب كشفت هنالك عن طبقات أرضية متتابعة تدل على أن الخزف الملون (على عمق أكثر من مترين) منفصل عن ثقافة الخزف الملون التالية له تفصلها طبقة مجدبة تقريباً من التربة الصلبة الداكنة (متر واحد) . وربما كانت هذه الطبقة ممثلة فى مكان آخر بالقرب من دور « بو - تشاو - تشاى » .

وتلى ثقافة الخزف الأسود (متران) سلعاً (من خزف رمادى) من أسرة «شانج» كالمصنوعات الحجرية اليدوية الشبيهة بتلك التى وجدت فى « آن - يانج » ، ولـكن ليس لدينا دليل على وجود ثغرة بين تتابع طبقة الخزف الأسود حتى طبقة « شانج » والواقع أن هنالك مرحلة (متر واحد) تبدو فيها طبقة شانج وما قبلها من الطبقتين كأنهما متلاصقتان . وهذا يؤيد فيما يظهر الانتقال الهين (غير المفاجىء) من العصور السابقة للتاريخ إلى العصور التاريخية التى أشرنا إليها فى « تشنج - تزو - ياى » .

ولو بحثنا تتابع الطبقات فى « هو ـ كانج » لوجدناها واضحة فى المستويات العليا ولكن ما نشر عن الخزف الملون فى الطبقات الدنيا هو من القلة بحيث لا يكفل لنا أن ننسبه نسبة صحيحة إلى طور معين من أطوار ثقافة الخزف الملون . ويظهر من الفصل المنشور أن السلع الملونة توجد بالجزء الجنوبى من الموقع حيث تتداخل المستويات العليا فيها من أطرافها الشمالية ، الأمر الذى يؤكد سبق وجود هذا الخزف الملون . ومع ذلك فإن القطاع الهندسى يدل على أن آخر سكنى « شانج » كانت بأعلى قمة الهضبة حيث تنتشر عادة أحدث الثقافات انتشاراً واسعاً فتشمل « المركز كله » . فلماذا إذن يتحتم ربط مواد « شانج » بأعلى قمة فى الهضبة دون أى مكان آخر ؟ إن المرء لايستطيع أن يتجنب الشك فى افتراضات تشمل شرح الموقع الحضارى بجملته على أساس دراسة قطع صغير أحدث فيه . وقلة عدد السلع الملونة (ربما كانت من سلع التجارة) . والحاجة إلى وصف المكتشفات الأخرى ، والنقص الذى يعتور التقرير فى جملته ، كل ذلك يضع طبقات « هو كانج » الأرضية فى وضع مضطرب ، ويجعل منه طرفاً ضعيفاً جداً لا يجدر بنا أن نعلق عليه أمراً هاماً كهذا . ومثل ذلك يقال عن التقارير غير الوافية الخاصة بالمراكز الأخرى (هو ـ تشاى ـ تشوانج ، وتا ـ لاى تين وغيرهما) ، وما يقال من أن الخزف الملون يوجد تحت الخزف الأسود ، كل ذلك يضطرنا إلى تعديل النتائج التى قامت على أساس الأوضاع المقررة للطبقات الأرضية .

وإننى لعلى يقين من أن كل من له إلمام بما يلازم تحديد الطبقات على الطبيعة من تعقيدات ، لابد أن يوافق على هذه التعديلات . والقاعدة هى أن نبسط الدليل بالتفصيل فى حين أنه لم يقدم لنا مثل هذا التفصيل إلى الآن ، وإلى أن يتم ذلك حسين تسمح مصائر الحرب والسلام ، بمثل هـذا التفصيل المسهب حسبنا أن نقول باحتمال وجود « ميل » إلى جعل ثقافات الخزف الملون أسبق إلى حد ما من ثقافات الخزف الأسود فى الترتيب الزمنى فى هذه المناطق حيثما يكون بينهما اتصال ، ولكن يعوزنا الدليل

الكافى فى الوقت الحاضر لكى نسلم بأن الصورة الراهنة هى الصورة النهائية لتعاقب الثقافات الصينية .

وإذا ما لخصنا الأدلة التى تمدنا بهـا تلك المكتشفات المبعثرة فى حوض نهر هوانج هو فإنا نحصل على صورة لشعب زراعى ، زرع حبوب القمح وبعض الأرز على الأقل فى الشرق . كما كان استئناس الماشية والضأن والماعز أكثر شيوعاً فى الجزء الغربى من هذا الحوض ولو أن استئناس الخنازير والكلاب (بقصد الطعام) كان شائعاً فى كل مكان . وكان الناس يكملون غذاءهم بالأسماك الصدفية والحيوانات البرية وبخاصة الغزلان . ويغلب على الظن أن المساكن كانت تبنى عادة غائرة نصفها تحت سطح الأرض . ومن المحتمل كثيراً أنهم أنشئوا على سطح الأرض الحواجز من الأغصان المتشابكة والملاط ، أو الأكواخ من الطين . ولا شك أنهم أقاموا حول بعض القرى جدراناً من الطين مقفلة .

أما عن أدوات الحياة اليومية فهى تلك الأدوات التى تقترن نسبياً بطبيعة الحال بأدوات الاقتصاد الزراعى البسيطة : مثل المعازق والفئوس والبلط والإبر والمثاقب وغيرها . وتدل المقذوفات المسننة المصنوعة من العظام والحجر ، والسكاكين الصدفية على حياة ريفية آمنة ، هذا بالإضافة إلى الأسلحة التى تؤكد أنها لأغراض الصيد أكثر منها للقتال ، ومع ذلك فإن أسوار تشينج — تزو — ياى ربمـا قد أقيمت لأغراض دفاعية .

وهناك بعض شواهد على وجود ديانة تفسرها تلك الأمتعة الموزعة فى المقابر ومزاولة الكهانة بواسطة عظمة اللوح التى قد تكون مقرونة بعقيدة دينية كما كانت الحال فى الأزمنة اللاحقة .

وتبين بقايا الهياكل العظمية أن سكان سهل الصين الشمالى كانوا من المغول ، وهم يختلفون قليلا عن سكان حوض النهر الأصفر الحاليين .

وقد تكشف علم الآثار عن بعض البراهين الدالة على أن الجزء الغربى من ذلك

الحوض قد تأثر بثقافة الخزف الملون التي يرجح أنها تمثل انتقال سمات الأطوار الثقافية المتأخرة من غربي آسيا إلى شرقها ، كما أن هنالك بالمثل أنماط شرقية فيما يظهر ، تتمثل في الخزف الحصيري والضفيري والأدوات الحجرية المصقولة يرجح كثيراً أنها ساحلية خالصة ، ومن ثم يغلب على الظن أنها كانت تعتمد على منتجات البحر الغذائية .

وعند هذا الحد يرغب الإنسان في تأمل طبيعة طراز آخر ، وهو ذلك الطراز الذي يطلق عليه ثقافة الخزف الأسود . لأن الأواني السوداء المصقولة التي اتخذت نموذجاً لهذا الطراز لم توجد في معظم مراكز الخزف الملون بحوض النهر الأصفر فحسب ، بل وجدت أيضاً مقترنة اقتراناً واضحاً ببعض الأدوات الأخرى من العهود التالية لها كعهد شانج . وأقرب الأشياء مشابهة لها هي تلك التي وجدت بغربي آسيا حيث ظهرت أنماط بعضها يكاد يكون مطابقاً لها تماما ، وهي تتمثل في السلع الرمادية المصقولة في مراكز « تيبي هيسار » (هيسار ٢ و ٣) في إيران وما يتصل بها من مراكز . وتنتشر هذه السلع الرمادية انتشاراً واسعاً في إيران ولكن ترتيبها الزمني بوجه عام يأتي بعد عهود الخزف الملون . ولما كان العثور على هذه السلع يقترن بسلع شنسي وهونان الملونة ، وبالخزف الحصيري والضفيري في هذين الإقليمين ، بل وبخزف الأقاليم الشرقية في نفس الوقت ، فإن هذا ليدل على أن التعبير (ثقافات الخزف الأسود) حين يقصد به ثقافات شرقي الصين ، يعتبر تسمية خاطئة في أغلب الظن . ويبدو أن الافتراض الأكثر رجحانا ، هو أن هناك ثقافة تمتاز بصنع الآلات الحجرية القاطعة والخزف الحصيري والضفيري قامت بالمنطقة الشرقة الساحلية ، وأن الخزف الأسود الطارئ عليها يدل على انتقال سمات من غربي آسيا إلى شرقي الصين ، وأن هذه السمات كانت على الأرجح تشمل زراعة الحبوب أيضاً (مع أن زراعة الأرز ربما كانت موجودة في هذه المناطق الشرقية من قبل) . كما أن معلوماتنا الأثرية عن شرقي الصين من القلة بحيث ينبغي ألا نستبعد احتمال الحصول على خزف ملون هنالك ، مقروناً في الغالب بخزف أسود إذا ما سبرت أغوار المراكز الموجودة

فى ثانتونج بنوع خاص ، أما فى الوقت الحاضر فإن الخزف الأسود يجب أن يعد ممثلا لطور متأخر لآثار ثقافة غربى آسيا التى وصلت إلى أقصى الأجزاء الشرقية لأوراسيا فى منتصف الألف الثانية فيما يظن .

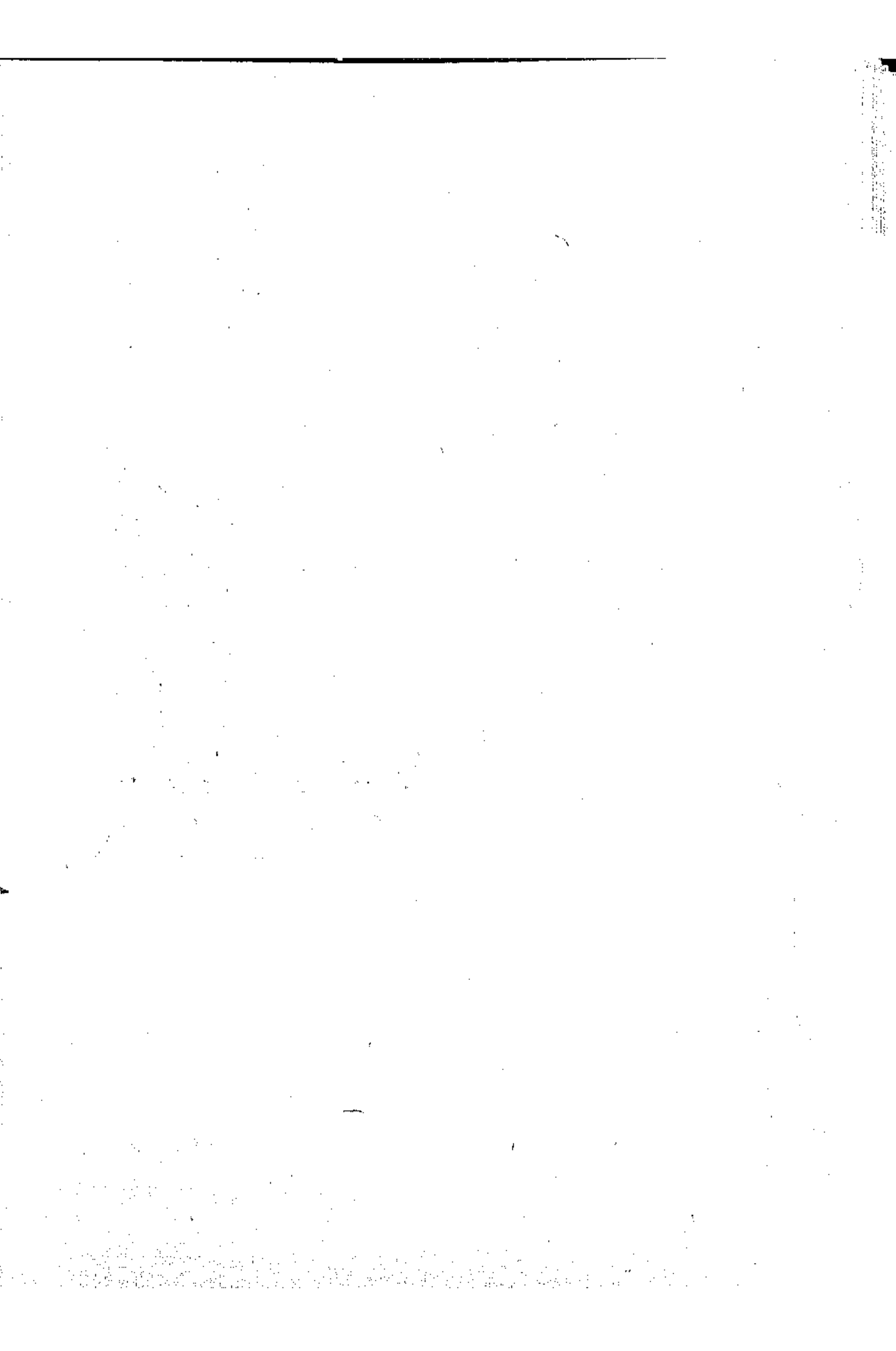
وهناك دليل آخر على أن هذه الثقافات التى كشف عنها حتى الآن فى حوض هوانج هو ، جاءت متأخرة إذا ما قورنت بثقافات غربى آسيا ، فالرسم الفنى على خزف يانج ـ شو الملون يعتمد فى أساسه على الخطوط المنحنية ، فى حين أن طراز خزف إيران الملون يقوم على أساس الخطوط الهندسية المستقيمة ، إذ لم يحدث حتى آخر أطوار الخزف الإيرانى الملون أن أصبح للخطوط المنحنية أى نصيب بارز فى الرسم الفنى . وليس هذا بالطبع دليلا فى ذاته لأن اتجاه الأسلوب شىء لايمكن التكهن به ، ولكن وضع هذه الحقيقة إلى جانب أدلتنا الأخرى تشير إلى تأثير ثقافة غربى آسيا الذى وصل متأخراً .

ويمكن أن نعد شيوع الحلية الزخرفية فى ثقافات هوانج على أنه إشارة أخرى إلى التعاقب الزمنى لأن مثل هذه الزخرفة نادرة جداً فى الثقافات السابقة للتاريخ فى شرق إيران وأفغانستان وبلوخستان . والظاهر أن هذه السمة وجدت فى بلوخستان عقب عصر ما قبل التاريخ مباشرة (أى سنة ١٥٠٠ بل سنة ١٢٠٠ ق . م) حيث كانت مقترنة بالسلعة المتعددة الألوان ذات الرسم المنحنى الخطوط (سلعة غوليسة Ghul Ware) . كما أن المقابض جاءت متأخرة جداً إلى الجزء الشرقى من هضبة إيران ، وهى تقترن خاصة بالسلعة الرمادية وإن كانت المقابض الكبيرة المستديرة معروفة تماماً فى الجهات الغربية النائية فى منطقة بحر إيجة (السلعة المنيوية وغيرها Minyan etcec) .

فالخزف إذن هو المقياس الأساسى لمعرفتنا بالتسلسل التاريخى لهذه الثقافات الصينية المبكرة . ولكن يجب ألا ننسى أن بروز مثل هذه السمات بروزاً مفاجئاً بيناً كالكتابة والتعدين فى الصين يمكن أيضاً أن يكون دليلا على سرعة الاتصال

بثقافات غربى آسيا ، ويمكن أن يكون هذا الاتصال قد تم فى أثناء انتشار هذه السمات من منبتها الأصلى شيئاً فشيئاً متجهة إلى الشرق . ولربما استغرقت فى ذلك التقدم عدة قرون فأدى بلوغها حدود النهر الأصفر إلى التقدم الثقافى المعروف بعهد شانج .

وإذا استعرضنا ثقافات ما قبل التاريخ بالقدر الذى بلغته الكشوف فى حوض « هوانج هو » ، وفى ضوء معلوماتنا الحالية عن غربى آسيا فيما قبل التاريخ ، فإنا لا نستطيع أن نهمل النتيجة التى انتهت إليها الثقافات الصينية من حيث يتمثل فيها طور متأخر لنمو الثقافات القروية المعروفة فى منطقتى شرق إيران وغرب تركستان ، كما يجب أن نذكر أنه لا يوجد حتى الآن بالشرق الأقصى ما يمكن مقارنته بثقافات إنتاج الطعام المبكرة فى غرب آسيا . ويبدو لنا على أساس معلوماتنا عن غربى آسيا فيما قبل التاريخ ، وعلى أساس التسلسل الزمنى . يبدو لنا أن ثقافات يانج — شاو (الخزف الملون) ، وثقافات لونج — شاو (الخزف الأسود) لا يمكن أن تكون قد وجدت قبل سنة ٢٠٠٠ ق . م . أما فى حالة الثقافة الأخيرة على الأقل فتعد سنة ١٥٠٠ ق . م . تاريخاً ليس فيه تحفظ كبير .



١٠ — كنسو — حلقة اتصال بالغرب

لقد أوضحنا فى المجمل الذى قدمناه عن أطوار الثقافات السابقة للعصور التاريخية فى غربى آسيا كيف تعلقت القرى الإيرانية بالرقع الخصبة من الأرض ، وبموارد المياه الموجودة بالقرب من منحدرات الجبال ، أو المحيطة بالصحارى المجدبة التى يتميز بها وسط آسيا بنوع خاص . وعندما يدرس الإنسان الخرائط الخاصة بتوزيع الثقافات ، فإنه يشعر بأن الحاجة المستمرة إلى مساحات جديدة من الأرض لزراعتها هى التى دعت إلى تحرك الفلاحين نحو الشرق . ربما كان ذلك نتيجة لضغط السكان أو لعدم التوفيق فى الحصول على التربة الصالحة أو الماء ، أو لمجرد تعجل الحصول على مراع أكثر خضرة فى غير موعد الخضرة . ولا يبدو أن الحروب كانت كثيرة الحدوث لأن عدداً كبيراً من هذه القرى لم تكن ذات أسوار . كما لم تكن أدوات القوم ذات طبيعة حربية إلا فى القليل النادر . ويغلب على الظن أن مشكلات الزراعة واستنبات الحبوب التى تقوم بأود السكان فى آسيا الوسطى نصف المجدبة — هذه المشكلات كانت كافية فى الغالب لأن تمتص بواعث القتال ، ولا شك أن الوحدة كانت ضعيفة خارج حدود القرية التى ينتمون إليها ، ولكن يرجح أن الولاء للأسرة وسلطة الذكور كان لها أكبر قسط من التقدير ، ذلك لأن عزق الأرض والعناية بحيوان الحقل كانا من مهام الرجال على الأرجح .

ولقد كفل الاتصال بصيادى العصر الحجرى الأوسط أو رعاة الأغنام والماعز المتجولين إلى الحصول على المعلومات الخاصة بالأجزاء الأخرى البعيدة عن القرية ، كما يرجح أن الشبان من الرجال هنالك كانوا يجدون ما يشبع طموحهم فى الحقول الخضراء (الاتجاه إلى الزراعة) ، ومهما كانت الحال فإن القطع المكسورة من الخزف الملون كانت تحمل من أقاليم بعيدة عن إيران مثل سفوح تلال ألطاى

وواحات سنكيانج و يغلب على الظن أن هذه القطع تدل على تحرك الفلاحين الإيرانيين أو على الأقل انتقال معلومات من إيران خاصة بالزراعة إلى الشرق ، بل يجوز أن الزراعة فى عهدها الباكر كانت فى طريقها إلى الشرق حتى قبل أن يظهر طراز الخزف الملون ، وقد يثبت وجودها أيضاً بالمكتشفات المستقبلة على امتداد الطرق الكبرى التى تربط إقليما بآخر ، ومهما كان الزمن الذى بدأت فيه هذه التحركات فمن الواضح أن هؤلاء الفلاحين الأول لم يبحثوا عن وديان الأنهار العظمى حيث يمكن أن تقام وسائل الرى الدقيقة كما هو الحال فى العراق **Mesopotamia** .

ولقد عرفوا الوسائل البسيطة الضرورية لزراعة الحبوب ، وقنعوا فيما يظهر بهذه الوسائل ، كتصدى ماء نبع أو نهير صغير وتوجيهه إلى مجار أقاموا على جانبها شاطئين من الصلصال الصينى . ولعلهم أيضاً لم يعرفوا هذا الأسلوب البسيط فظلوا يعتمدون على السهول الفيضية الضيقة التى ترويها مياه الروافد الجبلية ، أو على أمل هطول بعض الأمطار المؤقتة ، فإذا ما فشلت هذه الوسيلة اضطرتهم الأحوال إلى التحرك شرقا .

ويقع إقليم كنسو غرب حوض النهر الأصفر وجنوب صحراوات آسيا الوسطى ، وهى أقاليم جبلية عالية غنية برواسب طمى اللاويس . وحيثما توجد المياه فى هذه الأماكن يجود الإقليم ويعظم خصبه . وتجاور حدود هذا الإقليم الشمالية الغربية ، حدود آسيا الوسطى الصينية . وفى الجنوب تقع مرتفعات بين التبت . ومن ثم فإن كنسو تعد حلقة الاتصال الطبيعية بين شرق الصين وغربها ، فالمسافر قد يدور حول صحراء « تاكلاماكان » فى حوض سنكيانج من الجنوب أو من الشمال ، ولكن منفذه الحقيقى إلى الصين هو من « تنهوانج » أو « لانتشاو » بإقليم كنسو ، ومن أبواب « زنجار » الذائعة الصيت التى تعتبر « الباب المفتوح » إلى الشرق والغرب يستطيع المسافر أن يسير متاخماً للحدود المنغولية متجهاً إلى الجنوب عن طريق واحات طور خان ، فيدخل كنسو بشعور من حقق هدفا من الأهداف .

وإقليم كنسو واسع الرقعة (١٦٠ر١٥١ ميلا مربعاً) مستطيل الشكل ، وموقعه

الجغرافى معقد ، تبرز الصحراوات الجبلية فى شماله الغربى بينما ترتفع فى جنوبه الشرقى أكوام اللويس ، ويشقه امتداد النهر الأصفر إلى قسمين . وتجرى روافد النهر الأصفر من وديان اللويس فى كنسو إلى النهر الأصفر أو فروعه مثل « واى هو » الذى يتصل « بالهوانج هو » دون غيره من الشرق فى « شنسى » ويمتاز (إقليم كانسو) بالرطوبة وخصب التربة . وهناك دلالة نظرية على أن الفلاحين الإيرانيين أو تلاميذهم الفلاحين الصينيين عرفوا شيئاً عن موارد الإقليم فى عهود قديمة وانتفعوا بها كثيراً .

وفى سنة ١٩٢٣ بدأ ج . ج أندرسن سلسلة كشوف فى شمال غرب الصين وخاصة بجنوب كنسو فكانت كشوفه متعددة وذات أهمية بالغة . ولقد ركز اهتمامه فى مراكز الخزف الملون ووسع رقعة كشوفه واستطاع أن يثبت أن هذه الصناعة شملت مساحة جغرافية فسيحة . وتوضح القائمة المركزة للأدوات التى اكتشفها مدى ارتياده لهذا الإقليم . ففى « شنسى » بالقرب من « سيان » يوجد مركز « شيه لى يو » . وفى كنسو بوادى نهر « هسى ننج » غرب لانتشو مركز آخر يطلق عليه أيضاً « شيه لى يو » ثم مركز القرية الهامة « تشو ـ تشيا ـ تشاى » ومقبرتها ، وكذلك تحقيق مراكز «ما ـ تشانج » بوادى هسى ننج، وباقليم التبت فى « شنج هلى » ، ومراكز أخرى حول البحيرة الزرقاء المسماة بالصينية « كوكو ـ تور » ، ومركز قرية « لوهان تانج » على حدود كنسو . وفى وادى نهر تاو جنوب لانتشو يظن العثور على مراكز لمجموعات مدهشة من المساكن والقبور ، مثل : تشى تشاى ينج ، وهسين تين ، وهوى تسوى ، وسسو شيه تنج ، وما ـ تشيا ـ ياو ، ومقابر تلال پان شان (مثل پين ـ تشيا ـ كو ، وا ـ كوان ـ تسوى وغيرها) ومركز صحراء شا ـ تشنج بالقرب من واحة « تشن ـ فان » .

وكثير جداً من هذه الاكتشافات هام بطبيعة الحال بسبب تعددها غير المألوف ، ولكن أقل ما يقال عن محتوياتها أنها وفيرة شاملة ، آلات جميلة الصنعة من الحجر

المصقول وفئوس وبلط ، وحلى من حجر اليشم ، وسكاكين من العظم ، وإبر وخطاطيف و(لعب) ذات جلاجل من الصلصال ، وخواتم وأساور . وأهم ما يلفت النظر من هذا كله ذلك العدد الوافر من الأوانى الخزفيــة الملونة تلويناً جميلا كالأوعية والدنان وآنية الأزهار والأقداح ، منهـا ماله مقابض ومنها ما هو مطعم بالحايات . وتختلف رسومها من هندسية مستديرة إلى نماذج من الخطوط المنحنية الرشيقة المتسقة وبعضها متعدد الألوان من أسود وأحمر قاتم فوق أرضية حمراء ، وأحياناً يكون الرسم مبسطاً من اللون الأسود على أرضــية حمراء أو شهباء ، كما توجد بالطبع سلع ملساء وأخرى ذات زخارف ضفيرية أو حصيرية ، وكذلك مجموعة غير مألوفة من أوانى تشي-تشيا-ينج ذات الزخارف المنقطة والمحفورة .

وإذا ما واجه الإنسان هذا القدر من المادة ، فإنه لا يمكنه أن يتجنب التفكير فى أن كنسو كانت مركزاً لثقافة من ثقافات ما قبل التاريخ ، وأنها كانت أكثر تقدماً عما يماثلها من ثقافات حوض النهر الأصفر . ويجب أن نوضح هذا الرأى الأخير مباشرة بالإشارة إلى أن كثيراً من مادة كنسو استخرجت من القبور السليمــة أو تم شراؤها من الفلاحين الصينيين الذين كانوا على حق فى حصولهم على خير النماذج لبيعها بأغلى الأسعار . ومع ذلك فإن حفريات أندرسن التى أجراها فى مراكز السكنى قد تضافرت مع المكتشفات الأخرى فى عرض صورة واضحة المعالم لهذه الثقافات القديمة ، وبالتالى فقد ظهر أن الفكرة الأولى عن هذه الثقافات قد صحت .

وتوضح مكتشفات أندرسن أن جنوب كنسو كان يسكنه فـلاحون يملكون أدوات منحوتة من العظام والأحجار شديدة الشبه بأدوات فلاحى حوض النهر الأصفر فيما قبل التاريخ . وتبدو خواتم كنسو الحجرية الناعمة و أقراطها وأطواقها المصنوعة من حجر اليشم ، وعقودها المصنوعة من الحجر - كل هذه تبدو فى ظاهرها على الأقل أكثر رقة من مثيلاتها فى هونان وشانتنج ، وكذلك خزفهـا الملون الفاخر بما فيه من دقة فى الرسم ومراعاة لنسبة المقاييس فى الجسم الإنسانى ، كل ذلك لا نظير له بأى مكان آخر

فى الصين . وقد وجدت هذه الأوانى وغيرها من الأدوات الكثيرة على نطاق واسع بوصفها من متاع القبور . وكانت توضع جثث الموتى مستقيمة فى قبور «تشوتشياتشى» بينما توضع مثنية فى تلال يان شان (پين-تشيا-كو) وتدل وفرة المتاع الذى يوضع بالقبر فى الحالين على الاعتقاد فى حياة أخرى بعد الموت ، وهو شبيه باعتقاد شعوب إيران التى تقع على مسافة بعيدة إلى الغرب فى عصر ماقبل التاريخ .

ويبدو أن القرى كانت بالغة الاتساع ، فقرية تشو تشياتشى مثلا كانت مساحتها ٢٢٦٫٩٠٠ متر مربع ، وكان أحد ضاحى ما-تشيا-يأو ٣٥٠ متراً ، وطول أحد أضلاع قرية تشى-تشيا-پنج القديمة ٥٠٠ متر وطول الآخر ٢٥٠ متراً . وكان كثير من هذه القرى يقع فى مدرجات اللويس على جوانب الوديان ولكن بعضها كان يقوم على السهل النهرى مباشرة . وكانت تقع مقابر بعض هؤلاء الناس من عصر ما قبل التاريخ فى الأراضى المرتفعة بأعلى التلال المحيطة بالقرية ، وهو مكان غير عادى بالنسبة لقبور المراكز الأخرى فيما قبل التاريخ . وهو يوحى أيضاً بميل الصينيين والكوريين المتأخرين إلى دفن موتاهم فى الأماكن المرتفعة حيث تقام الولائم الأسرية الخلوية كل عام وفقاً لتقاليد كونفوشيوس الداعية إلى الارتباط الوثيق بين الأحياء والأموات فى الأسرة . ويستحق تعليق أندرسن على مقابر پان شان الملاحظة من حيث أنه يعبر عن مشاعره إزاء الاحتفالات والتقاليد العميقة التى تمتد جذورها إلى ماض سابق للتاريخ . وقد أثار هذا المنظر شجون أندرسن حين كان يقوم بحفرياته فدوّن ما يلى:

« يقع كل قبر من قبور المراكز الخمسة فوق تل من أعلى التلال فى المنطقة ، تحيط به أخاديد منحدرة عميقة ، ويبلغ ارتفاعه ٤٠٠ متر فوق سطح وادى « تاو » المجاور . وقد أكدت بحوثى تأكيداً تاماً ظنى الأول ، وهو أن هذه المقابر القائمة على التلال ، لابد كانت خاصة بالمساكن المقامة على سطح الوادى فى نفس العهد . ومن ثمة أصبح من الواضح أن المقيمين فى وادى «تاو» فى ذلك العهد كانوا يحملون موتاهم

مسافة عشرة كيلو مترات أو أكثر من القرية ويصعدون بهم على الممرات المنحدرة إلى قمم التلال على ارتفاع ٤٠٠ متر كاملة من مساكن الأحياء، إلى مستقرهم الأخير حيث يستطيعون أن يشرفوا من أفقهم الفسيح على ذلك المكان الذى نشئوا فيه وعملوا ، ثم أدركهم الشيب ، ثم وجدوا فى النهاية قبرا يضم رفاتهم فى مهب الريح ، تغمره أشعة الشمس .

والواقع أن هؤلاء الناس لابد كانت فيهم قوة ورجولة ، وحب للطبيعة ، إذ كانوا يتكبدون المشاق ليمنحوا موتاهم الراحلين مثل هذا المكان المرموق مستقرا لهم . ولقد حاولت فيما أنا جالس فوق ربوة قبر فى ذلك اليوم المشرق من شهر يونية ـ حاولت أن أتخيل ذلك الموكب الجنائزى الذى شق طريقه دون شك فى بطء وأبهة عظيمة ، ولكن هيهات ، فقد ولت تلك المواكب التى حفلت بها جنبات الجبال ونسيت إلى الأبد » .

ويظهر أن الأصداف الملونة واليشب كانت من الأشياء الثمينة عندهم، ومن المحتمل كثيراً أنها كانت وسيلة للمبادلة ، أما الأحجار الأخرى مثل العقيق الأبيض وحجر التلك وحجر الأمازون المعدنى والفيروز والحجر الخلكيدونى ، كل هذه كانت معروفة لديهم . وليس لدينا دليل مادى على أن هؤلاء الفلاحين زرعوا القمح ، ولكن ذلك لا يدعو إلى العجب فى ضوء المشكلات التى تلازم الحصول على مثل هذا الدليل ، وتزيد بقايا الحيوانات المستأنسة كالخنازير والكلاب والضأن والماعز والماشية عادة على بقايا الحيوانات البرية كالغزلان والقوارض والوعول والجاموس والخرتيت . ويظهر أن الصيد فى مركز « لو — هان — تانج » كان أهم من عملية استئناس الحيوان كمصدر للطعام ولا يدعو هذا إلى الدهشة نظراً لقدم عهد هذا المركز .

ولم يذكر شىء فى التقرير عن بقايا الأبنية ، الأمر الذى قد يدلنا على نوع بناء

المساكن ، وهل كان من الأغصان والطين أم من الخشب[١].

ومما يلفت النظر تلك الندرة الشديدة فى الأنواع النموذجية من المجموعات الخزفية بحوض النهر الأصفر مثل آنية « لى » المثلثة القوائم ، وعدم وجود السلع الدقيقة ذات الطلاء الأسود . ويبدو أن هذا يعزز انتماء هذا النوع الأخير إلى أصل شرقى ، وأن الطريق الذى سلكته السلع الخزفية ذات الطلاء الأسود كان أبعد إلى الشمال من الطريق الذى قطعه خزف كنسو (ونشير مرة أخرى إلى أن ذلك قد يرجع إلى عدم كفاية أعمال التنقيب فى كنسو .

لقد أجملت محتويات هذه المراكز بوجه عام لسببين : الأول أنها تمثل استمراراً واضحاً للثقافة الزراعية فى غرب الصين . والثانى أن « أندرسن » لم يستطع أن يكشف إلا قليلا أو أنه عجز عن كشف دليل من طبقات الأرض يستطيع به أن يحدد التتابع الزمنى لهذه الحضارات . ونحن مضطرون إلى الاعتماد على طريقة الاستدلال من الطرز والأنماط أو بمعنى آخر على مدى تشابه سمات الثقافات أو تباينها فى كل منها ، وهى من أصعب الطرق وأعقدها ، فضلا عن كونها غير مقنعة فى ذاتها ، فالمواد التى يكشف عنها فى قبر ما ، قد تختلف كل الاختلاف عن المواد التى يعثر عليها فى القرية التى ينتمى إليها هؤلاء الموتى — أو أن مظاهر عديدة لثقافة واحدة قد تتجمع اعتباطاً لدى القائم بعملية الحفر ، ومن جهة أخرى فإننا قد نعطى لمظاهر الثقافة نفسها ، ممثلة فى مراكز مختلفة ، أهمية أكبر مما تستحق ، وبالرغم من هذه الصعوبات ، فإن ضرورة وضع هذه الثقافات فى نوع من الترتيب الزمنى لكى نراها فى نطاق القضية التاريخية الخاصة بأصول تاريخ الصين فيما قبل التاريخ ـ هذه الضرورة تحتاج إلى وضع خطة تجريبية لهذه الطرز أو الأنماط . وهذا ما فعله « أندرسن » وإن كانت تفاصيل خطته موضعاً للمناقشة . ومع ذلك فستظل هذه الخطة الإطار الوحيد الذى لدينا عن الترتيب الزمنى النسبى لثقافة « كنسو » .

(١) وذلك باستثناء حصن « ليو هوتون » الذى عزاه « أندرسن » إلى أطوار شا ـ لشونج ويحتمل أن يكون من عصر البرونز المتأخر .

أطوار خزف كنسو

(فى رأى أندرسن)

شـانشينج .
سو — وا — تشيا ياو
هسين تين
ماتشـــانج
يانج ـ شاو المتأخرة (تشو تشيا تشى)
يانج ـ شاو الوسطى (ماتشيا ياو ـ پان شان)
يانج ـ شاو القديمة (لو هان تانج)
تشى تشيا پنج .

قسم « أندرسن » ثقافات « كنسو » إلى أطوار تاريخية خزفية ، فالطور الأول هو الذى يتمثل فى مركز « تشى تشيا پنج » وهو خلو من الخزف الملون ، ولـكنه يضم سلعاً مزخرفة محززة أو مسننة قد تـكون مقتبسة من الشمال ، ومع ذلك فإن « مارجت بيلين ـ ألثين » وهى زميلة « أندرسن » بمتحف عاديات الشرق الأقصى باستـكهلم ، تشعر على النقيض بأن هناك بعض الأشـكال من الخزف تمثل نماذج قديمة معدنية ، ومعنى ذلك أن هذا المركز يرجع إلى تاريخ أحدث بـكثير من تقدير « أندرسن » .

أما الطور الثانى عند « أندرسن » فيطلق عليه « يانج شاو » ، وهو تعبير غير موفق لأن « أندرسن » يشير به إلى طور ذى علاقات مع « هونان » التى قد تمثل كما رأينا « انتشار » الخزف الملون ناحية الشرق . وإذن فيغلب على الظن إلى حد بعيد أن علاقة « يانج ـ شاو » الهونانية بثقافات الخزف الملون فى شرق الصين كانت علاقة « ثانوية » وليس العـكس صحيحاً ، كما يستفاد ضمناً من استعمال التعبير « يانج ـ شاو » .

وقسم « أندرسن » طور «يانج ـ شاو» إلى ثلاثة أطوار فرعية هى على الترتيب: مبكر (لوهان تانج W) . ومتوسط (ماتشيا ياو ـ پان شان). ومتأخر (تشو تشيا تشى) . أما فيما يتصل بالطور المبكر ، فإن مركز « لوهان تانج W » على حدود التبت — يجب أن ينظر إليه باعتباره مركزاً ثانوياً بالنسبة للبقايا الحيوانية التى اكتشفت هنالك (انظر الصفحات السابقة من هذا الفصل) .



شكل ١٠ — خزف كنسو فيما قبل التاريخ (عن أندرسون ـ ١٩٤٣)

طراز ماتشانج (إلى اليسار ـ فوق)
طراز پان شان (« اليمين ـ «)
طراز ماتشانج (فى الوسط)
طراز پان شان (إلى اليسار ـ تحت)
طراز هسين تين (« اليمين ـ «)

أما تقسيم أندرسن الداخلى لأطوار يانج ـ شاو وحججه التى اتخذها للتفرقة بين ذلك الطور والأطوار التالية له فتتوقف على افتراض مراحل للتطورات التى مرت بها الرسوم الملونة وأشكال الآنية . ولما كان أندرسن ومعاونوه قد كشفوا مالا يقل عن تسعة وأربعين مركزا فى كنسو ، وهى المراكز التى نسبها إلى عهد يانج ـ شاو ، فإن حججه فى تحقيق مركز مثل يانج ـ شاو لتعتبر ذات أهمية عظيمة . ولو صرفنا النظر عن أن حدوث اختلافات فى زخرفة الخزف وشكله ترجع إلى عدة أسباب (أحدها يرجع إلى مجرد الرغبة فى تزجية الوقت فقط) ، فإن أندرسن يذهب فى المبالغة إلى حد التفرقة بين الخزف الذى يعد للموتى .

وتواجهنا حينئذ حقيقة هامة هى أن سكان كنسو فى عهد يانج ـ شاو ، كان لديهم نوعان من الخزف متباينان كل التباين : أحدهما للأحياء والآخر للأموات .

ويمتاز خزف المسكن (وهو فى هذه الحالة ماتشيا ياو) بمجموعات من الخطوط المتوجة ، وأخرى رسمت دون قيد ، وهى تذكرنا بالنباتات المائية الطافية والضفادع، أما من حيث الشكل فتوجد الأقداح ذات المقبض الواحد، وهى غنية بالرسم من الداخل والخارج، ومن ناحية أخرى تجد أباريق طويلة دقيقة مزينة، كبيرة الشبه بنماذج الأقداح الملونة .

أما خزف القبور فى جبال بان شان فيشتمل فى معظمه على الأباريق ، وهذه عادة ذات عنق شديد الضيق ، وقد وجدت الأقداح كذلك ، ولكن صناعتها نسبياً أردأ وألوانها أقل إتقاناً والأباريق الجنائزية الكبيرة ملونة وفق نماذج مقررة بدقة ويمكننا أن نميز من بينها المجموعات الأساسية التالية :

١ — أربطة أفقية متحدة المركز .

٢ — أربعة خطوط حلزونية تشغل النصف الأعلى من الآنية .

٣ — أربعة أشكال كبيرة تشبه القلة من حيث الخطوط الحلزونية .

٤ — أربع معينات .

٥ — مساحات مغطاة بنموذج يشبه رقعة الشطرنج .

وهناك ميزة واضحة مستمرة فى هذه الأباريق الجنائزية فهى متناسقة بالرغم من اختلاف نماذجها ، وهى جميعا تشتمل على عنصر مشترك بينها ، وهو الذى أطلقتُ عليه اسم « الطراز الجنائزى » لأنه خاص بخزف القبور لتمييزه من الخزف المستعمل فى الحياة اليومية الذى ينقصه هذا النموذج كلية ويحتوى النموذج الجنائزى على صفين متقابلين من أسنان منشارية سوداء يتوسطهما رباط أحمر ويمكن أن نذكر هنا بنوع خاص ، أنه لا وجود لأى من عنصرى الرسم هذين فى خزف « مانشيا ياو » العادى، ومما يلفت النظر بوجه خاص أن اللون الأحمر ربما كان محرماً على الأحياء بل مقصوراً على تكريم الموتى .

إن تحليل تقرير آندرسن تحليلا موضوعيا يجعلنا نرتاب فى فكرة وجود مجموعتين من الخزف لا رابطة بينهما على الإطلاق وإمكان وجودهما جنبا إلى جنب فى حضارة واحدة دون امتزاج بينهما مهما كانت تلك الحضارة ، لأن الغرض المألوف من المتاع الجنائزى هو حمل الأشياء العادية الخاصة بالحياة اليومية وتزويد المتوفى بمطالبه من طعام وشراب فى حياته الأخرى. ويظهر أن تزويد الميت بمجموعة من الأشياء الجديدة تماماً والخاصة بالقبر لم تكن إلا استثناء أكثر منه قاعدة وخاصة فى عصور ما قبل التاريخ ولذا فإنه بالرغم من تسليمنا باحتمال تقسيم أندرسن للخزف إلى خزف عادى وآخر جنائزى « فالأرجح » أن خزف « بانشان » يمثل طورا ثقافيا يختلف كل الاختلاف عن ثقافة « مانشيا ـ ياو ». وينبغى أن نلاحظ بهذه المناسبة أن ما يسمى « بالطراز الجنائزى » قد ورد ذكره فى سياق الحديث عن مراكز أخرى .

وأما الأطوار الأخرى التى وصفها أندرسن فتتمثل بنوع خاص فى الأوانى الخزفية التى نبشها الفلاحون بوادى هسى ننج غرب « لانتشاو » واشتراها أندرسن فى تلك المدينة . ويقال إن هذه الأوانى جلبت من منطقة ما تشانج التى عرف هذا الطور باسمها . وأهم ما فى هذه الأوانى هو الخطوط المستقيمة فى رسومها الملونة، وهذا

يخالف كل المخالفة الخطوط المنحنية فى الرسوم الملونة الخاصة بأوانى يان شان وما تشياياو
أما آنية تشو تشيا تشى التى عزاها أندرسن إلى كنسو يانج ـ تشاو ، ففيها عناصر من الرسم موجودة فى كل من آنية يان شان (الأسنان المنشارية المتعددة الألوان) وفى آنية ما تشانج (المثلثات ذات الخطوط المتقاطعة والخطوط البسيطة الأفقية والمتعرجة) وغيرها . وبناء على ذلك جعل أندرسن تشو تشيا تشى طوراً انتقاليا من « يانج شاو » إلى « ما تشانج » .

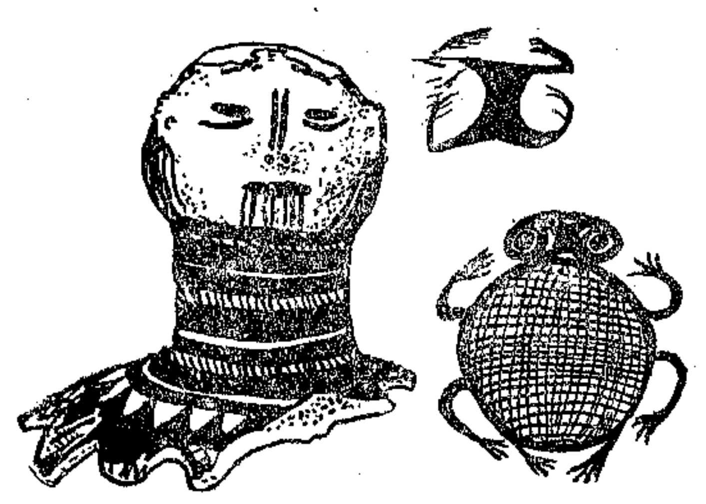
أما الترتيب الزمنى للأطوار اللاحقة فهى عند أندرسن كما يلى :

هسين تين ، وسسو ـ وا ـ تشيا ياو ، وشاتشينج . وكل هذه الأطوار كانت مصحوبة بالمصنوعات البرونزية التى تعتبر غالباً تالية لعصر ما قبل التاريخ . وبرغم ذلك فإن طراز الخزف الملون ظل باقياً فى كل طور من هذه الأطوار . ويمكن مناقشة بعض آراء أندرسن فى افتراضه هذه الأطوار من ناحية قلة الأدلة ، ولكن ذلك يخرج بنا عن غرض هذا الفصل ، ويكفى أن نلاحظ النتيجة الهامة التى انتهى إليها أندرسن ، وهى أن ثقافات عصر البرونز فى كنسو كانت منعزلة نسبيا عن ثقافة الصين التاريخية فى الشرق ، وهذا يساعد على توكيد حاجة الثقافة إلى الوحدة إبان تلك العصور القديمة فى تلك الرقعة الفسيحة من الأرض التى تكتنفها الآن الصين الحديثة . ويبدو أنه كلما تجمعت الأدلة اتضح شيئاً فشيئاً أن الانتشار كان مبعثه منطقة واحدة صغيرة متفاعلة مع منطقة أخرى صغيرة، وكان المناطق مراكز فى الأماكن التى تكفل فيها مصادر المياه وجودة التربة زراعة وافرة، ويرجح وجود مناطق كثيرة مماثلة ممتدة فى شقة واسعة من حدود تركستان إلى حوض النهر الأصفر ، وكان جنوب كنسو أحد هذه المناطق التى حافظت على توازن النمو الثقافى مع المصادر المادية وشكلت لوناً ثقافياً مستمداً من الثقافات الأخرى المجاورة لها ، وهذه بدورها كانت حافزاً على تقدم سمات جديدة إلى الشرق .

وبالرغم من اعتراضنا على أجزاء كثيرة من النسق الزمنى الذى وضعه أندرسن ،

فلا يزال محتفظا بقيمته بوصفه وسيلة للاستشهاد على أطوار خزف كنسو، وترابطها مع حضارات ما قبل التاريخ خارج حدود كنسو، أما طور تشى تشيا، فهو كما أوضحنا أمر جدلى، إذ أن اعتبار أندرسن أنه أقدم أطوار كنسو أمر غير مسلم به بناء على الأدلة الراهنة، وكل ما نستطيع قوله هو أنه من المرجح أن علاقته كانت بإحدى الثقافات الشمالية، وإن كنا لا نستطيع إلى الآن تحديد إلى أية ثقافة من تلك الثقافات الشمالية ينتمى.

والمرحلة التى أطلق عليها أندرسن اسم يانج ـ شاو — كما ذكرنا آنفا — أبعد ما تكون عن الإقناع من حيث تفاصيل التتابع الزمنى لأطوارها، أما إذا اعتبرناها مرحلة شاملة، فلا جدال فى أن يانج ـ شاو بإقليم هونان كانت شعبة من طور كنسو أو على الأرجح من الطور الذى يتمثل فى « ما تشيا ياو »، وهو الطور الوحيد الذى يمكن أن تكون فيه كنسو وهونان قد ارتبطتا فيه بمثل هذا الطراز الدقيق.



(شكل — ١١)
خزف كنسو فى عصر ما قبل التاريخ (عن أندرسن، ١٩٤٣)
(عصر يانج ـ شاو (إلى اليسار) ـ طابع عصر يانج ـ شاو (إلى اليمين فوق)
طابع عصر يانج ـ شاو (إلى اليمين تحت)

والمسألة المثيرة وهى الخاصة بعلاقات أطوار خزف كنسو بالغرب تعتبر ذات أهمية قصوى، ونحن لا نملك لسوء الحظ، فيما عدا الرسوم الملونة وأشكال الأوانى إلا القليل

مما نعتمد عليه فى هذه الموضوعات ، وهذا القليل أيضاً لا يكاد يفى بالغرض ولكنه يمكن أن يكون دليلا فقط .

وإذا أخذنا التصميمات الملونة كمجموعة ، فإنها تبدو لنا كأنها قسم يعتمد على أساس الخطوط الهندسية التى تتسم بهـا رسوم ما تشانج الملونة ـ وإلى حد ما ـ على رسوم « تشو تشيا تشى » التى نسبها أندرسن أخيراً إلى « يانج شاو » ، وعلى الخطوط المنحنية فى تصميات كل من « ما تشيا ياو » ، و « پان شان » الخزفية التى تجعلها أكثر ما تكون مطابقة لخزف الغرب ، لأن كثيراً من هذا الخزف وجد بهضبة إيران حتى إننا لا نملك إلا أن نحس أن كلاً منهما قد تأثر بالآخر إن لم يكن قد اقتبس منه .

أما تصميات پان شان الرائعة ذات الخطوط المنحنية فتثير مشكلة أخرى قائمة بذاتها ، إذ لا يوجد ما يطابق هذه الرسوم تماماً فى المنطقة الإيرانية . والواقع أن التصميات المنحنية الخطوط بوجه عام ، ظهرت متأخرة جداً فى الغرب . ويرجع الخزف الملون فى جنوب روسيا إلى سنة ٢٥٠٠ـ١٥٠٠ ق . م حيث نما فى كنف الثقافات الزراعية غربى نهر الفلجا . وكانت رسوم هذه الأوانى تشتمل على عدد من الرسوم المنحنية الخطوط بما فيها الخطوط الحلزونية . ويطلق على هذه الثقافات اسم تريبوليا Tripolje . ولبعض التصميات شبه ظاهرى بتصميات پان شان ، بل بتصميات هسين تين . ولكن وجوه الشبه هذه أضعف بكثير من وجوه الشبه التى تربط بين شمال شرق إيران وما تشانج . والمعرف عن هذه المنطقة الفسيحة فيما بين أوكرانيا وكنسو من القلة بحيث يرجى أن تقدم الكشوف فى المستقبل دليلا على تطورات الزخارف المنحنية الخطوط فى مناطق تقع شمال إيران ، وإن كان هذا أمراً بعيد الاحتمال . ويبدو أن فكرة التصميم ذى الخطوط المنحنية ليست مقتبسة من زخارف الخزف ، بل ربما من زخارف لخامات أخرى مثلما اقتبست مصنوعات شانج البرونزية طابعها الزخرفى من نماذج خشبية قديمة سابقة لها (Prototypes) .

وقد أشار مرجع آخر إلى أن الخزف الملون منتشر فى جنوب طراز آخر من الخزف الحصيرى والضفيرى الخاص بشمال آسيا . وقلما يختلط الطرازان ، فيما عدا فى شمال الصين ويعد ذلك من الاستثناءات الرئيسية . وكذلك يمكن أن يمثل هذا الطراز فى شمال الصين مجتمعاً يعتمد على الصيد وجمع الطعام وشعوبا غير مستقرة من الرعاة استوطنوا أراضى الحشائش والغابات فى الشمال ، فى حين أن الطراز الجنوبى يمثل الشعوب الزراعية التى قلما يتعدى أثرها إلى الشمال من صحارى آسيا الوسطى وسلسلة جبال وسط آسيا . ويرجح أن تقدم البحوث المستقبلة فى آسيا الوسطى ستقوم دليلا على امتزاج هذين الطرازين فى أطرافهما المتقابلة ، ولعلنا نستطيع حينئذ أن نعرف أصل هذه التصميمات المنحنية الخطوط التى أخذت بها بوجه عام ثقافات تريبوليا ، ويان شان (يانج شاو الوسطى) . وإلى أن يحين هذا الوقت ستظل ضآلة العلاقات بين الإقليمين المنعزلين انعزالا شديداً وهما جنوب روسيا ، وكنسو - ستظل حائلا دون الوصول إلى نتيجة عن تفاعلهما الثقافى (ويرجح أنه تفاعل ضئيل) .

ويحتمل بالطبع أن تكون طريقة الخطوط المنحنية مقتبسة من الطريقة الهندسية ، إذ أن هناك أمثلة على هذا التطور فى الأسلوب وجدت فى أقاليم أخرى من العالم مثل ما فى عمرى Amri بوادى السند وهى هندسية الخطوط ، أما تصميمات هاربان فمنحنية الخطوط . فإذا كان الأمر كذلك فإنا يجب أن نسلم بأثر يان شان - يانج شاو الصينى ، وأن نعتبره مساهمة قاطعة قدمها الشرق للغرب فى طريقة تصميم الزخارف على الخزف . وعلى هذا الأساس فإن افتراض أندرسن بأن التصميمات التى تعتمد على الخطوط المنحنية أسبق من تلك التى تعتمد على الخطوط الهندسية فى مجال تطور الأسلوب الزخرفى على الخزف ليصبح فرضاً واهى الأساس ، كما أنه تبعاً لذلك يميل إلى استبعاد فكرة الأصل الغربى للأسلوب الهندسى المتأخر .

وإذا أقمنا نقاشنا على أساس من الأدلة الحديثة لذهب هذا النقاش دون جدوى ، ومع ذلك ، فإلى أن يظهر دليل جديد ، - وهذا يعنى فى الواقع تكوين صورة واضحة لتسلسل الطبقات الأرضية نتيجة لأعمال التنقيب المحكمة - فلن يكون لدينا

سوى ترتيب الطبقات على أساس خزف إيران وتركستان الملون ، ومقارنته بخزف كنسو . وبناء على ذلك يمكننا أن نجد شكلا متطوراً لطراز حديث من زخارف إيران الملونة ، نشأ فى جنوب كنسو ، وهو الذى استمد منه طراز الخطوط المنحنية الذى انتشر أخيراً فى حوض النهر الأصفر وفى غيره من الأماكن .

وتكشف أطوار ما ـ تشانج ، وهسين تين ، وتشى تشيا عن بعض أباريق ذات مقابض حلقية توحى بأنها من الأوانى المنيوية Minyan الخاصة بمنطقة بحر إيجة ، ولكن هذه المقابض الحلقية كانت شائعة فى جميع الأطوار فى كنسو . وليس هناك دليل يوحى بأن هذه الأوانى الحديثة ذات المقابض الحلقية ليست متطورة من أشكال أسبق منها ، ومما يثير الاهتمام كذلك ملاحظة أن استخدام آنية « لى » المثلثة القوائم كان شائعاً إبان أطوار عصر البرونز . ويبدو أن هذه الآنية كانت متوفرة إلى حد ما .

وقد وجدت الحليات الزخرفية التى وصلت إلى غرب آسيا مؤخراً فى جميع الأطوار التى عزاها أندرسن لمنطقة كنسو ، ولا ترى هذه الحليات إلا نادراً على الأوانى الملونة حيث استخدمت فى شكل مقابض أو مشط . ومع ذلك فهى شائعة بين الأوانى الضفيرية الزخرفية التى سجلت فى مراكز مثل ماتشيا ياو ، وسسو وا ، وشاتشينج ، ولوهان تانج . وإذا اعتمدنا على دليل من غرب آسيا ، فإنا يجب أن نعتبر ثقافات كنسو متأخرة مثلها من حيث الزمن . وربما ترجع إلى الألف الثانية قبل الميلاد . وقد جعل أندرسن سنة ٢٥٠٠ ق . م تاريخاً اختباريا لبداية الطور الأول الذى سماه « تشى تشيا » . ولكننى أفضل أن أبدأ بطور « ماتشانج ـ تشوتشياتشاى » فى نحو سنة ١٨٠٠ ق . م على أساس ندرة الحليات الزخرفية وأباريق « لى » الثلاثية القوائم وغيرها ، وعلى التواريخ النسبية التى عزيت إليها ثقافات إيران التى يمكن مقارنتها بها . ولربما كان جزء من بان شان معاصراً لها ولكنه لا شك استمر زمناً ما بعدها . وتلاه مباشرة طور ماتشياتشى الذى أثر بدوره تأثيراً قوياً فى منطقة حوض النهر الأصفر ، ولكن لوهان تان يعد ثانويا بالنسبة لهذا الطور .

أما ثقافة « هسين تين » ، وهى أقدم ثقافات البرونز بحسب ما وصلت إليه أعمال التنقيب فى « كنسو » ، فهى غالباً كانت معاصرة لأسرة « شانج » الحديثة ، أى بعد سنة ١٤٠٠ ق . م . وابتداء من هذه السنة وما بعدها ، تعد التواريخ التى وضعها « أندرسن » مضبوطة تقريباً : هسين تين ١٣٠٠ — ١٠٠٠ ، وسسو ـ وا ـ تشيا ياو ١٠٠٠ — ٧٠٠ ، وشاتشينج ٧٠٠ — ٥٠٠ ق . م .



شكل ١٢ — خزف كنسو فيما قبل التاريخ فى طور تهى تشيا ينج (من أندرسن ١٩٤٣)

يبدو من المؤكد أن الأطوار السابقة على « ماتشانج » سيعثر عليها فى « كنسو » والمناطق المجاورة لها ، إذ أن ثقافات الخزف الملون فى إيران كانت قد نمت فيما يزيد على ١٥٠٠ سنة ، ويغلب على الظن أن تأثيراتها فى الصين تنحصر فقط فى أطوارها الأخيرة ، غير أنه ليس لدينا إلى الآن دليل عليها .

وتمثل « كنسو » أكثر القضايا الأثرية إثارة ، ففيها يجب الوقوف على الصلات الملموسة بين الشرق والغرب إبان عصور ما قبل التاريخ ، تلك الصلات التى لا يمكن التكهن بها على أساس الأدلة الموجودة حالياً . وكل ما نعرفه الآن يدل على أن الإقليم كان يضم مركزاً من المراكز الهامة التى بلغت شأواً ثقافياً عالياً فيما قبل التاريخ إبان

الألف الثانية قبل الميلاد على الأرجح . وقد بلغ هذا السمو الثقافى فى عصر حديث نسبياً إذا قورن بعصر ما قبل التاريخ بغرب آسيا ، ولـكنه لا شك بلغ حداً نستطيع أن نتكهن به فى الوقت الحاضر . ولقد بلغت آثاره حوض النهر الأصفر حيث برزت فى وقت قصير حضارة شانج الراقية فى سهل النهر الأصفر العتيد .

إن مثل هذه الحضارات لا تبرز فجأة ـ كما يبدو أنها حدثت وذلك دون أن تحفزها بعض الدوافع . وربما كانت بعض الأماكن مثل « هسى ننج » ، أو وادى نهر « تاوو » ، وهى أقصى المراكز الشرقية للحضارة الغربية التى تطورت إلى الشكل الذى اتجه فيما بعد ناحية حوض النهر الأصفر ، وباتصالها هنالك بالحضارات التى سبقتها أنتجت باكورة تاريخ الصين . ومع ذلك فإنا لا نملك دليلا يؤيد هذه الفكرة حتى الآن . وأعمال التنقيب المستقبلة هى الطريق الوحيد الذى يجب أن يسلكه العلماء الصينيون إن أرادوا الوقوف على مزيد من المعرفة عن أصول حضارتهم . وإلى أن يضطلعوا بمثل هذا العمل ستظل « كنسو » اللغز العلمى المحير الذى يوحى بالكثير ولا يجيب إلا عن القليل .

١١ – أسرة شانج

يحتمل أن تكون اللغة الصينية المكتوبة من أكثر مظاهر الثقافة الصينية إثارة وغموضاً ، وهى فى نفس الوقت من أكثرها جمالا . وليس هناك ما هو أكثر وضوحاً فى دلالته الصينية من الكتابة الخطية . وبرغم ما تسجله القواميس من الكتابة الخطية ، من عشرات الألوف من الحروف ، فلا يوجد بينها حرف وضع شكله اعتباطاً ، فكل شكل لا يشتمل على تطور المعانى فى لغة شعب فحسب ، بل يشتمل على عاداته وتقاليده وأفكاره وتاريخه . ويمكن تناول الحروف الهجائية من ناحيتها الحرفية ، كما يمكن تناولها فى أعمق معانيها التجريدية . وليس فى الحياة ما يحتاج إلى إدراك أوفر للنظام المناسب وإلى نظافة الخط وضبط الإنسان لقدراته بإحكام أكثر من الكتابة الصينية الجيدة . إن اللغة الصينية مصابة بالفقر وتعوزها الأصوات . وهى جافة إلى حد ما إذا قورنت بغيرها من لغات العالم الأخرى . ولكن الكتابة الصينية عكس ذلك تماماً حتى لكأنها تعويض عن نواحى العجز فى لغة الكلام . وليس هناك ما هو أوفى بأغراض التعبير من هذه الطريقة ، وذلك لأنه لا يوجد مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية غير ممثل بعدة حروف على الأقل ، ولا يفقد معنى من المعانى ظلا من ظلاله لأن أضواء الحياة وعتماتها عالقة بالخطوط الطويلة أو الفواصل المبتورة التى تحدثها ريشة ، وهى متداخلة النسج حين تستخدم فى معنى محكم أو فى مجرد الإيحاء بذلك المعنى .

والكتابة الصينية فى نظر الغربيين بوجه عام أمر لا طائل تحته وأن من العسير تعلمها ومن النادر التفوق فيها ، فهى كتابة عاجزة فى نظر الشخص الغربى المادى التفكير ، لأن الستة والعشرين حرفاً المستعملة فى لغته يسهل وصلها فى النسق الضرورى للكتابة السريعة ، أما ما عداها فعبء لا يحتمل . والجمال يكمن فى التعبير الصوتى

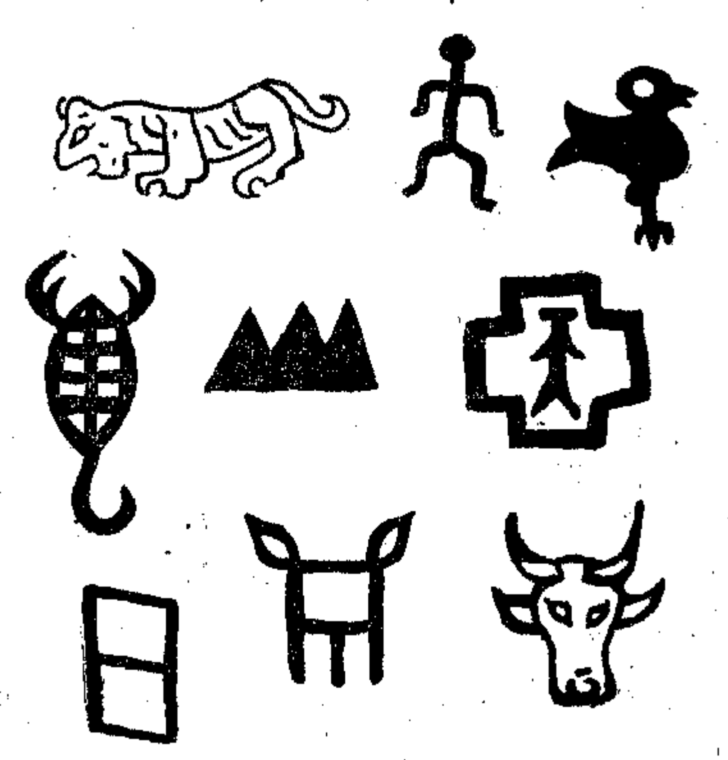
بالـكلمات أو بربط الحروف ربطاً غير مألوف لتـكوين كلمات جديدة ، أو بتنسيق الـكلمات تنسيقاً فنياً فى جمل لتبيان وجه من وجوه الحياة الغربية . ويجـد الشاعر الفيلسوف ، أو اللاهوتى الغربى مشقة فى التعبير عن أفكاره لأنه يلتزم عادة الـكتابة المطولة إن أراد الإحاطة بأفـكاره المزدحمة . ويختلف الحال عن هذا عند الصينى لأن حروفه الـكتابية يمـكن أن تـكون رموزاً طبيعية مثل الإشارة المعرجة التى تعبر عن التنين ، (انظر النقش ا) ، أو تصوراً مجرداً كالإشارة إلى الفضيلة (انظر النقش ب) الذى يبدو عليه لأول وهلة تناسق الأجزاء ، فحسن الشـكل ثم التنـاقض فى دقته وبسطة معناه .

德　　　龍

ب　　　ا

وليس فى آثار الصين القديمة ما ينفى الاعتقاد بأن الـكتابة وصلت إلى الصين من الغرب ، ولـكن فـكرة الـكتابة فقط هى التى طرأت عليها ، لأن الشكل صينى بحت . ومهما كان مصدر الفـكرة ـ سواء من الخط المسمارى بالعراق أو من الأختام المغلقة الخاصة بوادى السند أو الهيروغليفية المصرية أو الإشارات الأبجدية المتقدمة الخاصة بجزيرة العرب وفلسطين أو غيرها من الخطوط الغربية التى تنتمى إلى الألف الثانية أو الثالثة قبل الميلاد فإن الصينيين لا بد أن يـكونوا قد طوّروا شـكل كتابتهم الخاصة وأزالوا منها اللون الغربى فى وقت مبكر جداً ، وإن كنا لا نملك نماذج من الـكتابة الصينية فى ذلك الدور المبكر . والسبب فى هذا أنها كانت ترسم أو تحفر على أشرطة من الغاب الهندى أو جلد الحيوان أو الخشب التى اختفت منذ عهد طويل . ويغلب على الظن أنها كانت كتابة تصويرية . إذ يبدو أن هـذا النوع من الـكتابة كان أساس كثير من الحروف الحديثة أو كان من عناصرها . وقد ظهر فى أسواق بـكين إبان ثورة الملاكمين فى الصين (سنة ١٩٠٠) عدد كبير من السلاحف والأصداف

والعظام المنقوشة ، وكانت تباع فى متاجر بيع العقاقير ، مثلما كانت تباع أسنان الإنسان العملاق . وقد أدرك واحد أو اثنان من الصينيين الموظفين فى بلاط بكين أن هذه الكتابة قديمة جداً ، ومن ثم أخذا فى جمع الأصداف والعظام ، وقد أتم عملهما بعد الثورة صينيون آخرون ، ثم أخيراً بواسطة غربيين عرفوا أن النقوش تنتمى إلى طراز قديم . وأخذت ترجمات هذه الكتابات تتقدم تدريجياً بعد دراسة مرهقة . وكشفت هذه الدراسة عن أن تلك الكتابات كانت توسلات موجهة إلى الأرواح لكى تنبىء عن حظ شخص ما فى أمر حرب أو صيد ، أو غلة الأرض أو حالة الجو .... الخ . ولذلك أطلق عليها « عظام الكهانة » . وكانت هذه العظام تعالج قبل استعمالها بالمسح والصقل . وكان تسخينهم لأجزاء سطوح هذه العظام المعدة للكتابة يحدث بها شروخاً كان يفسر لهم العرافون أو الكهان مدلولها .



شكل ١٣ — عينة من كتابة الكهانة
من أسرة شانج

وترجع أهمية عظام الكهانة إلى سببين رئيسيين ، الأول هو أن الكتابة تكشف عن وجود ثقافة متقنة فى الصين القديمة ، والثانى أنها برهنت على أن تلك الثقافة كانت الكتابة فيها متقنة تماماً ، وذلك لأن كتابة الكهانة لم تكن بدائية بل معقدة وتشتمل على طائفة كبيرة من المعانى المضللة .

« إن كل مبدأ هام فى تكون الحروف الهجائية الصينية الحديثة كان معمولاً به من قبل إلى درجة كبيرة أو صغيرة فى « عظام الكهانة » الصينية (القديمة) ... .

وبالإضافة إلى عظام الكهانة ، وجدت فى أسواق الصين أوان برونزية معروضة للبيع وهى أوان بلغ من جمال شكلها ودقة زخارفها أن ظل الناس من الشرق والغرب يجمعونها لعدة أجيال ويحتفظون بها كأنها غنائم ثمينة . وبعض هذه الأوانى ينتسب إلى أسرة شو أو زمن متأخر عنها . ولكن من الثابت أن أدق أنواعها يرجع تاريخه غالباً إلى أسرة شانج .

ودفعت كنوز المعرفة الممثلة فى عظام الكهانة وفى الفن الذى يتجلى فى المصنوعات البرونزية ــ دفعت إلى البحث عن المواقع التى استخرجت منها . ولم يكن هذا البحث بالأمر اليسير فقد عوقه قطاع الطرق ، ومحترفو السلب والنهب والتجار وفقراء الفلاحين الذين كانوا يفيدون من سلب هذه المراكز المجهولة بانتظام . ومع ذلك فقد تجمعت الأدلة وعرف أن المركز الرئيسى يقع بالقرب من قرية هسيو ــ تون الواقعة عند منعرج نهر هوان أحد الروافد الشمالية للنهر الأصفر بشمال هونان . وقد عرف هذا المكان بأنه عاصمة أسرة شانج المتأخرة ، وكان يطلق عليها آن ــ يانج .

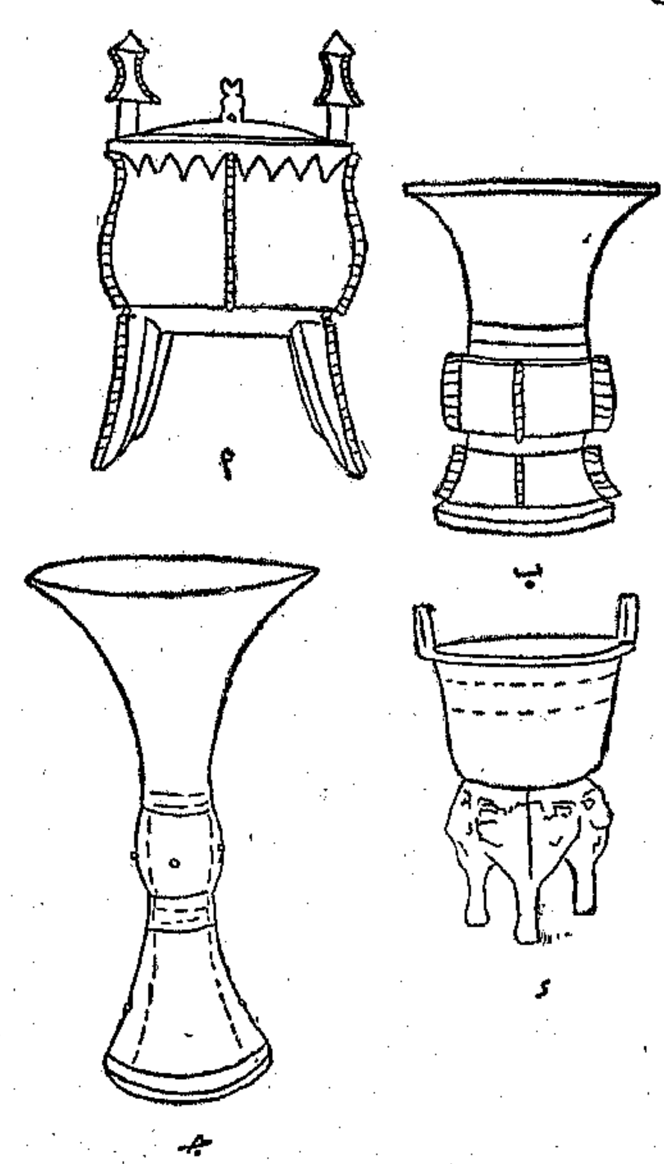
وقد كشفت الحفائر التى قام بها معهد البحوث القومى الصينى عن عظمة مملكة كان البعض يعدها من قبل مملكة أسطورية ، وهنا قام دليل مادى قدمه علم الآثار يؤيد تقارير المؤرخين الصينيين المتأخرين . وفى المدة من سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٣٦ سارت أعمال الحفريات قدماً وعلى مدى واسع ، ولكن نشوب الحرب اليابانية وما تبعها من متاعب فى الصين أدى إلى توقف العمل فى ميدان الحفريات ، واشتد

النشاط فى نقل المجموعات إلى غربى الصين ، وأخيراً إلى فرموزا حيث بقيت إلى اليوم تنتظر نشر معلومات عنها بشكل مناسب ، ومنذ وقت قريب جداً زار الولايات المتحدة الدكتور « لى تشى » وهو المسئول الأول عن هذه المجموعات فى أثناء رحلتها الخطرة ، وكان يأمل من زيارته الحصول على مساعدة لنشر معلومات عن هذه المادة ، ومن المنتظر أن تقدم مثل هذه المساعدة لأن أمجاد « شانج » تسمو إلى مكانة « بابل وطيبة » ، ومن المؤسف أن تظل مجهولة لعدم اهتمام الغرب .

ومركز « آن يانج » معقد التكوين ، فالمساحة الرئيسية تقع فى منحنى نهر هوان حيث تقوم هذه المدينة نفسها ، ولعل هذا المنحنى استخدم خندقاً يحمى المدينة من ثلاث جهات (الشرق والشمال وجزء من الغرب) ، ويرجح كثيراً أن جداراً حاجزاً من الطين شبيه بجدار « تشينج - تزو - ياى » مكانه غير معروف الآن كان يكمل تحصينات المدينة من الغرب والجنوب . وكان العامل الهام فى اختيار هذا الموقع لإقامة مدينة عليه هو وجود حماية قوية من المرتفعات الكثيرة الأنهار الشبيهة بمرتفعات « هسياو تون » فى قاع سهل اللويس نفسه بشمال هونان .

وتقع « آن يانج » بالقرب من نهر هوان ، وكانت مركزاً لسهل زراعى غنى على مسافة ٢٠ ميلا فقط من الجبال ، وهو موقع مثالى للمدينة الصينية لأن غلات من السهل المنبسط تمون سكان المدينة،وموارد الجبال تهيىء لهم الثراء ، والواقع أن المدينة كانت نتيجة للسهل ولا يمكن أن تنفصل عنه . وفى أوربا وبعض جهات آسيا تقوم المدينة الحصينة على قمم التلال المجاورة فتتسلط على الحقول المنبسطة تحتها ، وهو منظر مألوف حتى يومنا هذا ، ولكنه حين يظهر فى الأصقاع الصينية يكون عادة من العناصر الأجنبية الدخيلة عليها ، لأن المدينة كالقرية ، نتيجة للثروة الزراعية ، ولا يمكن لمدينة أن تعمر زمناً طويلا فى عزلة عن التربة التى تمدها بالطعام ، ومع ذلك فإن الجبال ينبغى ألا تكون على مسافة بعيدة جداً من المدينة ، ذلك لأن وظيفتها لا تقتصر على إمدادها بالأخشاب والأحجار والمعادن التى تتكون منها المواد الأولية للبناء أو الصناعة

فحسب ، بل تهيء للمدينة العناصر الجمالية التى يحتاج إليها كل مجتمع بشرى ، وكما كانت الحال بالنسبة إلى بكين ، ولو يانج ، وعاصمة تشو ، كانت كذلك بالنسبة لمدينة الشانج العظيمة .



(شكل — ١٤) أشكال لأوان صينية قديمة

أ — تشيا   ب — تسن   جـ — كو   د — هسين

ولقد وجدت مقابر الشانج فى المناطق المنعزلة فى جوانب عديدة من مرتفعات نهر هوان . وبالرغم من أن عدداً كبيراً من القبور كان قد نهب فقد وجدت عدة مقابر سليمة كما هى ، والواقع أن لصوص المقابر فى بحثهم المجنون عن السلع البرونزية الصالحة للبيع كانوا يتغاضون عن الأشياء التى لا تفيد إلا علم الآثار . وقد أمدت أعمال التنقيب بالإضافة إلى فتح المقابر التى وجدت فى مكان السكنى بين عامى ١٩٣٤ و ١٩٣٦ — أمدت دارسى الثقافة الصينية وتاريخ الصين بمادة غنية كشفت الستار عن أمجاد (أسرة) شانج فى عهدهم الزاهى الطويل وبعد جمع البقايا المحزنة التى استطاع الأثريون حتى الآن استخلاصها عن الصين القديمة ، توفرت كنوز الشانج الفنية المتصلة بالحياة اليومية فكان منها القلائد من حجر اليشم ، والحلى من حجر اليشم والأحجار الصلبة ، وشتى أنواع النحت ، والعظام والأصداف الدقيقة الصنع ونصال السهام ودبابيس الشعر ، والأسلحة والأدوات والأوانى البرونزية وقطع الخشب الملونة والمركبات والنير البرونزى (الذى تشد إليه الثيران) وعدة الخيل ، وقاعات القبور المزودة بكافة الحاجات الضرورية لما بعد الموت حيث كان كل شىء فى موضعه وكميات من عظام الكهانة المكتوبة والآلات الموسيقية والخزف الأبيض الفاخر وبقايا خيول الشانج ، وأجداث الحكام وأتباعهم وغير ذلك من الأشياء الثمينة الجديرة بالملوك .

هذا هو الجو الملكى الذى ينتشر فى آن ـ يانج ، وهو الذى يقتضينا أن نصف انفعالاتنا منذ البداية ، لأن الذى عرف من عظام الكهانة ومن التقاليد المدونة ومن مشهد البقايا ، أن آن ـ يانج كانت مدينة ملكية وعاصمة أسرة يانج المتأخرة (بعد سنة ١٣٠٠ ق . م) . وربما كان من النواحى التى لا تقابل بالرضى فى التقارير التى نشرها المنقبون حتى الآن ، هو أن اهتمامها المستمر موجه إلى المقابر وأنه كما هو واضح أقل تركيزاً على المدينة نفسها . كما أن اهتمام الشراح بحضارة الشانج كان موجها إلى إبراز المظاهر الفنية والرسمية أكثر منه إلى زيادة معلوماتنا عن الحياة العامة فى أخريات الألف الثانية قبل الميلاد . وحتى لو غضضنا النظر عما تمليه كنوز القبر من خطأ فى

الحكم ، من حيث أننا نتناول بالبحث قصبة ملوك الشانج حيث تتجه أروع ثقافة مادية أنتجها ذلك العهد إلى التجمع ، كل ذلك يفسر السبب الذى من أجله كان يجب أن ننبه إلى التقدم الثقافى فى بقية منطقة النهر الأصفر ، وكان هذا التنبيه ضرورياً لأن الوثبة من حياة القرى الريفية على عهد يانج ـ شاو ، وتشينج ـ ترو ـ ياى . إلى مدينة قصور شانج تعد وثبة هائلة . . . بل كانت فى الواقع طفرة أطلق عليها بعض المتخصصين فى التاريخ الصينى « الانبجاس المفاجىء » فى الثقافة الصينية . وبالرغم من أن التقارير الخاصة بتسلسل الطبقات الأرضية فى هسياو ـ تون تشير إلى أن ثقافة الخزف الأسود تقع تحت الطبقة الحاملة لثقافة الشانج ، فتكون بذلك أقدم منها ، ونحن رغم ذلك لا نستطيع أن نسلم استناداً إلى الأدلة الراهنة بأن التقدم الذى تمثله مواد الشانج كان سائداً فى الصين الشمالية كلها ، بل العكس تماماً هو الأصح ، لأننا نعرف من العهود المتأخرة أن زمناً طويلا قد انقضى — أى عدة قرون فى المعتاد — قبل أن تستخدم الصين الريفية الطرائق التى اصطنعتها الصين المتحضرة ؛ ومن ثم لا نستطيع أن نسلم مثلا أن مركبات شانج الملكية تمثل استخدام جمهرة الشعب الصينى للعربات ذات العجلات كما يريدنا البعض أن نصدق ذلك .

ونحن نستطيع على أساس هذه التعديلات أن نوافق على أن مواد « آن ـ يانج » مثال مدهش لثقافة ملوكية فاخرة ، لأنها فى الواقع ثقافة تشتمل على كثير من العناصر التى نعرف اليوم أنها صينية حقيقية . أما مدى تغلغل هذه العناصر فى منطقة الصين الشمالية إبان عهد « آن — يانج » الذهبى ، فهو سر فى ضمير الغيب قد تستطيع فى المستقبل أن تكشف عنه الستار معاول التنقيب عن الآثار .

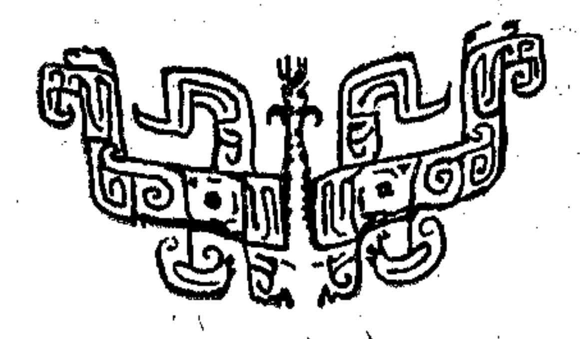
سر فى ردهات أى متحف رئيسى من المتاحف التى تضم مجموعة صينية ، فلا مناص للمتفرج اليقظ من أن يقضى أطول وقت ممكن أمام مصنوعات شانج البرونزية ، لأن جمالها الحقيقى وأناقة النمنمة المدهشة فى كل آنية ، والحركة الدائمة التغير فى الزخرف العام الذى يغطى الثنيات واللفائف ، وشذا رقصة موت « تاؤ ـ تيّه » Tao tieh بعينيها

الماثلتين على الدوام ، ورسوم الحيوانات الجانبية التي يمكن أن تتحول في طرفة عين من تنانين إلى طيور أو حشرات ، وفوق كل ذلك الشعور بالطقوس الدينية الذي تستدعيه إلى الذهن المصنوعات البرونزية التي قد تكون بسيطة في فكرتها ولكنها غنية بإحكام صنعتها ونقمها ، كل ذلك يحتمل أن يكون بعض الأسباب التي تحمل الناس إلى اقتناء هذه الأواني .

ولكن قد يكون أقوى الأشياء على اجتذاب الانتباه ذلك الوصف الخاص بالمصنوعات الدقيقة التي لا يحدها حصر . وخير المصنوعات البرونزية جميعاً ما كانت ذات أركان وزوايا . فالحزازات مربعات وليست مستديرة ، والتماثل محكم ، والتكوين مضبوط ولكنه غزير في نفس الوقت ، وهذه الصفة ، صفة الزوايا هي التي تعيد إلى الذاكرة فن خراطة الخشب وتوحي بأسلوب السلف الفني بالتصميات . ويحتمل أن الأواني كانت تصب في قوالب من الصلصال إذ استخلصت منها قطع من آن – يانج ، وهذه بدورها صبت منها نماذج من الشمع ، وهي طريقة فنية حذقها الصينيون القدامى وكانوا من أساتذتها الأولين ، فلم يبزهم في منتجاتهم أحد أو حتى استطاع أن يبلغ مبلغهم فيها .

ومن المتعذر في مجال كتاب كهذا أن نمعن النظر في تفاصيل فن التصوير على البرونز لأنه موضوع معقد ويغري المرء بما فيه من فتنة بمتابعة الإمعان ، ولقد تناول هذا الموضوع بالبحث عدد كبير من المتخصصين في هذا الميدان ، وإلى هؤلاء نحيل القارىء . ومع ذلك فهناك بعض المعالم البارزة يمكن أن نوجزها :

إن الأواني ذات شكل مميز ، وقد أطلق الصينيون على كل شكل منها اسماً خاصاً ، وبعضها صادفناه في الخزف مثل التنج Ting والهسين Hsien ، والبعض الآخر جديد وأصبح رمزاً على الشانج .







شكل ١٥ — الرسم تاو — تيه
إلى اليسار عصفور ، وإلى اليمين تنين

ويظهر أن الزخرفة كانت ذات أنواع ثلاثة :

(١) التصميم البارز الذى كان يشتمل عادة على قناع وحشي أو على وجه يطلق عليه تاو ـ تيه ، تحيط به أشكال أخرى من الطيور والتنانين وحشرة زيز الحصيدة وغيرها أسطورية كانت أو طبيعية . أما دلالة الـ (تاو ـ تيه) فهى غير معروفة ، ومع ذلك فلا شك أنها كانت ذات معنى فى الطقس الدينى الذى كانت تستعمل فيه الآنية . وقد أوضح كريل Creel وغيره المظهر المتعدد فى رسم الا « تاو ـ تيه » فهذا المظهر نتيجة الأسلوب الفنى الذى اتبعه الشائع وهو أخذ قطاعات طولية من أشكال حيواناتهم ، وفى حالة الزخرفة باا (تاو ـ تيه) يمثلون المنظر الأمامى للوجه مع الشطر الجانبى من الجسم على الوجه المقابل ، فإذا ما غطيت بيدك نصف الـ (التاو ـ تيه) فإنك

تستطيع أن ترى الشكل الجانبي لتنين جسمه عبارة عن أذن (التاو ـ تيه) تماماً ، ويمثل ذيل التنين كذلك طائراً ذا منقار قوى .

(٢) الأرضية ذات المحيط المزخرف الذي يكون أحياناً من الرسم البارز وهذا يتكون عادة من نماذج أسطوانية مترابطة قصد بها إضافة عنصر الحركة على الرسوم البارزة .

(٣) الإطارات أو حواف الأوانى ، ويمكن أن تكون ناتجة من تجزئة القالب ، أو كانت تستخدم مقابض ذات نفع ، وهى مزخرفة بوجه عام .

وبالإضافة إلى الأوانى الطقسية ، فهناك الأسلحة والأدوات والزخارف المحفورة على البرونز حفرا جميلا ، وغالباً ما تكون مزخرفة كذلك . والأسلحة بنوع خاص بالغة الجمال مختلفة من حيث الطراز والأشكال عن تلك التى كان يقصد منها أن تكون للاحتفالات ، أو لأغراض الزينة فى القبور .

وتعد بلطة القتال السلاح الصينى المميز ، وكانت ذات حد لامع محدب ، حاد قاطع بحيث تؤدى الغرض الحربى أو الطقسى على خير وجه من الكفاية . وهناك سلاح آخر مميز هو « كو Ko » أو البلطة الخنجرية ، وقبضتها تتصل بالنصل بزاوية قائمة ، ولذا فإن هذا السلاح لابد كان استخدامه أداة للقطع أكثر منه للطعن . وكانت رأس كل من الرمح والحربة والسهم تصنع من البرونز أو الحجر على السواء . وكانت بعض رءوس السهام تصنع كذلك من العظام وهى شبيهة بالسهام التى وجدت بمركز يانج ـ شاو ، و تشينج ـ تزو ـ ياى .

ومع ذلك ، فبقدر معلوماتى الراهنة ، لا أعرف أية نماذج من القوس قد عاشت على الزمن حتى الآن ، ولذا فإننا نستطيع أن نسلم بناء على « نقش الكهانة » أو الصور ، أن القوس المركبة كانت هى السلاح المثالى فى الحروب ، وهى السلاح الفعال بآسيا الشرقية ، وترجع كفايتها الأساسية إلى عظم قوتها الضاربة من المسافات القصيرة ، وهى سلاح الفارس ، لقصرها وقوتها وكان على شعوب غرب آسيا وشرق

أوربا إبان الغزاوات المغولية فى القرن الثالث عشر الميلادى أن يواجهوا هذا السلاح بوصفه من سلاح الفرسان ، فهو يستطيع على المدى القصير اختراق الدرع ، وبذلك كانت قوته المدمرة عظيمة للغاية ، بل إنه كان فى الواقع يدمر قوات الغرب المدرعة. وفى عهود الشانج كانت تستخدم القوس المركبة غالباً لقذف الهدف فى مسابقات المهارة التى كانت تعقد كثيراً فى الأزمنة المتأخرة .

وتوحى هذه الأسلحة بوجود أعمال حربية متنقلة ، فنحن نعلم أنه فى أواخر التاريخ الصينى كان استخدام المركبة شائعاً فى الأعمال الحربية ، ومع ذلك فقد كان أول ظهورها فى عهد الشانج ، ولكن يبدو أن ركوبها كان أقدم من ركوب الخيل فى الصين على الأقل .

وكان حكام آن - يانج يقدرون العربة تقديراً كبيراً ، حتى لقد كانت عرباتهم الخاصة وخيلهم وسائق عربتهم ومتاعهم تدفن بالقرب منهم عندما يقضون نحبهم . وقد نشر أخيراً معهد الآثار بأكاديمية العلوم فى بكين تقريراً عن كشف عجيب لقبر من هذه القبور وجد سليما بكل محتوياته .

ولقد استخدم حكام الشانج المركبة ذات العجلتين ، يجرها حصانان (وأحياناً أربعة خيول . وكانت هذه المركبات تصنع من الخشب بعجلات ذات برانق مجهزة بأدوات من النحاس ومزخرفة بالنقوش الصينية والحرف الدال على المركبة هو فى الحقيقة صورة لتلك العربات التى تجر من أعلى (تشى = ch'e - انظر الرسم) .



ولا شك أن هذه المركبات كانت تقوم بمناوراتها العسكرية على سهل الصين الشمالى المنبسط فى كثير من اليسر . وقد سمح هذا اليسر لقوات الشانج بسرعة التجمع فى أى مكان مهدد بالعدو . وكثيرا ما كان حكام الشانج قادرين على تمويل قواتهم الراكبة وجمع شملها فلا بد

أنها كانت تشكل قوة ضاربة هائلة ويغلب على الظن أن شخصين ، وربما ثلاثة أشخاص كانوا يركبون العربة الخفيفة المصنوعة من أغصان الصفصاف أو الخشب (باق من هذه العربة أثر ضئيل) وكان سائق العربة مشغول اليدين بقيادة الخيل ، فلا شك أن كل عربة كانت تزود أيضا بشخص من الرماة، والواقع أن القوس المركبة ربما كان سلاحاً فتاكا إذا ما تناولته يد راكب ماهر . ويستطيع الإنسان أن يتخيل نضالا تمتحن فيه على الدوام مهارة رماة النبال من العربات المتحركة . وبعض العربات ربما كان سلاحها الرمح الذى يرجع استخدامه كسلاح للطعن مثلما استخدمه فرسان العصور الوسطى بأوربا. وقد أضفى هذا الرمح على المركبة المسلحة قدرة هجومية لا تتوفر فى القوس . أما فى حالة اشتباك الجنود وجها لوجه فكانت تستخدم بلطة المعركة والبلطة الخنجرية. ولقد عثر فى أعمال التنقيب على خوذات من البرونز كايغلب كثيرا على الظن أن يكون الدرع المثالى المشقوق، الخاص بآسيا الشمالية كان يستخدم كذلك ، بالرغم من عدم العثور على شىء من هذا فى آن - يانج . وكانت الخوذات مزخرفة بصور وجوه منقوشة يكلل غارها ريش زاهى الألوان .

وبالرغم من وجود السلاح الضارب فى المركبات فمن المقطوع به أن الجندى الراجل المسكين ، كان يتحمل صدمات الحرب كشأنه دائما ، ومع أن جيوش الشانج لم يتجاوز عددها بضعة آلاف على الأرجح ، فإن حراسة النقط الاستراتيجية وتطهير منحدر جبل أو غابة من العدو أو صد هجوم المركبات الحربية - كل ذلك كان يقع على عاتق الجنود المشاة. ونحن لا نعلم كثيرا فى الوقت الحاضر عن هؤلاء الجنود المشاة، فلم يعثر فى مخلفات ثقافة شانج على أثر يدل على طريقة تجهيز الجنود بالمعدات ولا على مراكزهم .

وظاهر أن السكنى فى مركز هسيو - تون كانت فى قصور ، لأن كثيراً من الأبنية التى كشفت عنها أعمال التنقيب كانت فسيحة جداً يبلغ طول بعضها ٩٠ قدماً وعرضها ٣٠ قدماً . وكانت الأبنية تقام على مصطبة مستطيلة من الأرض المدكوكة ، يطابق بناؤها أبنية شرق آسيا فى ذلك الحين . أما جدرانها فكانت تصنع من أعمدة

خشبية مستقيمة تثبت فى ثغرات محفورة فى أرض القاعدة وكان يثبت بين الأعمدة المعدة لحمل السقف شبكة أو إطار من الخشب . وكان يحمل السقف المنحدر (جملون) صف من الأعمدة المتباعدة المقامة فى الوسط ، وكان السقف غالباً ما يصنع من القش . كما أنه من المحتمل أن يكون مدخل البناء من الجانب الأطول لا من طرف البناء كما كانت الحال فى مبانى الإغريق .

وكان تزيين البناء يتم بالطلاء الداخلى ولربما كانت هناك أيضا لوحات حائطية متعددة الألوان (فرسكو) أو تشكيل لسطوح الأخشاب الظاهرة للعيان ، كنهايات الدعائم أو إضافة تماثيل من الحجر أو زخارف من البرونز للعواميد والدعامات الخشبية .



ولا ترجع معظم معلوماتنا عن هذه الأبنية إلى شواهد من الحفريات ، بل إلى نقوش الكهانة الخاصة بالبناء ، فهى تكشف عن المنظر النهائى لأحد هذه الأبنية (انظر الشكل) ففيه ترى القاعدة والأعمدة والسقف المنحدر مصورة بوضوح،وهذا مثل بارز يوضح أثر دراسة الرموز الكتابية فى سد الثغرات الموجودة فى معلوماتنا الأثرية . أما المصاطب التى كشف عنها التنقيب فتبين بوضوح حفر الأعمدة التى يقوم عليها السقف ، فلولا الحرف الدال على البناء لما عرفنا شكل السقف ، ومع ذلك فإن ترتيب الحفر الخاصة بإقامة الأعمدة قد يمكننا بقدر من الفطنة وإعمال الذهن من استنتاج شكل السقف المذكور .

والنحت من الأشياء المدهشة التى اكتشفت فى آن ـ يانج . وموضع الدهشة فيها أنها لم تكن متوقعة إذ قلما عرف عن الصينيين خلال تاريخهم الطويل أنهم اتخذوا من النحت فنا مميزاً لعصر من عصورهم ولو أنه قد بلغ حداً كبيرا من الإتقان من عهد أسرة هان حتى أسرة سنج ، ولكنه كان هزيلا جداً على عهد أسرة تشو ثم

فقد حيويته بعد أسرة سنج لتقوم قائمته ويزدهر مرة أخرى فى عهد الشانج ، الأمر الذى يدعو حقا إلى العجب .

وكانت التماثيل تنحت من الرخام الأبيض أو الأسود ومن الحجر الجيرى واليشم بأحجام مختلفة من بضع بوصات إلى ما يزيد على الحجم الطبيعى . وكانت الموضوعات المحببة إليهم هى الطيور والحيوانات وأشكال الوحوش الأسطورية. وكانت بعض التماثيل مجوفة وتركب غالباً على قواعد خشبية لتزيين الأعمدة والجدران وهى فى معظمها كالكتلة يوحى شكلها بالجاموسة والفيل والخنزير والضفدعة والسلحفاة أو صورة وحش . وكانت تغطية الحجر كله بالنقوش من الأمور الشائعة وذلك بتصميمات شبيهة لتلك التى على البرونز .

وتدل البحوث التى تجرى فى مركز « آن ـ يانج » على أن هذه المدينة كانت مقسمة إلى أقسام يعيش فى كل قسم جماعة معينة من الفنانين أو الصناع ، ومن ثم أصبح هناك صناع للبرونز والخزف وحفر الخشب وغير ذلك ، أكثر مما كان بمدن شرق آسيا المعاصرة لها . ويدل الاعتراف بنظام الفنانين المتخصصين هذا على أن المركز الاقتصادى كان متقدماً فى الشانج ، لأنه كان من الضرورى إطعام هؤلاء الصناع المهرة وإمدادهم بالمواد اللازمة لحرفهم وهذا بدوره يتطلب ترابطا بين المدينة والريف ، وهو ترابط لا يتحقق إلا فى ظل قوة ضبط مركزية .

كان لابد أن يطول هذا الفصل طولا لا يقف عند حد ، إن أردنا وصف ثقافة أسرة « شانج » فى مدينة « آن ـ يانج » من حيث مجالها وتفاصيلها ، فقد جمع مهرة صناع شانج بين الناحية الجمالية ومطالب الحياة المادية ، فى الحجر والبرونز والصلصال والخشب والصدف والأسلحة والزخارف وغيرها من الأشياء التى أنتجوها . كما أن اختلاف أنواعها كان أمراً خارقا للعادة ، وكثير منها كان جميل الصنعة الأمر الذى يجعلنا نقف مشدوهين أمام القيم الجمالية لعمال الشانج المهرة الذين أبدعوا هذه التحف .

فالأقراط المصنوعة من حجر اليشم ، والخزف ، وحجر الفيروز الذى رصعت به

بعض المصنوعات البرونزية ، كل ذلك يحكم على دقة خبرتهم بما كان لديهم من مواد (١).

أما مجموعة الحيوانات التي اكتشفت في « آن ـ يانج » فهي عجيبة حقاً ، إذ وجد من بين الحيوانات المستأنسة الخنازير والكلاب والماشية والخيول وجاموس البحر والأغنام والماعز ، وربما استؤنس الدجاج أيضاً ، وإن كان الدليل على ذلك غير كاف ، وكان شعب الشانج من مهرة الصيادين ، وكان قنص الحيوان يعد عملا نبيلا مريحاً ، ويجب أن نسلم بأن معظم الحيوانات البرية التي ثبت وجودها في « آن ـ يانج » كانت محلية في صفاتها ، ومع ذلك كان الصيادون دون شك يتجولون في الحقول البعيدة ويعثرون على أنواع أخرى ، فالأرانب البرية والخنازير الوحشية ، والغزلان والبقر الوحشي كانت أهم الحيوانات التي تصاد أو تقتنص بالفخاخ ، وكان بعض هذه الحيوانات مع غيره من الحيوانات المستأنسة يقدم قربانا . ووجدت عظام الحوت في « آن ـ يانج » ، ولا شك أن هذه العظام مجلوبة من ساحل الصين الشرقي . وكانت أصداف المحار تستخدم وسيلة للتبادل ، وهذه أيضاً كانت تجلب من ساحل البحر ، وقد تكون من جنوب نهر ينجتسي . كما وجدت بقايا الفهد والخرتيت والفيل وبقر النهر والثعلب وبعض الدببة مع طائفة كبيرة من بقايا الحيوانات القارضة .

وتؤكد كثرة البقايا الحيوانية ، والإشارة المتوالية في عظام الكهانة إلى الصيد ، أهمية هذا العمل في حياة شعب الشانج ، ومع وجود الأدلة الوافية التي تبين أن أساس اقتصادهم هو الزراعة ـ بما في ذلك زراعة القمح والأرز وتربية دود القز ـ فإن دور الصيد لم يكن دوراً ثانوياً . والواقع أن الإنسان ربما كان يرجح أن حضارتهم كانت حضارة صيد لولا وجود نقوش عظام الكهانة ، ولولا سعة المدينة التي لا يمكن أن يقوم الصيد وحده بأود سكانها ، ويجب أن نذكر أيضاً أن الصيد كثيراً ما يكون « رياضة الملوك » فطبيعي أن يكون للصيد أهمية في مدينة ملكية كهذه ، ولا محيص

(١) يجب أن نذكر أيضاً الزمار والأحجار الموسيقية أو النواقيس .

لنا فى هذه المناسبة من مقارنة الشانج بحكام مصر فى عهد الدولة الحديثة ، وحكام آشور وفارس ، فقد كان هؤلاء الملوك يصورون وهم فى مركباتهم الفاخرة يذبحون الفريسة ، بينما يهتف أتباعهم أو يقفون فى مهابة . وتردد الفيـدا Rig-Vids [(١)] الصفات الإلهية التى يتصف بها الصياد المقاتل فيما يلى :

« هلم يا ماروتس (ملوك العواصف) على عجلاتكم المشحونة بالبرق ، فرجعوا الأغنيات الشجية ، مزودين بالرماح ، على أجنحة الخيل ! خفوا إلينا كالطير ، بخير ما عندكم من طعام ، أيها الملوك الأقوياء » .

ويظهر أن الديانة هى سبب التماسك بين أطراف ثقافة الشانج السامية ، إذ ليس بين مراكز الثقافة القديمة فى الصين مايبز مركز « آن - يانج » امتزاجا بجو الدين ؛ فابتهالات الكهانة المنقوشة تستعين بعالم الأرواح ، لأن العالم المادى بالنسبة للصينيين ملىء بالأرواح . . الأرواح التى تحتاج أحياناً إلى الترضية ، فهى التى تستطيع أن تمنح العون أو تمنع ، ولكنها أرواح لا يمكن تجاهلها تماماً . وتستطيع هذه الأرواح أن تعيش فى أى مكان - فى الصخر والجبل والسحب وتحت طبقات الأرض أو بقرب بئر . وكانت هناك أرواح شتى ، للريح والنهر والتربة والنار ، وربما كانت أهم الأرواح جميعاً هى أرواح الأسلاف .

ولعل الاهتمام بالصلة الوثيقة بين الأحياء والأموات هو الذى جعل الآسيويين الشرقيين فى معزل عن بقية شعوب آسيا ، فلم يكن الموت عندهم نهاية نشاط الفرد على الأرض ، بل كانت غايته تخليص روحه لكى تقوم بنواحى نشاط بارزة موجهة إلى مصلحة الأحياء. والوالد الحكيم المحبوب لاينتهى حبه وحكمته بالموت ، بل يصبح بعد الموت قادراً على مزاولة مثل هذه الفضائل لخير أسرته ، وكثيراً ما أبقت الأسرة على تلك الصلة الروحية . وأرواح الموتى كانت ماثلة أبداً ، وكانت وسائل الاتصال

(١) كتاب مقدس عند الهنود .

هى الصلاة وتقديم القرابين ، وتبادل الاجتماعات بين أفراد الأسرة والأرواح كما اعتقدوا بأن تجاهل أرواح الأجداد يجلب سخطها فتصيب من شاءت بالفشل والكوارث إذا أرادت ، أما إذا ما وضعت الأرواح فى مكانها اللائق بها بين الأحياء استطاعت أن تقوم بدور بارز فى جلب الحظ أو فى التحذير من الشر .

وإذن فلدينا فى صين الشانج عالم فسيح يدين بالمذهب « الحيوى » أو حيوية المادة ، لا يعيش فيه أسلاف الشخص وحدهم بل أسلاف الملوك والمحاربين والحكماء ، وأى روح من تلك الأرواح كانت تستطيع القيام بدور ما فى حياة الناس . يضاف إلى ذلك وجود أرواح للطبيعة من الضرورى الالتفات إليها فى أوقات معينة . وأحد هذه الأرواح معبود غامض ، ولكن يظهر أنه كان أقوى المعبودات جميعاً ، وكان يطلق عليه اسم « تى » أو « شانج تى » ، وقد تكون هى الأسلاف الأولى للشانج أو للصينيين أنفسهم .

ولعبت الضحية دوراً كبيراً فى عبادة الروح عند الشانج ، ويقول كريل : « إن الصينيين القدماء اعتبروا الضحايا طعاماً حقيقياً للموتى » ، فالحيوانات والمشروبات والفاكهة والخضروات ، وحتى الأدوات المنزلية كانت تقدم فى شكل ضحايا بشتى الوسائل ، وأهمها الاحتفال بحرق الهدايا حيث يتصاعد دخان الضحية ويرتفع إلى السماء حاملا صلوات أو رغبات الأحياء . وكانت الضحايا تقدم لعدة أسباب ، وتستخدم عادة هدية للأرواح قبل تقديسها الذى يتم بتسجيلها على « عظام الكهانة » ولا نعرف هل كان تقدم الضحايا يتم داخل المعابد أو خارجها ، وإن كان من المرجح أن ذلك الأمر يعتمد إلى حد كبير على طبيعة الاحتفال .

ومن المعروف أنه ابتداء من حكم الملك « بان كنج » (التاريخ الرسمى سنة ١٤٠١ — ١٣٧٤ ق . م) جلس على عرش « آن ـ يانج » اثنا عشر ملكا هم الذين تتكون منهم قائمة أسرة شانج المتأخرة . وفى أخريات أعمال التنقيب التى قامت بها الأكاديمية الصينية فى آن ـ يانج ، أميط اللثام عن عدد كبير من القبور

بالقرب من شمال « هسياو تن » . كما عثر حديثاً على مقبرة أخرى مشابهة فى قرية « ووكوان » التى لا تبعد كثيراً عن الأماكن السابقة ، وجميع هذه المقابر مبنية على نمط واحد بشكل عام يمثل حفرة كبيرة مستطيلة . ويبلغ طول القبر الذى وجد فى « ووكوان » ٤٦ قدماً وعرضه ٣٩ قدماً ونصف قدم ـ وهو غائر تحت الأرض إلى عمق نحو ١٥ قدماً حيث يبدأ فى التدرج فنرى فجوة أخرى فى الوسط محفورة إلى عمق ١٥ قدماً أخرى . وبداخل هذه أيضاً حفرة أخرى عمقها ثمانى أقدام ، وأحيانا نجد فجوة أخرى فى قاع الحفرة الأخيرة تتسع لجثة الميت . وكانت الجثة التى عثر عليها فى « ووكوان » جثة محارب مسلح برأس بلطة ، ووضع فوق هذه الفجوة تابوت خشبى لميت ملكى . وكانت جدران الفجوة العليا وأرضها وسطحها مبطنة بكتل من الخشب ، وهذه بدورها كانت تستخدم قبراً آخر .

وكان الوصول إلى الدرجة العليا يتم بواسطة أسوار من الشمال والجنوب ، وكان لأحد هذه الأسوار أحياناً (الشمالية عادة) بضع درجات . ويبلغ طول السور من أسوار « ووكران » ٤٩ قدماً وبوصتين ونصف بوصة . ويبلغ طول السور الجنوبى فى هو كانج ٦٥ قدماً وعرضه سبع أقدام . كما تبين فى أعمق الحفر ـ حيث كانت بقايا التوابيت لا تزال ماثلة ـ أن لصوص المقابر كانوا قد تركوا ما يكفى للدلالة على أن جثة الميت كانت محاطة بالبرونز الطقسى وحجر اليشم والعظام المنقوشة والأسلحة وغيرها .

ولقد سبق أن أشرت إلى وجود هيكل عظمى لمحارب بأسفل التابوت فى مقبرة « ووكوان » ، وكان هذا المحارب فيما يظن حارساً وضع للدفاع عن قبر الملك ضد أعدائه الذين قد يهاجمونه من أسفل . وفى قاع السور الشمالى وجدت عدة قبور أخرى لخيل ، ومجموعات من المركبات ، والكلاب ، والرجال ، وكان بعضهم يحمل ناقوساً . ويظن أن هؤلاء كانوا حراساً آخرين للمقبرة كما وجد على الدرجة الرئيسية ٤١ هيكلا عظمياً لأشخاص بينها ٢٤ هيكلا لنساء دفنت معاً فى الجهة الغربية بعناية ، بل جهز بعضهن بأثاث جنائزى .

وكانت الحفرة مليئة بالتراب المدكوك الذى يضم هيا كل حيوانات كالـكلاب والغزلان والقردة وغيرها . أما الجماجم البشرية فـكانت موزعة فى هذه الأرض المدكوكة ، فى حين أن باقى الأجسام التى تنتمى إليها قد وجدت مدفونة فى قبور منفصلة عن الحفرة . ويقدر عدد الجماجم البشرية التى وجدت بالقبر فى هوكانج بنحو مائة على الأقل .

ولا جدل فى أن محتويات هذه القبور تدل على انتشار عادة الضحايا البشرية ، التى قضى عليها بقطع الرقبة كما يبدو من الإشارة السحرية (انظر الشـكل) حيث تظهر فيه البلطة مسلطة على رقبة ضحية بشرية . وقد ظهرت هذه العلامة فى بعض الأحيان منقوشة على بلطة القتال .

أما تضحية تابع الملك ، أو تقديم نفسه ذبيحة اختيارية لمولاه كى يرافقه إلى العالم الآخر ، فأمر معروف جيداً بطبيعة الحال فى أماكن أخرى من العالم القديم . وقد يـكون فى قصة أور Ur السومرية أشهر مثال لذلك .

وقد يبدو فى تضحية هذه المجموعة من البشر لون من التناقض مع تقاليد عبادة الأسلاف فى الصين ، لأن هذه العادة لا تعنى بالضرورة « إطعام الأموات » بل فيها إقرار بالتسليم بحياة راسخة بعد الموت فأثاث القبر والخدم وسائقو المركبات ، والحيوانات ، بل والقبر الشبيه بالقصر ، كل ذلك لا يعنى الاعتقاد فى عالم غامض من الأشباح بل هو دليل على اعتقادهم فى « عالم آخر » مادى حقيقى تـكون فيه مثل هذه الأشياء ذات نفع كبير . ولا يملك المرء إلا أن يوازن بين هذه المعتقدات وبين معتقدات قدماء المصريين حيث كانت أعظم أمنية للميت هناك أن يعيش فى عالم آخر يشبه مصر تماماً ، وتتصل فيه وسائل الراحة التى عهدها فى بيته الدنيوى .

وتوحى المقابر الملكية فى أور بوجود مثل هذه العقيدة، ولا تختلف التقاليد السائدة فى الشانج عن تقاليد آور فى شىء. رغم أنها جاءت متأخرة عنها بأكثر من ألف عام. ففى أور نجد الحفر العميقة والأسوار، ودقة تنظيم جثث الخدم وجنود الحرس حول قبر الملك، والكميات الكثيرة النفيسة النافعة التى ترافق الميت (بما فى ذلك المركبات ذات العجلات). وفى أور نجد أيضاً الأرض المخددة المليئة بحفر القبور وذبائح الضحايا المبعثرة.

أما تقديس الملك والحظوة التى ينالها أولئك الذين يرافقونه فى الدنيا وفيما بعد الموت فمن مميزات عقائد سكان غرب آسيا ومصر. أما قدم تاريخ هذه المعتقدات فمن العسير تحديده وإن كانت على وجه التأكيد قد اكتمل نموها فى الشرق الأدنى نحو سنة ٣٠٠٠ ق. م والاعتقاد فى الحياة بعد الموت تنطوى عليه قبور كانسو وهونان القديمة. أما قبور يان ـ شان فإنها صورة مجسمة لقبور أخرى تشبهها فى تيبى هيسار بشمال شرق إيران، ومن ثم تكشف هذه الحقيقة عن أصل آسيوى غربى فى تقاليد الدفن عند الشانج. ويمكننا أيضا أن نضيف إلى ذلك، الاعتقاد فى ألوهية الحاكم التى تعد من السمات المميزة لكل من الصين واليابان.

وإذن فالصورة التى عرضناها لعصر الشانج صورة مركبة. إذ فيها عناصر من الصين القديمة التى عهدناها مثل الزراعة والعمارة البسيطة، والخزف واستئناس حيوانات معينة، وصنع الأدوات والأسلحة المختلفة، كما يرجع اعتقاد الناس فى الحياة الأخرى. وهنالك أيضا عناصر جديدة هى المركبات ذات العجلات، والقبور الملكية والمصنوعات البرونزية، والكتابة المتقدمة والثقافة المادية المتقنة، وربما نمو المجتمعات الريفية. وواضح أنه حدث فى عهد الشانج تطور من حياة إنتاج الطعام السائدة فى العصر الحجرى الحديث إلى عصر الحضارة فبدأت بذلك المرحلة التاريخية. وتأخر وصول الحضارة إلى الصين يؤكد بعدها الشاسع عن بقية ربوع آسيا، فمصر والعراق عملت كل منهما على تقدم الأخرى أو شاركت فى هذا التقدم، ولذا لم تتخلف إحداها عن الأخرى زمناً

طويلا فبلغت كل منهما فى سنة ٣٠٠٠ ق . م منزلة ثقافية متقدمة ، بينما كانت ثقافات وادى السند إلى الشرق متخلفة خطوة على الدوام فى تقبلها التقدم الثقافى ، ولكننا نستطيع أن نقرر أنه فى سنة ٢٠٠٠ ق . م أصبحت حضارة « الهارابان » جديرة بهذا الوصف . وكانت الصين فى بعدها وعزلتها وراء حدودها الجغرافية بطيئة دائما فى تسلق سلم الحضارة لأن أثر الشرق الأدنى الحضارى عليها كان أقل الحوافز الحضارية المتقدمة الأخرى ولما تقدمت الحضارة فعلا فى الصين كان ذلك نتيجة امتزاج بينها وبين ثقافة العصر الحجرى الحديث ، ونتيجة لضروب التقدم الغربى فى الألف الثالثة قبل الميلاد (القبور الملكية والمصنوعات البرونزية والكتابة وغيرها)، وذلك إلى جانب تأثرها بالسمات الحضارية المعروفة بالسمات الهندية الأوربية Indo - European ومن تلك الأخيرة مركبة الصيد ذات العجلات وما يتبعها من عدد .

وفى الفترة الممتدة من قبيل منتصف الألف الثانية قبل الميلاد بقليل إلى ما بعد نحو عام ١٠٠٠ قبل الميلاد تزعزعت كثير من المجتمعات الآسيوية الزراعية المستقرة من جراء هجمات لأقوام غزاة يبدو أن موطنهم الأصلى كان فى غرب آسيا الوسطى ونجد لهذه الظاهرة شبيها فى الشرق الأدنى فقد هجم الهكسوس على مصر حوالى عام ١٧٠٠ ـ ١٦٠٠ ق . م ، والكاسيون Kassites على العراق (بعد سنة ١٥٥٠ ق . م) . وغزا الآريون فارس،ودخل فرع منهم الهند نحو سنة ١٣٠٠ ق . م أو بعد ذلك بقليل . وهؤلاء الناس كانوا يتكلمون لغة هندية أوربية ، وكانوا مقاتلين يعبدون آلهة تمثل الظواهر الطبيعية الرئيسية كالشمس والعاصفة والنار ، كما عرفوا زراعة القمح ولكنهم كانوا يعنون بتربية الحيوان وخاصة الماشية والأغنام والماعز ومع ذلك فقد كان الحصان أحب حيوان لديهم ، وكانت المركبة ذات العجلتين التى يجرها الحصان هى أداة الحرب والسباق والصيد المفضلة عندهم . وكان بعض آلهتهم يستخدم العربة وخاصة آلهة الشمس مثل الإله سوريا إله الآريين أو أبولو إله الإغريق

اللذين يعبران السماء كل يوم فى مركبات مضيئة تجرها خيول مطهمة . كما أنهم جسدوا الريح ، فقد ذكر الإله « ڤايو » أو « ڤاتا » فى إحدى ترانيم الڤيدا الآرية هذه المقطـــوعة .

« والآن فمن أجل عظمة مركبات ڤاتا ! يعلو عجيجها فيقرقع
ويقصف ، وتتحرك لتلامس السماء محدثة بريقاً أحمر ، أو ترتفع
فتثير تراب الأرض » .

إن تضحية الحيوانات وتقديم الهدايا من الطعام للآلهة كانا أمرين شائعين ، ولكن أهم ظاهرة هى سفك دم الضحايا فيسيل « رحيق الآلهة » أو « السوما » ـ كما كان يسمى ـ مراقاً على الأرض :

« أنتِ ، ڤايو ، إنك لجديرة بأن تشربى قبل الآخرين جميعاً من
رحيقنا . . . إنك لجديرة بشرب هذه « السوما » المراقة » .

وكانت صناعة الأقواس والمهارة فى الرماية مدعاة للفخر وتحظى باحترام عظيم ، ويرجح أن هؤلاء الناس قد استخدموا القوس المركبة .

وقد أشار « پيجوت Piggott » إلى أن القوائم الخشبية ، أو صفوف هذه القوائم قامت بدور فى الطقوس الڤيدية ، مما يجعل الإنسان يفكر فى صفوف هـذه القوائم فى مبانى الشانج العظيمة .

والواقع أنه مما تقدم ذكره من لمحات لبعض السمات الثقافية المعروفة بالسمات الهندو ـ أوربية كما نعرفها اليوم لا يسعنا إلا أن نرى احتمال وجود سمات مطابقة لها فى الشانج . ألا يمكن أن تكون الأوانى البرونزية التى نستخدمها فى الطقوس الدينية اليوم مستمدة من مثيلاتها المستعملة فى طقوس « السوما » القديمة ؟

إن لدينا من العصور المتأخرة فكرة « الطاو » الخاصة بالإلهة « هسى هو » التى تقود عربة الشمس يجرها التنين ، فإذا ما وضعنا الحصان مكان التنين أصبح لدينا فكرة هندية ـ أوربية ، ثم أليست عجلة الإلهة « سوريا » هى الطراز الأول

لعربة « هسى هو » ؟ كما أن أهمية الذبائح من الماشية بالنسبة لشانج الصين كانت تضارع أهميتها بالنسبة للهند الفيدية . وكان عـدد ذبائح الماشية يذكر بزهو ممزوجا بالورع فى كل من الفيدا وسجلات الـكهانة (من عهد شانج) . وكان حرق الهبات التى تقدم للآلهة ، سواء بسواء فى الثقافتين ، وثمة أوجه شبه أيضاً نجدها فى الآلهة أنفسهم . فآلهة الريح وآلهة الشمس وآلهة الأرض ، كل ذلك وجد فى الشانج . وحتى أقوى آلهتهم جميعا « شانج ـ تى » ربما كان فى الحرب قريباً للاله « رودرا » أو « مارس » (عند القبائل الهند ـ أوربية) وأجدر بالذكر من هذا كله فـكرة وجود آلهة تعيش فى السماء ، وقد وجدت هذه الفـكرة بين هؤلاء الأوربيين القدامى ، و يغلب على الظن أنها وجدت أيضا فى الشانج .

وهناك عدد كبير من أمثال هذه الأشياء المتشابهة أكـثر من أن يكون مجرد مصادفة ، فلا شك أن الثقافات الهندية ـ الأوربية الأولى كان لها تأثير مباشر على الصينيين القدماء . وما أشبه الصورة الحية التى رأيناها عن ملك الشانج الواقف بجوار عربته يلهو بالصيد ويقدم له شعبه فروض العبادة ـ ما أشبه ذلك بصورة « رودرا » التى وصفتها ترنيمة الفيدا :

« فلتمتدح ذلك الشهير فى عربته الممتلىء شباباً ، الـكاسر المقتحم كأنه وحش مفترس مخيف » .

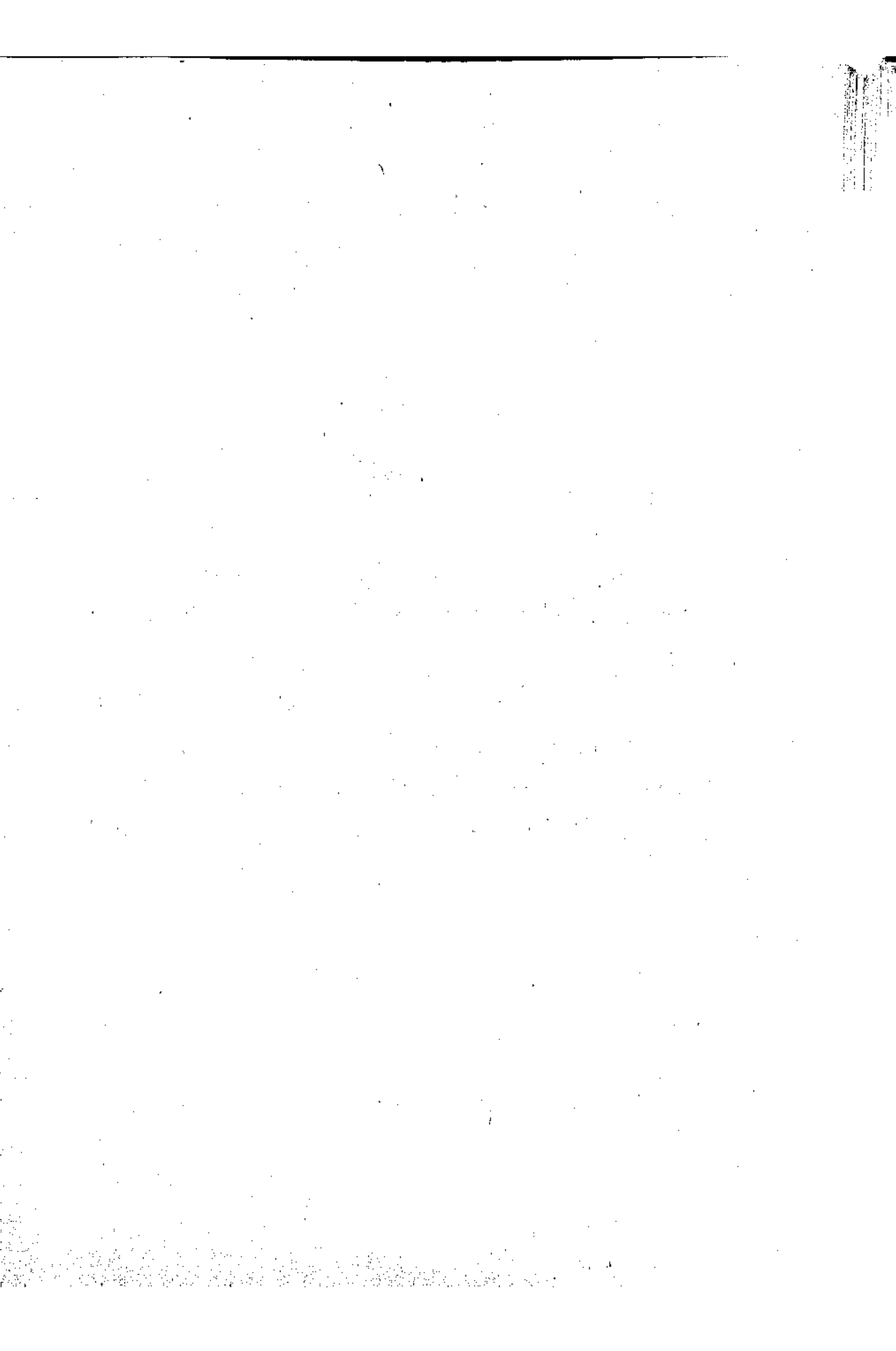
وقد أشـار « كريل » إلى أن تقارير الشانج فى المراجع الأدبية القديمة التى جمعت فى عهد أسرة « شو » كان معظمها مشوهاً وفى ذلك يقول هذا العالم :

« .. لقد تشوه جزء كبير من الحقائق المتصلة بالصين فيما قبل عصر كنفوشيوس فى المخطوطات الرسمية وكان تشويهها فى الحقيقة تاماً حتى أصبح من المتعذر تماماً حتى على أكثر المؤرخين ألمعية وإلهاماً أن يميز الحقيقة إذا لم يـكن لديه غير هذه المراجع القديمة الجامدة .

ولقد شوّه الغزاة من أسرة « تشو » الذين حلوا محل الشانج المتأخرين ، تاريخ

أولئك الذين سبقوهم من الشانج كما فعل غيرهم من المحتلين فى البلاد الأخرى . ويجب أن نذكر أيضاً أن كثيراً من تراث أسرة شانج القديمة ربما كان قد اختفى إبان ذلك العهد نتيجة التلون التدريجى بالصبغة الصينية . والواقع أن حكام آن ـ يانج كانوا من الناحية الرسمية صينيين فى كثير من ثقافتهم ، وحرف الكهانة الدال على على لفظ « كتاب » (انظر الشكل) هو صورة لشرائح من الغاب الهندى مشدودة

بعضها إلى بعض بواسطة خيط أو حزام . وفى حين أن هناك شكاً فى شيوع الكتب كثيراً فى عهد الشانج ، فليس هناك من شك أيضاً فى أن كل ما كتب فيها لم يسلم من عوادى الزمن ، هذا بالإضافة إلى تدمير كثير من هذه الكتب فى الأزمنة المتعاقبة بسبب الحريق . ويتضح من هذا أن الإنسان والطبيعة قد تضافرا على تدمير البقية الباقية من أصول الشانج وتقاليدهم . أما ما نسميه بالتأثيرات الهندية ـ الأوربية مثلا ، فيمكن أن نستنتجها فى الوقت الحاضر عن طريق الاستقراء من مقارنة المواد الأثرية التى وجدت فى آن ـ يانج ، وهذا هو الدليل الذى أفلت من عوامل الانطماس والحوف التاريخ وبقى لكى يشحذ تفكيرنا .



١٢ ــ الصين ــ رجعة إلى الماضى

لو ألقينا نظرة شاملة على هذا الخليط من الحقائق والظنون التى تكونت منها معلوماتنا عن الصين فيما قبل التاريخ ، فإنا ندرك بالتأكيد مدى القصور الذى يعتور الدلائل المستقاة من علم الآثار وليس معنى هذا أننا ننقد العاملين المخلصين الذين يواصلون بحوثهم الأثرية فى هذا الإقليم المترامى الأطراف رغم ما يلقونه من صعاب . بل إنا لنذكر ما قدموه للعالم بأوفر التقدير. ومع ذلك فكثير من البحوث الأثرية الصينية قد أجريت فى عشرات السنين الأخيرة التى سبقت الحرب العالمية الثانية حين كان علم الآثار فى أوربا وغرب آسيا لم يكد يبلغ سن الرشد . وفى ذلك الوقت كانت الطريقة العملية المبنية على أساس من النظام الأكاديمى السليم بسبيل أن تحل محل طريقة علماء الآثار القديمة التى كانت تعتمد على الاجتهاد المقرون بالذكاء وفى تلك الآونة أيضا أخذت دنيا المعرفة تدرك أن قصة النوع البشرى ينبغى أن لاتقتصر على وصف الأسرات التاريخية وحروب الملوك ، بل تشتمل على ماهو أهم من ذلك ، وهو وصف تفاصيل التاريخ الثقافى للإنسان .

أما هذا الموضوع الخاص بتفسير التاريخ الثقافى على ضوء علم الآثار بوصفه الهدف الأول للقائم بالتنقيب ، فقد أفلت من يد الباحث الصينى ، وسبب ذلك فيما يبدو هو اهتمام المؤرخين فى تفسيرهم للتاريخ منذ بدأ بآداب كونفوشيوس ، وفى العصور اللاحقة بربط المراكز التاريخية بمشاهير الناس والمواقع ، وفى سبيل ذلك أهملت الحقائق الأثرية التى تلقى ضوءاً على تاريخ الثقافة الإنسانية نفسها. ولقد دونت عدة مئات من الصفحات مستهدفة وجهة نظر كهذه ، يشعر المرء عقب قراءتها كأنه يقول : « وماذا بعد ؟ » لأنه حتى لو ثبتت صحة نقطة بعينها فلا زالت معلوماتنا عن الصين ضئيلة .

إن التسليم بالمصادر القديمة الشهيرة التى كتبت عن الزمن السابق لكنفوشيوس

تسليما مطلقا على أنها أصدق وأسلم تقارير عن هذا العهد — لهو أمر قد أثبت كريل وغيره أنه غير صحيح من الناحية العلمية .

فإذا كان الأمر كذلك فإن عظام الكهانة والموارد الأثرية التى كشف عنها التنقيب فى مراكز معروفة ، هى وحدها التى يمكن أن نعدها مصادر أولى لمعلوماتنا عن الصين فيما قبل التاريخ . ويترتب على ذلك وجوب محاسبة علم الآثار حساباً دقيقا إذا كان الدليل الذى يقدمه من المحتم قبوله . وأقول بكل إخلاص إنه حتى أكثر النقد تسامحاً يجب أن ينتهى إلى أن التقارير الأثرية الصادرة حتى الآن من الصين أو عن الصين ، ليست وافية بالنسبة للموضوع الذى نشخصه . وهناك سبب تاريخى لذلك كما أسلفت القول ، وإن كان هذا لا يغير من النتيجة شيئا .

ولا يوجد فى الصين كلهامركز واحد من مراكز التنقيب الأثرى يمكن القول عنه بأن الترتيب الزمنى لتتابع طبقاته يمكن الاعتماد عليه . وحتى مركز « هوكانج » الذى بحث بدقة يعد غير واف بالغرض من هذه الناحية « انظر الفصل التاسع ». ومعنى هذا أن نظام ترتيب الطبقات الثقافية « ليس معروفا على اليقين من الناحية العلمية » ومع ذلك فإن الترتيب الزمنى النسبى لطبقات الثقافة الذى اقترح حتى الآن قد تؤيده أعمال التنقيب المستقبلة .

ودراسة الأنواع المتباينة من الخزف جوهرية فى تحقيق ثقافات العصر السابق للتاريخ وفهم توزيعها فى الزمان والمكان فالخزف من أهم الأدوات المفيدة الحساسة التى يملكها رجال الآثار وهى الأداة التى يهتم بها معظم رجال الآثار فى دراستهم لتاريخ الثقافة ، وذلك لأن الخزف فى الواقع غير قابل للفناء ، ولأن معظم الناس تقريبا قد استخدموه منذ اختراعه ، سواء لنفعه أو للأغراض الجمالية .

وبقايا الخزف تعتبر ذات أهمية لعلم الآثار من ناحيتين من نواحى التاريخ الثقافى الأولى بالنظر لأن الخزف يعد إحدى السمات المادية للثقافة موضع الدراسة ، ومن هذه الناحية تدرس أشكاله وألوانه وزخارفه وسمكه ووظائفه ، وذلك لزيادة إدراكنا لهذه

الثقافة ، والناحية الثانية التي يهتم بها رجل الآثار اهتماما خاصا ، هي فائدة الخزف من حيث هو « معيار لتاريخ الثقافة » ، والحقيقة أن الثقافة البشرية مجموعة من السمات ليس الخزف إلا واحدة منها ، ولقد ظلت هذه السمات في تغير دائم على مدى الزمن ففي كل يوم يحدث اتجاه ضئيل إلى التغير فيصبح بعد حين تغيراً ملحوظا ، وأخيراً قد تتحول الآنية التي بدأت في شكل أسطوانة سوداء صغيرة لامعة إلى جرة كبيرة رمادية اللون ذات فوهة رائعة ، وفي وقت ما خلال هذا التطور تكون جرتنا السوداء اللامعة الأسطوانية الشكل قد وصلت إلى الذروة من الإتقان ثم تبدأ في الاختفاء حينما تظهر الجرار الرمادية الكبيرة[1] . وإذا ما تناولنا التاريخ الكلى لمركز ما فحصت طبقاته الواحدة بعد الأخرى ، لبدت لنا تلك التغيرات النسبية المستمرة في معظم الأحيان واضحة في الخزف ما دامت الكمية الموجودة منه تزيد على أية كمية أخرى من المصنوعات الحجرية القديمة . فإذا ما رسمنا هذه التغيرات طبقة بعد طبقة وفق النسبة المئوية التي تمثل كل نوع من الخزف ، فإنا نحصل بذلك على صورة لسمة من السمات تهيء لنا تقدير التاريخ الثقافي الكلى الذي تمثله .

وعند النظرة الأولى نجد أوصاف الخزف الواردة في التقارير وافية ، وخاصة في الأعداد المصورة تصويراً فاخراً من « مجلة الشرق الأقصى للعاديات » التي تصدر في استكهلم . أما عند النظرة الثانية ، فنجد أن التقارير ناقصة تماما ، إذ لا يصدق مثلا أن في كل من شمال وغرب الصين لا يوجد غير ست مجموعات (أنواع ؟) متباينة من الخزف فقط كما يريد أحد العلماء الصينيين حملنا على تصديقه ، لأن معنى هذا أن المراكز التي نعرف أن الخزف يوجد فيها بكثرة هائلة (مثل هسيو ـ تون ١٨٫٧٢٨ قطعة) لا يحتمل أن يوجد بها ست مجموعات فقط ينتمي إليها كل هذا الخزف . وهذا بطبيعة الحال شيء يصعب تصديقه ، وحتى في المراكز التي أجريت فيها بحوث

(١) قد يفسر هذا التطور على أساس افتراض أن الجرار الكبيرة أصبحت أكثر نفعاً وفائدة تحت الظروف التي وجدت فيها. (المراجع)

تحليلية دقيقة لمادة الخزف على أساس النوع والطبقة الأرضية كانت النتيجة فيها خاطئة ، فمثلا توجد خريطة لمركز « هسى ين تسون » تبين عدد القطع التى وجدت فى كل عشرة آلاف سنتيمتر مكعب من التربة . وهنا قد يتساءل المرء : وما مدلول ذلك ؟ إذ أن إحصاء قطع الخزف فى حجم معين من التربة لا يخرج فى الواقع عن القول بوجود كمية كبيرة أو قليلة من الخزف،وهذه الحقيقة فى ذاتها لاعلاقة لها بتاريخ الثقافة ، إن أى « مقلب فضلات » فيما قبل عرضة لأن يتجمع فيه قدر من الخزف المحطم أكثر مما فى البيت الذى يستخدم الخزف وهذا بطبيعة الحال لا يعنى أن « مقلب الفضلات » كان أكثر ازدحاماً بالسكان ! !

ولقد وجد أندرسن فى « يانج ـ شاو » كلا من الخزف الأسود والخزف الملون من أعلى طبقة فى حفرياته إلى طبقات القاع ، كما وجد خزفاً أطلق عليه « الخزف المهجور » [١] ، أما مشكلة طبقات أنواع الخزف الأسود والخزف الملون فلا يمكن أن يحلها الترتيب الذى وضعه أندرسن للطبقات ، فلو كان « خزفه المهجور » قد درس ووصف فلربما كان قد دل على ترتيب الطبقات الذى نفتقده .

ودرس « لى تشى » كل مجموعة الخزف الهامة التى وجدت فى هسياو تون ، وقسم هذه المجموعة الكبيرة إلى الأقسام الستة المعتادة ، ثم انتقل (بين أشياء أخرى) إلى التحليل ليحدد مسألة المسامية ، وخرج من هذه الدراسة بنتائج نذكرها فيما يلى :

> « كان سكان « ين » يشتهرون بإدمانهم المفرط على الشراب ، وقد اعتبر كثير من المؤرخين هذه العادة سبباً أساسياً فى سقوط هذه الأسرة . ومن الواضح على أية حال أن الجرة مسامية وذات قدرة كبيرة على الامتصاص فإذا ما استخدمت فى تخزين النبيذ لا بد أن تتشرب كمية كبيرة من محتوياتها الثمينة . فإذا وجد الخزاف الموهوب

(١) Obsolete وربما كان المقصود هى القطع المتخلفة من المحاولات الأولى التى يقوم بها الخزاف كى يصل إلى الشكل المطلوب . (المراجع)

الذى يستطيع صنع آنية خزفية ذات مقاومة ضد تسرب السائل الكحولى فإنه يجزى أحسن الجزاء . ولعل هذا هو الحافز الذى أدى إلى اختراع وتقدم ذلك النوع المعين من الجرار المحروقة فى عهد أسرة « ين » . »

ومهما يكن تقديرنا عظيما للأستاذ « لى تشى » بالنسبة لنزاهته ، ولأنه رجل كابد كثيراً فى سبيل الميدان الذى اختاره لنشاطه ، فإنا مع ذلك لا نملك إلا أن نشعر بخيبة أمل لأنه انتهى من دراساته لأكبر كمية من الخزف الصينى عرفت فى تاريخ الكشوف الأثرية الصينية إلى مثل هذه النتيجة . فقى عرفنا أنه كان بوسع « لى تشى » أن يقرر بصورة قاطعة الترتيب العلمى للطبقات ويضع بذلك تقريراً مثالياً لفترة ما قبل التاريخ المتأخر لشمال الصين ، وذلك نتيجة لدراسته لكل تلك الثروة الخزفية الموجودة فى « هسيوتن » والتى تشمل : الخزف الأسود ـ خزف شانج ـ الخزف الملون ، وخزف « لى » المثلث القوائم وما إلى ذلك .

وفضلا عن ذلك يجب أن نهتم بطريقة فنية أخرى يتبعها رجل الآثار ، وهى طريقة المسح ، إذ من المحتمل أن الدراسة الفاحصة التى أدت إلى العثور على المواد الأثرية ، تؤدى أيضاً إلى جمع براهين جديدة تدل على استقرار السكان قديماً فى إقليم ما : وإن كثيراً من المعالم الأثرية التى لا يعثر عليها عادة بسهولة ، ليسهل اكتشافها وخاصة فى إقليم مثل الصين حيث ساعد التوسع الزراعى فى رقعة الأرض على كشف رواسب ثقافية كثيرة مدفونة على أغوار بعيدة تحت التراب . وإن كشف مركز واحد ينبغى أن يحفز على كشف مراكز أخرى فى المناطق المجاورة له . فمركز الخزف الأسود الهائل فى « تشينج ـ تزو ـ ياى » ، فى غرب شانتونج يقع فى وسط إقليم عامر جداً بالآثار ، كما تنشر بين حين وآخر تقارير عن مراكز أخرى مجاورة لبقايا الخزف الأسود ، ومع ذلك لم يكن هناك مسح امتد من « تشينج ـ تزو ـ ياى » يمكن أن يكون قد شمل مراكز أخرى جديدة ، فكانت النتيجة انعدام معلوماتنا عن النماذج

الثابتة ، وعن كثافة السكان أو حتى عن مواقع مثل هذه المراكز .

ويقول « كريسى » Cressey فى مؤلفاته عن جغرافية الصين إن « ثلاثة أرباع الناس (هناك) يعيشون فى مزارع ، وإن كل مساحة الصين تقريباً تقع فى خارج أسوار الصين » .

ومع ذلك فإن كثيراً من معلوماتنا عن الصين فيما قبل التاريخ قد حصلنا عليها من مراكز المدن مثل « تشينج — تزو — ياى » و « آن — يانج » . وقد تشتمل عمليات المسح فى خارج هذه المراكز على مزارع الأزمنة القديمة أو القرى الريفية . وفى هذه الحالة قد نعرف حقيقة شيئاً عن الثقافة الصينية فى العهد السابق لكنفوشيوس .

وكانت المبانى فى المزرعة تشيد من التراب المدكوك أو الطوب فى الجهات الشمالية ، ومن الطوب أو الغاب الهندى المضفور فى الجنوب . ولم تكن البيوت المنعزلة شائعة ، وكانت القرى الصغيرة منتشرة فى الريف هنا وهنالك كما تنتشر بيوت الأفراد الريفية فى الغرب . وبالنسبة لضيق المساحة السكانية ، كان ما يخصص منها لمبانى القرية محدوداً . ولم تكن هناك مروج . وإن كانت الأشجار تزرع عادة حول المنازل ، كما كانت الأبنية تقوم حول فناء ، وهى عارية من النوافذ الخارجية ولها بوابة واحدة . وكان المطبخ وحجرة واحدة للجلوس وبضع حجرات للنوم تكفى حاجة الأسرة وذلك بالإضافة إلى مخازن الأدوات والوقود وحظائر الحيوان إن وجد . أما « الجرن » وحفر السماد وحدائق الخضر فكانت تقع غير بعيدة من المنازل » .

ويبلغ من انطباق هذا الوصف السابق على حياة الصينيين الراهنة ، أن عدم تسجيله فى سجلات البحوث الأثرية الخاصة بعصر ما قبل التاريخ فى بلاد الصين ، يعد قصوراً فى البحث . وربما كانت آثار هذه القرى الريفية ضئيلة ، ولكن لا يمكن إنكار وجودها ، بيد أن العثور عليها لا يتم إلا بطريقة بحث منتظمة ، أى بمسح مناطق محددة بواسطة أثريين أكفاء ، وحينئذ ، قد نعرف شيئاً عن الحياة فى الأزمنة القديمة حين كانت الصين لا تزال فى مخاض الولادة .

إن هذه الحاجة إلى المسح المنظم لهى السبب فى اضطراب معلوماتنا عن توزيع الثقافات السابقة على التاريخ فى الصين لأننا لا نملك إلا آن نتحير ونرتبك لوجود الخزف الملون فى منشوريا ووادى ينجتزى ، بل ربما فى تايوان . ولكن وجوده فى شرق الصين لا يحيرنا . وحينئذ ينشأ أمامنا وضع كهذا : « إذا رسم شخص خطاً حول مراكز الخزف الملون ، فإنه يصور نوعاً من البروز على شكل اللسان ، متسعاً فى الشمال الغربى ، وينتهى بنقطة تقع فى وسط آن ـ يانج » .

ولما كان لابد من انتهاء مثل هذا « اللسان » و « البروز » إلى مراكز معروفة ، فمن الواضح أننا لا نتناول التوزيع « الحقيقى » للخزف الملون ، بل التوزيع « المعروف » فقط .

أما الجدل حول تقسيم خصائص العصر الحجرى الحديث إلى خصائص شرقية ، وأخرى غربية ، على أساس الاستدلال بالخزف ، فإنه يبدو جدلا مضللا لأنه يتوقف فى الواقع على مدى التوفيق أو الخطأ فى العثور على مراكز أثرية فى أثناء عملية المسح للمنطقة . وتعتور هذه العملية عادة أمور منها : أولا ظهور الإشاعة عن وجود مركز ما ، ثم التثبت من صحة هذه الإشاعة ، يليها الارتياد والتنقيب ، أو العثور على مركز بطريق المصادفة . وهكذا . ويبدو أنه لم تبذل محاولة لمسح منطقة معينة مسحا علمياً دقيقاً (أى تمشيطها) للبحث عن مواردها الأثرية . كما يمكن القول أيضاً بأن الافتراضات التى اقترحها رجال الآثار للعثور على مراكز جديدة على أساس خبرتهم بالمراكز الأثرية المعروفة . يمكن وضعها هى الأخرى موضع الاختبار وإن كانت الشواهد الحالية المبنية على أساس التنقيب الفعلى الحاضر لتزعزع ثقتنا فى مثل هذه الافتراضات .

وإنه لمن العسير أن نصدق أن الخزف الملون سوف لا نعثر عليه فى شرق الصين ، فقد تكون حالة شانتونج فريدة ، أى أنها إقليم عزلته حواجز طبيعية أو ثقافية عن بقية أجزاء الصين ، ولكن يجب ألا تخدعنا هذه الحقيقة : فنسلم بأن طراز الخزف

الملون لم يصل إلى ساحل الصين ، لأن عمليات المسح فى المنطقة الساحلية بوجه خاص لم تسكن على التحقيق كافية تماماً لضمان مثل هذه النتيجة .

ويؤثر الغموض الذى يسود علم الآثار الصينى ، فى دراسة العلاقة التى قامت بين الصين القديمة وبين ثقافات الأقاليم الأخرى ، وأصبح من العسير تتبع حركة الانتشار الثقافى فى الزمان والمكان . وواضح أنه من العسير أيضاً تقديم إطار زمنى يضم ثقافات سهل الصين الشمالى قبل أن تنشر خريطة لطبقات الأرض يمكن الاعتماد عليها ، ودون القيام بعملية مسح وافية بالغرض . فمثلا نحن بحاجة إلى ما يمثل طراز قرى يونشاو تشى حين كان ملوك الشانج يحكمون فى آن ـ يانج . . هل تغيرت هذه القرى على اختلاف الأزمنة أو ظلت كما كانت دائماً ؟ وإذا كان الأمر الثانى ، فلماذا نضع « يو ـ تشاو ـ تشى » فى زمن أسبق فى حين أنها كانت معاصرة ؟

وتحتل الصين مكاناً هاماً فى نسق التاريخ الحضارى بمعناه الواسع ؛ فهل كانت الثقافة الصينية مظهراً آسيويا شرقياً للنمو الحضارى بغرب آسيا ، أم كانت عملا فعالا مستقلا انبثق من اتحاد خاص بين ميزة جغرافية وألمعية شعبية ؟ لقد هيأ علم الآثار بعض الحقائق للاجابة عن مثل هذا السؤال ، سبق أن ذكرنا بعضها على صفحات سابقة . وقد لا نعرف شيئاً عن تشعب الحضارات الصينية المبكرة أو ترتيبها الزمنى ، ولكننا نلم ببعض مضمونها ، كسمات الثقافة المادية والقذائف والأوانى والأدوات التى تمثلها . وهذا يهىء لنا على الأقل صحيفة معلومات أولية نستطيع أن نثبت عليها بعض سمات من أقاليم أخرى صالحة للمقارنة ، وبذلك نقرر أصول الأشياء .

وينبغى ملاحظة إغفالنا فى الفصول السابقة عن الصين ، وصف الموقف كما هو بجنوب الصين وخاصة حول « هنج كنج » و « هويفنج » . والسبب الأول فى هذا هو وجود تشابه عام بين الدليل هنالك والدليل المستمد من آسيا الجنوبية الشرقية ، هذا بالرغم من وجود بعض اقتراحات عن حدوث اتصال محدود بسهل الصين الشمالى .

وتقع مادة « هنج كنج » بالقرب من الشواطىء بوجه عام إما فى طبقات متتابعة

الترتيب بشكل ما ، أو فى غير انتظام ، وهى تمثل ثقافات ماقبل المعادن التى قد تعزى إلى ثقافات العصر الحجرى الحديث وعصر البرونز على السواء . وتدل المراكز على أن صيد السمك كان أساس الحياة الاقتصادية .

وتسلسل الحياة كما توحى به حالة المراكز بإقليم «هنج كنج» ، من عهد مساكن ما قبل التاريخ حتى نشوء قرى الصيد فى العصر الحديث ليشبه فى وضوحه تسلسل الحياة بالصين الشمالية ، بين شعوب العصر الحجرى الحديث ، وفلاحى سهل الصين الشمالى . ولقد قام الأب « روفائيل ماجليونى » فى « هويفونج » بعدة كشوف فى مراكز قريبة من سطح الأرض ، على امتداد ساحل شبه الجزيرة ، وبداخلها من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٤٥ . وبالرغم من وجود هذه المراكز على سطح الأرض ، فإن عمل « ماجليونى » فى مسح الأرض بلغ من الدقة مبلغاً استطاع معه أن يرتب مراكزه ترتيباً زمنياً على أساس المصنوعات الحجرية اليدوية التى عثر عليها . واقترح «ماجليونى» ثلاث ثقافات رئيسية :

١ — ثقافة صن : العصر الحجرى الحديث الأول : خزف ملون أحمر وأبيض ، وسلع ذات نقش ضفيرى ، وأخرى مزخرفة بحزازات رقيقة ، وبلطة مقعرة الشكل مستوية الجانبين يرجع عهدها إلى ٣١٢٥ سنة مضت بزيادة أو بنقص قدره ١٥٠ سنة كما ثبت بطريقة الكشف بالكربون المشع ، أى منذ سنة ١٢٠٠ ق . م . تقريباً .

٢ — ثقافة « سالك » : العصر الحجرى الحديث الثانى — خزف مزخرف على مثال السلة — مجموعة كبيرة من البلط الحجرية المصقولة التى تستخدم فى عزق الأرض .

٣ — ثقافة پات ـ العصر الحجرى الحديث الثالث ، وأطواره الانتقالية مع طور من عصر البرونز ـ كل هذه تضمها تلك الثقافة ، وتشمل الخزف الهدوى ذى الزخارف الشبكية ، والسلع الزجاجية ، والأقراط الحجرية الصلبة ، والمطارق القائمة الزاوية ، والبرونز .

ويشعر « ماجليونى » أن شعب « پات » جاء مهاجراً من وراء البحار

وجلب معه إلى الصين طريقة استخدام البرونز ، ومع ذلك لم يظهر فى البحوث الحديثة دليل كاف يبرر هذا الفرض . والنوع المتأخر من البرونز (بما فى ذلك طراز هواى) يدل على أن صنع البرونز وفد من الصين الشمالية بعد القرن السادس قبل الميلاد . والواقع أن سمة صناعة البرونز فيما يظهر ، هى الرابطة الأولى الواضحة بين الصين الشمالية والصين الجنوبية فى الترتيب الزمنى الذى وضعه « ماجليونى » . ويمكن بوجه عام أن تعزى مادة « هنج كنج » هذه ، إلى ترتيب « هويفونج » الزمنى ما دام هناك طرز تناظرها من أقدم عهد إلى أحدث عهد .

وتشير الأدلة المستقاة من المناطق المتاخمة لمنغوليا ومنشوريا إلى أن هناك سمات ثقافية منحدرة من العصر الحجرى الحديث غربية الأصل ، ولكن لضعف هذه الأدلة لا نستطيع حتى الآن أن نقرر وجود ثقافة واضحة لآسيا الشمالية متاخمة لوادى النهر الأصفر ترجع إلى العصر الحجرى الحديث ، كما لا نستطيع إلا أن نفترض فقط بأن أدوات كالسكين الهلالية والخزف الضفيرى والثياب الحاكة وغيرها قد اقتبست من آسيا الشمالية ما دامت لم تظهر فى ثقافات الغرب والجنوب . والواقع أن وجودها بين القرائن الأثرية بمراكز العهود المتأخرة بآسيا الشمالية ، وكذلك فى تاريخ السلالات البشرية ، كل ذلك يؤكد فيما يبدو ، أن مصدرها آسيا الشمالية .

أما ما ينطوى عليه هذا الدليل من معنى ، فهو أن غربى آسيا هو المنطقة التى يرجح توطن كثير من السمات الصينية فيها ، كما سبق أن رأينا . كما أن غربى آسيا يمدنا بمقياس زمنى يمكن أن يقاس به الوضع الزمنى المؤقت لحضارات الصين فيما قبل التاريخ . ويمكن أن يقام الدليل على أنه المقياس الوحيد فى الوقت الحاضر ، لأن علم الآثار ، سواء فى الصين أو فى غيرها من الأقاليم المتاخمة لها ، لم يحرز من التقدم درجة تسمح له بتقديم مثل هذا المقياس .

ويمكننا إجمال أصول الثقافة الصينية فى سلسلة الأطوار الثقافية والزمنية التالية :

الطور الأول ـ (١٥٠٠٠ ق م) العصر الحجرى القديم المبكر ، وتظهر فيه

ثقافة العصر الحجرى القديم بشرق آسيا التى وجدت بغرب نهر السند فى باكستان الشرقية . ويرجح أنها كانت تتوسط منطقة آسيا الجنوبية الشرقية ، وتمتاز بالآلات الحجرية الخشنة المصنوعة من الشظايا ، مع السواطير والآلات القاطعة ، وهى أكثر الأشياء تمثيلا للعصر .

وكانت القردة العليا الشبيهة بالإنسان مقترنة بهذه الثقافة .

أما نصيب الطور الأول فى هذه الثقافة فمن الصعب تقديره ، ولكن يمكن أن يكون استخدام النار ، وطريقة الصيد، وأقدم المعتقدات الصينية فى «المذهب الحيوى» كل ذلك كان من بين ماقدمه إنسان العصر الحجرى القديم .

الطور الثانى ـ(١٥٠٠٠ — ٨٠٠٠ ق . م) ، وهو العصر الحجرى القديم الأعلى وتاريخه غير محدد . فقد كانت ثقافة العصر الحجرى القديم السابقة على وشك الفناء وقد اقترنت بالحيوانات العليا الشبيهة بالإنسان أما الآسيويون القدماء كالقوقازيين والأينو، فيرجح أنهم استوطنوا سطح الأرض وكانت لهم خبرة واضحة على الأرجح بأمور التزين وبالطقوس الدينية وتعددت لديهم أنواع الأدوات الحجرية والعظمية . وكان الصيد يتم فى الغالب باستخدام طرق فنية متقدمة سواء فى اقتفاء أثر الحيوان خفية أو فى قتله أو صيده بالفخاخ .

وتدل الحقائق المستقاة من صحراء أردس وجنوب سيبريا على وجود مؤثرات ثقافية من غرب آسيا ومنطقة آسيا الشمالية على حدود الصين إبان عصر البليستوسين المتأخر ، ومن بين هذه المؤثرات ، سمات كنحت التماثيل الصغيرة ، وبناء بيوت غائر نصفها تحت الأرض ، وقبور المغرة الحمراء ، واستئناس الكلب ،

الطور الثالث ـ(٨٠٠٠ — ٥٠٠٠ ق.م) .ويرجح أن يكون هذا الطور قد شهد دخول المغول إلى الصين نفسها لأول مرة ، ولم تحقق آثار هذا الطور فى الصين حتى الآن . ومع ذلك فلا ننكر أن حضارات جنوب سيبريا فيما بعد البليستوسين كانت فى وقت ما تمتد إلى الجنوب . كما وجدت ثقافات حجرية تتصل بشئون الصيد يمكن أن تقارن

بالثقافات التي وجدت فى غرب أوربا وآسيا ، وهذه الثقافات عثر عليها فى منغوليا ، وصحراء أردس وسنكيانج بآسيا ، ولكنها لم تحقق فى الصين حتى الآن . كما أنها تدل على استخدام القوس والسهم وصيد الحمر الوحشية والأغنام والماعز . ويمكن أن نضيف إلى هذه السمات الملابس الحاكة والسكين الهلالية ، والعقيدة « الشامانية » (١) وحياة التجوال . .

الطور الرابع ـ ا ـ (٥٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق.م) : شهد بواكير الزراعة فى الصين، وكانت فى الغالب قبل استخدام الخزف . وأصل هذه الزراعة نشأ فى غربى آسيا ، وكان الاهتمام الرئيسى أول الأمر بإنتاج الحبوب ، ومن بين السمات الأخرى التى اقترنت بالزراعة ، البيوت المصنوعة من أغصان الشجر والطين ، والجماعات القروية واستئناس الغنم والماعز والخنازير والماشية . أما المنطقة المخصصة للسكنى ، فقد كانت فى شمال غرب الصين على الأرجح ، ومع ذلك فلم يكشف شىء عن هذا الطور حتى الآن.

وفى أخريات هذا الطور انتشرت من الغرب طرق صناعة الخزف اليدوى .

الطور الرابع ـ ب ـ (٣٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ق.م) نمو الثقافة القروية فى شمال غربى الصين ثم تسربها تدريجياً إلى حوض النهر الأصفر . ومن معالمها البارزة ، الخزف الملون (بعضه مصنوع آلياً بواسطة العجلة) ، ولكن هناك أيضاً أشياء نموذجية أخرى كالبيوت الأرضية المغلقة ، والدفنات المثنية ، والأساور والأقراط المصنوعة من الصلصال والحجر . ويحتمل استخدام الناس ، وصنع الطوب ، وإن كان ذلك غير معروف حتى الآن فى المراكز الصينية . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك الزى البدائى والمجتمع الأبوى (الذى يدين لرب الأسرة بالطاعة) ، وعبادة آلهة أرضيين . ويتمثل هذا الطور فى مراكز مثل ماتشانج وتشو تشياتشى فى كنسو ، ويانج ـ شاو فى هونان .

---

(١) العقيدة الشامانية Shamanism ديانة بدائية تعتقد بوجود عالم خفى ، تسكنه الآلهة والشياطين وأرواح الأسلاف ، وأن هذا العالم لا يدركه إلا الشامانيون أو الكهنة ويقومون بالوساطة بين الناس وبين تلك الأرواح .

من (Webster's, New Internationel dictionary) (المترجم)

ويجب أن ندخل كذلك فى حسابنا، فى هذا الطور ، نمو الثقافة الساحلية والنهرية التى تعتمد على صيد السمك بوصفه أساسها الاقتصادى . ويرجح أنها انتشرت من جنوب شرق آسيا ، وخير مايمثلها تلك المصنوعات اليدوية من الطين والحجر ، وخاصة الأدوات الحجرية . وكذلك زراعة الأرز ، وصناعة الخزف البدائى اليدوى ، وصنع السلال والشباك، وربما بناء المساكن ذات الدعائم، مع سمات أخرى كالوشم وبناء الزوارق.

ومراكز جنوب الصين وسيتشوان فى أطوارها الأولى وثيقة الصلة بها .

ومن المرجح أن تكون ثقافات آسيا الشمالية قدمت فى ذلك الحين الخزف الحصيرى والخزف المخطط والدرع المشقوق وصناعة متقدمة للحفر على الخشب ، وربما القوس المركبة .

الطور الخامس ـ (٢٠٠٠ ـ ١٦٠٠ ق . م) : وهو طور انتقال السمات الحضارية الآسيوية الغربية إلى ميدان الثقافة الصينية بما فى ذلك نمو القرى الكبيرة والمدن ، أى بداية التحضر وفكرة الكتابة . وتحسن وسائل الزراعة ، والمركبات ، والحكام المقدسون ، والكهانة (العرافة) بواسطة عظمة كتف الثور ، وإتقان هيكل آلة الزراعة . والعدّ ومراسم الدفن المعقدة ، والضحايا البشرية ، والرق ، وصناعة البرونز المبكرة .

وإذن ، فهذا الطور متداخل إلى حد كبير فى الصين ، ومع ذلك فإن بعض هذه الخصائص موجود فى « تشينج ـ ترو ـ ياى » . ولذا يظهر أن هناك سبباً ما لاقتران مراكز الخزف الأسود بمظهر واحد على الأقل من مظاهر هذا الطور .

الطور السادس ـ (١٦٠٠ ـ ١٠٠٠ ق . م[1]) : دخول خصائص[2] وسط غرب

(١) يقوم تاريخ الأسرات الصينية على أساس الأنظمة التى استخدمها المؤرخون الصينيون ، وتتفق هذه الأنظمة بوجه عام مع تأريخ حوادث أواسط أسرة تهو (٨٤١ ق . م) وما بعدها ، وإن لم تكن التواريخ قبل ذلك الوقت موضع بحث . أما تواريخ أسرة شانج وفقاً لكل نظام فهى كما يلى :

ا ـــ التاريخ الصحيح أو الرسمى (١٧٦٦ ـ ١١٢٢ ق . م)

ب ـــ تواريخ الغاب الهندى (١٥٥٨ ـ ١٠٥٠ ق . م)

حـ ـــ تواريخ الغاب الهندى المصححة (١٥٢٣ ـ ١٠٢٧ ق . م)

=

آسيا بما فى ذلك المركبة ذات العجلتين التى يجرها الحصان ، والعجلة المبرنقة ، والحصان المستأنس ، والأفكار الخاصة بآلهة الجو ، أو آلهة الطبيعة وهى الآلهة الخاصة بالشعوب الهندية ـ الأوربية ، والمبانى التذكارية ، وشتى أنواع النحت ، وقيام سلطة كهنوتية محكمة . وينبغى هنا أن نذكر سمات أخرى ، هى الآلات القاطعة المنحوتة .

وهذا الطور يطابق عهد أسرة « شانج » الذى يعرف من الناحية الأثرية من المراكز المحيطة بقرية « هسياو ـ تون » فى شمال « هونان » .

ويظهر أن ثقافة أسرة « شانج » مزجت وطورت تراث الأطوار السابقة ، وقد تم هذا قبل أن يوضع الأساس الحقيقى للثقافة الصينية ، لأن أسرة « تشو » التى جاءت بعدها شهدت ثمار الماضى الشهية ممثلة فى تقدم أساليب الحياة الصينية الحقيقية التى شكلتها أعمال كنفوشيوس وأتباعه . ولا شك أن هؤلاء الرجال كانوا على علم بعشرات الأشياء التى أسهم بها جيران الصين فى الحضارة الصينية حين بحثوا عن معنى للنظم البشرية . وربما كان الحكيم كنفوشيوس على علم كذلك بالأساس المختلط الذى قامت عليه الثقافة الصينية حتى إنه شعر بالحاجة إلى توحيد فهم الشخص الصينى لمنزلته من العالم ـ أى الحاجة إلى تنسيق مختلف التقاليد وطرائق حياة الشعب التى لابد قد نشأت من تعدد أسسها التى أشرنا إليها . فلما تم هذا أخذت كفة الميزان تميل إلى الناحية الأخرى ، فما إن توحدت الثقافة الصينية آخر الأمر حتى أخذت ترد ما عليها من دين إلى عالم ما قبل التاريخ الذى يرجع إليه الفضل فى انبثاقها .

= ويجب استخدام هذه الأساليب بحذر لأنها قائمة على أساس الاستدلالات بالقمر ، وكسوف الشمس والمدة الرسمية لعهد الحاكم . وهناك جدل حول الكسوف لأن النصوص ليست واضحة دائما من حيث الحوادث ـ وبالرغم من ذلك فإن تاريخ الناب الهندى يعد فى نظر العلماء أوثق مرجع . وننصح بقراءة : هـ . هـ . دبز « تاريخ عهد الشانج » المنشور فى « تونج باو » المجلد ٤١ لسنة ١٩٥١ ص : ٣٢٢ ـ ٣٣٥ .

(٢) ويبدو أن علم الآثار يقترب كثيراً من الحقيقة حين يبين أن أكثر التواريخ حيطة هى (تواريخ الغاب الهندى) لأنها تسمح بمزيد من الوقت لتحرك سمات معينة من الغرب إلى الشرق .

١٣ ـ اليابان ـ تناقض ظاهرى

كان ما يعرفه الأمريكيون فى سنة ١٨٥٠ عن اليابان هو أنها دولة من جزر بعيدة غامضة، وأن شعبها وتقاليدها يمتازان بالحذق والغرابة. وقد وصفها تقرير الأميرال برى بأنها بلاد جميلة عاش أهلها على جهل بالانقلاب الصناعى الذى قاسى الغرب كثيرا من آلامه. ولكن بعد انقضاء ذلك القرن بقليل جلس الأعلام من قادة روسيا وأمريكا حول المائدة فى پورتسموث فى نيو هامپشير ليشهدوا توقيع المعاهدة التى سلمت بالهزيمة الشائنة التى لحقت روسيا، والتى اعترفت فيها نهائيا باليابان قوة عالمية. وفى سنة ١٩٤١، أي بعد أقل من مائة عام من تدخل برى فى شئون « مملكة الجزر الغامضة » اهتز العالم أجمع لجسارة هذه « البلاد الحاذقة الغريبة » ووحشية شعبها فى القتال، ومن ثمة أصبحت معرفة الأمريكيين لمن يتعاملون معهم أمراً حيويا. وتتجلى اليابان اليوم أكثر من أى وقت مضى كأخطر قوة فى شرق آسيا، ففيها ما يربو على الثمانين مليونا من الأنفس مزدحمين فى أربع جزر صغيرة تربطها بواعث ثقافية واقتصادية وثيقة حتى إنه يندر أن لا تجد هذه الملايين تتصرف كرجل واحد. واليابانيون يتلاءمون بسهولة مع الموقف، وينتفعون إلى أبعد مدى بغنمهم، ومن ثم يسيرون قدماً. وما كان يستطيع من زار اليابان سنة ١٩٤٦ أن يتجاهل قوة البأس المقرونة بالفطنة التى يمتاز بها هذا الشعب وإتقانه لشتى الأعمال، من أحقرها شأنا إلى أشدها خطراً ولقد كانت هذه أعراض طارئة، لأن الدافع إلى العمل والتجديد وإعادة البناء، كان ترياقاً للجروح المؤلمة التى خلفتها الحرب، وعاملا على إزالة الغرور وقد تكشف هذا الحافز الملح عن نهضة اليابان الحديثة.

ولليابانيين فوق هذه القوة المبدعة، ومن خلفها، اعتزازهم بتراثهم، فهناك تجد الحب العميق الجذور للوطن، كما هو الحال عند الصينيين.. نفس الاعتزاز بالأرض

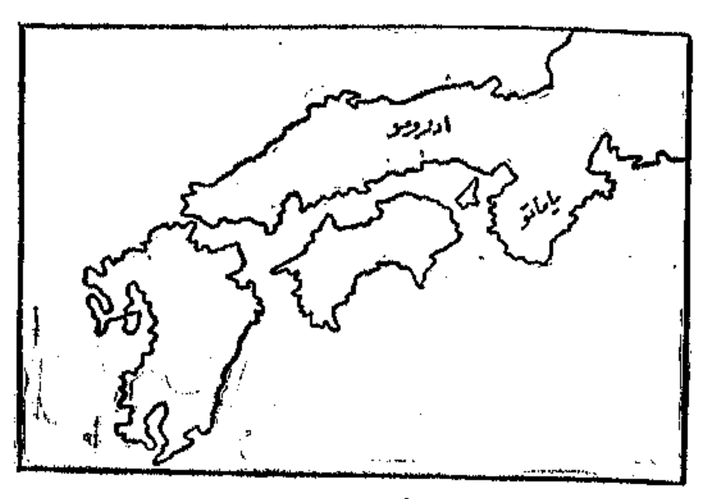
وبالأسلاف وقرية الآباء ومفاخر الأب والجد ، كل ذلك تجده كما هو فى حوض « هوانج هو » ، فهو أمر شائع ، وهو ما نتوقعه من شعب زراعى ، ولكن هناك شيئاً آخر كذلك . . .

إذا سرت فى شوارع طوكيو ، ويوكوهاما ونجازاكى ، وكوبا ، وأوزاكا ، فإنك واجد كل شىء كما لو كنت فى غربى أوربا أو أمريكا ، فيما عدا الكتابة والزركشة التى يقع عليها نظرك اتفاقا ، وكذلك جموع الناس والضوضاء والسرعة ، بل معظم الأبنية كلها متشابهة . ولكن إذا ذهبت إلى كيوتو أو نارا أو كاما كورا ، وقمت بزيارة القرى المنتشرة فى الريف ، فإنك تجد يابانا من طراز آخر ، يابان الكيمونو والقبعات العريضة ، يابان المعابد العتيقة والصنعة الهزيلة ، اليابان ذات النبض الهادىء البطىء فى دوراتها ومواسمها وحياتها . هذا اليابان التى أحبها « لافكاديو هيرن Lafcadio Hearn » ، وقال فيها :

« تجد نفسك تتحرك فى طرقات غريبة صغيرة مليئة بشعب عجيب قمىء ، يرتدى ثياباً وأخفافاً ذات أشكال غير مألوفة . وقلما تستطيع التفريق بين الجنسين لدى النظرة الأولى . والمنازل مشيدة ومؤثثة بطرق لا عهد لتجاربك السابقة بها ، وإنك لتدهش حين تعجز عن إدراك فائدة أو معنى لتلك الأشياء التى لا يحصرها العد ، المعروضة بالحوانيت . أما المواد الغذائية فمستخرجة من أنواع لا تخطر على بال . وأدوات ذات أشكال معقدة ، وإشارات مبهمة لمعتقد غامض ، وأقنعة غريبة ودمى تحيي ذكرى أساطير الآلهة أو الشياطين . ورسوم غريبة أيضاً للآلهة أنفسهم ، بآذان ضخمة ووجوه مبتسمة ، ذلك كله تستطيع أن تراه فى تجوالك ، ومع ذلك فأنت يجب أن تلاحظ أعمدة البرق والآلات الكاتبة والمصابيح الكهربائية وآلات الخياطة » .

هنا تجد التناقض ، ولكن هذا التناقض ليس نتيجة للفرق بين الريف والحضر ، إذ أن الريف فى أوقات الشدة قد ساند الشعب مساندة لا تقل قوة عن مساندة أهل

الحضر الريف فليس أحدها متأخراً والآخر متقدماً لأن كلا منهما ينجز دوراً تقليدياً متوازنا ، وهذا بدوره يشكل صفة الشعب .



(شكل — ١٦)
خريطة جنوب شرق اليابان
١ — إدزومو ٢ — ياماتو

وبقدر إعجاب اليابانيين بالنواحى الصناعية الحديثة فلا يزال هناك نوع من الكبرياء فى اليابانيين الأقحاح ، فالكبرياء من السمات القديمة لحياة اليابانيين ، ومن هذه السمات حبهم للريف ، وليس هذا الحب مجرد اهتمام بجمال الطبيعة ، ولكنه إحساس بـ « السكامى Kami » أو الروح التى تتخلل كل أشكال الطبيعة ، سواء أكانت فوجيزان Fujisan الحسنة ، أم شجرة صنوبر ملتوية ، ورجوع الرجل الغربى إلى الطبيعة ، يعنى عنده بوجه عام تحين الفرصة لتهدئة نشاطه فى حياته اليومية ، وأخذ نصيب من الراحة ، أما بالنسبة للياباني فتعنى شيئاً أكثر من ذلك ، فهى فى الواقع تعنى تجديد اتصاله بـ « السكامى » ، وهى روح اليابان الحقيقية كما لو كانت حياة الحضر الحديثة خداعا ، وحياة الطبيعة هى الحقيقة الوحيدة . ويندر أن تسمع أحد سكان المدينة يتحدث عن إخوانه من سكان الريف كأنهم « فلاحون يعتقدون بالخرافات » لأنه يعرف أن معتقداتهم تنبع من نفس روح الطبيعة النافذة إلى كل

شيء ، التي ترعرع أسلافه بين أحضانها ، والتي لم يفقد في الواقع اعتقاده فيها مطلقًا . وتسكن الأرواح الخالدة في إعجاز هذا العالم الذي يحيط به وفي جماله ... أرواح كل شيء تحفز أحلامه وذكرياته ومشاعره ، وتصميمه على الإبداع والإنجاز . وليست هذه الحقيقة خفية أو مثالية ، ولكنها في الواقع باعث عملي للحياة .

وبجانب هذا الإدراك للروح في الطبيعة ، فإن لديهم فكرة حية للغاية عن الزمن. فالمحافظة في اليابان ، حتى على الأبنية الخشبية القابلة للدمار ، وتذكرهم الدائم عن طريق اللعب والرقص ، والقصة العامرة بألوان الماضي ، كل ذلك يجعل كل ياباني عارفًا بسلسلة أسلافه التي تربط الآلهة الخالدة بإنسان الوقت الراهن . والياباني حريص على أن يكون مرتبطاً بالزمن لا أن يكون في ذيل الحوادث ، ولذا فإنه يبجل معالم الاستمرار كبرهان على خلود الأشياء اليابانية .

وهناك طابع آخر للحياة اليابانية أتذكره مراراً وتكراراً بل وفي كل لحظة من لحظات النهار، ولقد قفزت هذه الفكرة بوضوح تام إلى ذاكرتي في أثناء سيري في رحلة قصيرة بالقرب من كيوتو ،ذلك أنه سبق أن قيل لي إن أحد الأماكن جدير بالزيارة في هذه المدينة ذات المراكز الأثرية الشهيرة ، وهو مركز جنكاكو – جي ، أو « الخيمة الذهبية » الذي بناه « أسيكاجا يوشوناسا » في القرن الخامس عشر الميلادي ليجعله مكاناً للتأمل والاستمتاع البريء . وأذكر أنني سرت مسافة طويلة مخترقا غابة ، ومررت ببركة وبعض المباني الصغيرة دون أن ألقي إليها نظرة ، وإذا كان الأمر قد اختلط عليّ سألت أحد المارين أن يدلني على « جنكاكو – جي » فدلني على الطريق الذي كنت قد قطعته تواً ، فرجعت أدراجي في نفس الطريق . ولما اجتزت الغابة سألت يابانياً آخر عن موقع جنكاكو – جي ، وكم كان أسفي حين أشار إلى الطريق التي مررت بها وخلفتها ورائي في تلك اللحظة . وأخذت ألعن في سري هؤلاء اليابانيين الذين يلهون بتضليل الغرباء ، وبدا لي أنهم يداعبونني . ولما رأى هذا المرشد الجديد حيرتي الواضحة عرض على أن يدلني على المكان

فوافقت ، واصطحبنى إلى حيث البركة والمبانى ـ وهو مكان لا يلفت النظر كنت قد مررت به فى جولاتى جيئة ورواحاً دون أن أعيره اهتماماً . وكلما ازداد اعتيادى على تأمل المنمنمات المنتثرة [1] فى المنطقة سيطر على الإحساس بالشكل والتناسق وجمال التكوين غير المحدود التى اشترك فى إبداعها الحاكم كل من المهندس المعمارى ، وفنان المناظر الطبيعية . ولكننى قضيت وقتاً طويلا لكى أغير أفكارى الغربية عن ضخامة الحجم والثراء الهائل اللذين شكلا الصورة الرائعة التى ارتسمت فى مخيلتى عما يجب أن يكون عليه مثل هذا المكان الشهير . وقصارى القول أنه لكى أتغلب على خيبة الأمل التى تملكتنى عندما تحول خيالى الممدود إلى الواقع المحدود ، أخذت أحاول المواءمة عامداً بين نفسى وبين إحساس اليابانيين بالتصغير والتنظيم ، ذلك لأن التناسب والتناسق صفتان مستقلتان عن الحجم والثروة . فالشجرة المتواضعة فى ركن من إصيص النافذة يمكن أن تحوى من الفخامة ما لشجرة كاليفورنيا العالية إذا ما استطاع الإنسان أن يبعد مجرد فكرة الحجم كعامل محرك لعوامل الإحساس عند الإنسان .

وصفة التمنمة هذه ، فى المناظر اليابانية الطبيعية ، هى التى تجعل الإنسان يحصل على معرفة كبيرة بحالة اليابان الجغرافية ، فاليابان بلاد حديثة التكوين من الناحية الجيولوجية ، ارتفعت فوق سطح البحر إبان العصر الجيولوجى الثالث نتيجة للقوى البركانية ، ولا تزال أرضها تهتز بين حين وآخر كأنها تذكر بأصلها المضطرب . واليابان كذلك إقليم جبلى للغاية ، تنحصر الجهات المستوية فيه بين الوديان الضيقة المرتفعة ، والهضاب والجيوب الساحلية ، وتقع هذه الأخيرة بنوع خاص فى القسم الشرقى من الجزيرة الرئيسية « هنشو » . ولا تزيد مساحة الجزر الأربع الرئيسية (هنشو ، وكيوشو ، وشيكوكو ، وهوكايدو) على ١٧ ٪ من جملة مساحة اليابان .

---

(١) المرادف العربى لكلمة Miniatures (المراجع) .

وبالرغم من سلاسل الجبال العظمى ، وامتداد البحار المحيطة بسواحلها ، فإن الضيق الشديد فى مساحة الأرض التى يمكن الإفادة منها قامت بنصيب غير قليل فى إصرار القوم على التمنمة أو التصغير .

ويحق لسائل أن يسأل عن علاقة كل هذه الصفات التى اتسمت بها الحياة اليابانية بعصر ما قبل التاريخ . والسبب الوحيد هو أن تاريخ اليابان كما هو محدد فى الوقت الحاضر ، بدأ متأخراً جداً وغزو البوذية الذى بدأ فى مستهل القرن السادس الميلادى يحدد فى الواقع بداية التسجيل التاريخى ، ومع ذلك فإنا نعرف أن اليابان فى هذا التاريخ المتأخر كان لها ماض عامر ، ماض تكونت خلاله سمات الحياة اليابانية التى تكلمنا عنها ، وتشكلت فيه ثقافتها المتوارثة . وقد لا يوجد فى العالم مكان آخر من الأماكن ذات الأهمية فى عصر ما قبل التاريخ حظى بهذا الاهتمام الذى حظيت به اليابان فى الأيام الأخيرة . ومع ذلك فقد مهدت المؤثرات الصينية لفجر التاريخ اليابانى بما قدمته من الكتابة والديانة البوذية ، وتقدم الفنون والصناعة . فالصينيون لم يخلقوا يابان التقاليد ، ولكنهم فى الواقع ساعدوا على تقدم ثقافة حية فقط كانت موجودة من قبل (١) .

ومع أن اليابان دولة جزر فإنها تقع متاخمة لأرض آسيا فى مواجهة الساحل الشرقى على امتداد خط أو منحنى شمالى — جنوبى يشغل نحو ١٥ درجة من درجات العرض بحيث يصل طرفها الجنوبى (كيوشو) إلى نفس خط العرض الذى تقع عليه دلتا نهر يانجتسى ، وطرفها الشمالى (هوكايدو) على خط العرض الذى تقع عليه ڤلاديڤستك فى أقصى الشرق من سيبريا . ويقترب جنوب اليابان كثيراً من كوريا — وهو طريق أصبح ميسوراً بواسطة جزيرتى تسوشيما وإيكى المتقاربتين و يفصل هوكايدو عن جزيرة سخالين بواغيز ضيقة نسبياً ، والجزيرة الأخيرة تجاور بدورها أراضى سيبريا .

---

(١) ليس معنى ذلك أن هذه هى المؤثرات الصينية الوحيدة ، لأن السمات الصينية ، وربما الصينيون أنفسهم منذ أسرة هان الأولى (٢٠٢ ق . م — ٩ ميلادية) على الأقل كانوا متمصرين فى بلاد اليابان ويسهمون فى تكوين الثقافة اليابانية .

و لتيار اليابان الدفيء الذى يتجه شمالا ، تأثير بين على المناخ المحلى ، هذا بالإضافة إلى خط العرض المنخفض مما يهيء لجنوب اليابان مناخاً ملائماً جداً لزراعة المحصولات، فى حين أن هوكايدو من ناحية أخرى ذات صيف قصير وشتاء قارس طويل .

و بالرغم من قرب اليابان لقارة آسيا ، فإنها بـلاد بحرية ، فالمياه الباردة الشمالية ومياه الجنوب الدفيئة وشرق الجزر وغربها ، كلها غنية بحياة البحر فى شتى ألوانها ، فالبحار مراعى المحصول الدائم عند اليابانيين . فحيث تندر الأراضى الخصبة فإن البحر «الخصب» لاينضب معينه ، ولذا فإن محصوله متوفر .

فلا عجب إذن ، إن وجدنا نسبة كبيرة من أقدم المراكز الأثرية المكتشفة فى اليابان تتمثل فى أكوام من الأصداف مما يدل على اعتماد أهلها على البحر فى الماضى السحيق ، كما هو حالهم فى الوقت الحاضر .

و قد دلت الدراسات الخاصة بحالة اليابان الجيولوجية على أنه فى أثناء آخر تقدم للجليد ، لم تكن الجزر اليابانية متصل بعضها ببعض اتصالا أرضياً فى الشمال والجنوب فحسب ، بل كانت متصلة بأرض القارة الآسيوية نفسها من الشمال والجنوب . ولربما كنا نتوقع نتيجة لذلك أن نجد فى اليابان دليلا من ثقافات آسيا الشرقية يرجع إلى العصر الحجرى القديم ، ولـكن مثل هذا الدليل قد أفلت من أيدى الباحثين حتى الآن مع احتمال وجود استثناءات معينة . و أياً كان الدليل فإن العثور على أدوات نحت الأحجار المعقدة الشبيهة بأدوات باتجيتان بجزيرة جاوة ليس بالأمر المستبعد الحدوث . وبناء على ذلك ، فإذا وجدت بقايا حفرية بشرية على الإطلاق فى اليابان ، فإنا نتوقع أن تكون من نوع الإنسان القردى .

لقد وجدت مراكز قليلة لخزف بدائى فى هنشو يبدو أنها تحتوى على أدوات حجرية صغيرة ، ولذا فإنها قد ترجع كذلك إلى ثقافات الصيد فى العصر الحجرى الوسيط المعروفة فى آسيا الشمالية الوسطى ، ومع ذلك فتثار بعض الاعتراضات حول هذه المكتشفات ، أولا لوجود مقابل للأدوات الحجرية فى مجموعات جومون الأولى ،

ولـكن بالرغم من هذه الاعتراضات لايستبعد أن يكون صيادو العصر الحجرى الوسيط قد وصلوا إلى اليابان فى وقت ما بعد سنة ٣٠٠٠ ق. م فوجدوا فى تلك البلاد إحدى جنات الصيد ، وربما كانت معظم مراكز تجمعاتهم فى الجنوب فوق السهول الغرينية حيث يوجد أوفر صيد يمكنهم الحصول عليه . وإذا كان الأمر كذلك فلربما كانت الزراعة الواسعة التى انتشرت فى العصور التالية قد محت جميع آثار الصيادين القدماء ، ويمـكن أن ينهض ذلك تعليلا لعدم وجود أى دليل حقيقى مناسب على هذا العصر السحيق .

ويطلق على العصر التالى اسم «جومون» أو « الطراز الضفيرى » ، وهو العصر الذى سمى كذلك نسبة إلى رسوم معينة وجدت على الخزف . ويقسم رجال الآثار هذا العهد إلى خمسة أطوار : جومون الرئيسى (أو الحقيقى) ، وجومون المبـكر ، وجومون الأوسط ، وجومون المتأخر ، وجومون النهائى .

وقبل أن نفحص معالم عصر جومون ، يحسن أن نذكر التقسيم الجغرافى لليابان الذى سبق ذكره . فهناك اختلاف مناخى واضح بين هوكايدو فى الشمال وكيوشو فى الجنوب ، فنجد غابات الراتنج الشمالية تختلف اختلافاً تاما عن غابات البـلوط الدائمة الخضرة التى فى الجنوب . ويؤكد هذا التناقض المناخى وجود مختلف المناطق البيئية فى جميع أرجاء اليابان . كما تؤدى الجبال إلى وجود ترتيب تدرجى فى المناطق النباتية على سفوحها تلعب هى الأخرى دورها . ونحن نستطيع إذن أن نتوقع تنوعاً هائلا فى ثقافات ما قبل التاريخ فى اليابان . ويؤكد علم الآثار حدسنا هذا ، تأكيداً تاماً .

ويصل تجمع مراكز جومون إلى غايته فى هنشو ، وخاصة على امتداد الساحل الشرقى وفى الشمال ـ كما يبلغ تشتتها أقصاه فى جنوب هنشو وكيوشو . ويخالف هـذا التوزيع الحالة فى عصر جومون موضوع البحث ، ولـكن يبدو مع ذلك أنه يدل على امتداد الثقافات التى كان يشتمل عليها ناحية الشمال .

وبناء على ذلك يمكننا أن نتوقع أن يقدم لنا علم الآثار دليلا ثقافياً على تأثيرات

آسيا الشمالية ، ويؤيد الخزف هذا التوقع ، لأن طريقة الزخرفة الضفيرية ، والعلامات المسننة ، والتحزيز والترقيش ، ونماذج عظام سمك الرنجة وغير ذلك من ضروب الزخارف الشائعة فى شمال أوراسيا ، كلها موجودة فى عهد جومون برمته ؛ حتى أشكال الأوانى التى كانت سائدة فى عهد جومون المبكر ، ذات القاع المستوى ، أو الجرار ذات القواعد المدببة ، كل ذلك يعرفه طلبة الآثار فى آسيا الشمالية جد المعرفة . ويشبه ذلك الأدوات المصنوعة من الطين أو من الحجر المنحوت (بما فى ذلك بلاطة الطحن) والعظام والسهام والسنانير وغيرها ، والمساكن الغائر نصفها تحت الأرض ذات العمد الأربعة التى يعقد عليها السقف المصنوع من القش ، والمقابر المنحنية فى منطقة السكنى أو بجوارها ، وعدم وجود الزراعة وعجلة الخزاف ، وتقدم مختلف القذائف المدببة (كالرماح والسهام) المطابقة لقذائف جومون ، كلها من سمات منطقة آسيا الشمالية فى عصور ما قبل التاريخ مباشرة . ولا يبدو أن هناك موضعاً لكثير من التساؤل إذن فى أن اليابان تدين بأصول ثقافتها الزراعية فيما قبل التاريخ إلى صيادى الوحوش والأسماك بشمال آسيا (١) .

ومن المؤكد أن تنوع الأدوات والخزف والمساكن كان نتيجة لتعدد المناطق الإقليمية فى اليابان ففى الشمال كان صيد الثدييات البحرية وصيد السمك عملين أساسيين فى الحياة الاقتصادية ، وفى الجنوب كانت الأسماك الصدفية والغزلان وشجر البلوط تكفل لهم ضرورات الحياة الأساسية .

وجدير بالذكر بهذه المناسبة أن ثمة دليلا على حدوث ارتفاع الأرض وهبوط فى سطح البحر فى اليابان ، إذ وجدت أكوام كثيرة من الأصداف من عصر جومون المبكر على بعد عدة أميال من البحر . وكان هذا المكان فيما مضى نفس شاطىء البحر حيث نشأت هذه الأسماك .

ويمتاز عصر جومون المتأخر خاصة بتقدم غير عادى فى صناعة الخزف والدمى

(١) ظهر الكلب المستأنس أيضاً فى جومون .



شكل ١٧ — خزف من عهد جومون (عن جروت)

عهد جومون المبكر (نا كاى) .	(إلى اليسار فوق)
طراز مورويزو (أوريموتو) .	(فى الوسط «)
ثقافة أنجيو المتأخرة (أزوساوا) .	(إلى اليمين «)
طراز كاتسوزاكا (ساكاى) .	(« اليسار تحت)
طراز أوموري (هاسا مادو) .	(« اليمين «)

الخزفية « كاميجوكا » العظيمة الإتقان وهذه تعيد إلى الأذهان احتمال وجود مؤثرات ثقافية خارجية تشير إلى الصين فى عصرها البرونزى ويجمل ج . ا. كيدر G. A Kidder وهو من أعلام المتخصصين الغربيين فى خزف جومون،يجمل هذه المؤثرات فيما يلى :

«تتحقق فى عهد جومون المتأخر أصدق سمات العصر الحجرى الحديث فى خزف جومون . ولربما كانت المنافسة فى صناعة المعادن قد سببت اعتزازاً أوفر بمنتجات شعوب العصر الحجرى . ولا شك أن تقدمهم كان مبعثه المتاجرة فى المعادن وصمغ « الجملـكا» ، والمنسوجات والخزف وغيرها من السلع التى يمكن تبادلها . وفى عهد كاميجوكا بلغ خزف جومون غاية الرقة ، وأدى باستخدامه التكرار فى النماذج والرموز والتناسق فى الأوزان ـ أدى وظيفة كاملة من حيث هو خزف يمثل العصر الحجرى الحديث . وتتسم الرسوم التصويرية ، سواء أكانت مطبوعة على شكل ضفيرة أم مجرد حفر على الأقداح القصيرة ، والأوانى ذات الصنابير ـــ تتسم هذه الرسوم بجمال غير عادى من حيث التنوع والشكل . وتكون غالبا على هيئة طير أوتنين . وهى كبيرة الشبه برسوم المرآة وطلاء « الجملـكا »وبعض الأوانى طليت بلون أحمر ، و بعضها الآخر ذو طلاء أسود كأنما المقصود بها تقليد هذه الأشياء ».

إن الاهتمام فى التقارير الأثرية اليابانية كان موجها أساسا إلى الخزف ، فكانت النتيجة أن أصبح هناك عدد محير من أنواع الخزف مخصص لكل طور من أطوار جومون ، ومع ذلك فإن « كيدر » قد يسر الأمر إلى حد ما .ومن المفيد أن نفحص النتيجة النهائية التى وصل إليها بالنسبة لمعالجته أنواع الخزف بالطريقة التى كانت مستعملة من قبل . وبعض هذه الأنواع من الخزف قد انقرض إبان عصر جومون بينما عاش البعض الآخر حتى جاءت الأزمنة التاريخية وذلك فى أماكن مثل هوكايدو.

أطوار نمو خزف جومون

جنوب وغرب اليابان	وسط وشمال اليابان
أسطـــــواني .	مطبوع بأشكال تشبه الخيط ، محززة (علامات محارية الشكل) ـ مثقوب .
ممسوح ، ومحزز ، ومثقوب.	علامات ضفيرية تجريبية .
علامات تشبه العصا (وسم مسماري) .	علامات تشبه العصا ، ووسم مسماري يشمل القطعة كلها .
محفـــــور .	تطبيق (على الوسم الضفيري) .
وسم ضفيري دائري .	وسم ضفيري دائري.
أملس .	أملس ، ورسم منقوش ، ومحزز (وسم ضفيري) .
مخشن .	

ومن الواضح بطبيعة الحال عدم وجود «الخزف الأسود» والخزف الملون الخاص بالصين الشمالية ، وهذا الدليل السلبي قد يكون أيضاً تفسيراً آخر لعلاقات آسيا الشمالية بمعظم اليابان في عصر جومون (١) .

إن عصر جومون في الحقيقة هو الذي يمكننا أن نطلق عليه العصر الحجري الحديث الناهض ، لأن وفرة الحيوانات ومحصول النباتات البرية الصالحة للأكل ، والغلات الوفيرة المستخرجة من البحر والشاطىء (٢) ، كانت تفي بحاجة السكان

(١) ظهر أن التأريخ بطريقة الكربون المشع (ك ١٤) الخاص بعصر جومون الأوسط والتأخر يحدد العمر بنحو سنة ٢٥٠٠ ق . م (ارجع إلى ف . جونسون ـ «التأريخ بالكربون المشع» المنشور في مجلة الجمعية الأمريكية الآثار : نشرة رقم ٨ لسنة ١٩٤٨ ص ١٦ ـ ١٨ . وهذا التاريخ لم تسلم به كل المراجع . ولكن مهما كان الأمر فإن تواريخ يانج شاو مثلا يحتمل أن تكون متطابقة تقريبا (انظر أول فصل ١٠) .

(٢) وتشمل كذلك الأعشاب البحرية التي يستخدمها اليابانيون حتى في الوقت الحاضر في صنع المحات الشهية (السلطات).

الكثيرى العدد (من المعروف أن بعض أكوام الأصداف التى وجدت تبلغ مساحتها عشرة آلاف متر مربع) . وتشبه مواطن جومون من هذه الناحية الجماعات المزدحمة التى تنتمى إليها ثقافات الصيد وجمع الطعام المتأخرة بالساحل الشمالى . وبالرغم من هذه الوفرة الطبيعية فى الغذاء فإن عهد جومون لم يكن عهد استقرار أو وحدة من نوع معين لأن تعدد الأقاليم التى تنتمى إليها أنواع الخزف ، ووجود المساكن فى كل مكان من مراكز جومون على المنحدرات والشواطىء ، كل ذلك يدل على وجود مجموعات صغيرة من أناس أنصاف متجولين كانوا يطوفون فى أرجاء مناطق محدودة ، وقلما كانوا يتصلون بسكان المناطق المجاورة . ولابد أن يكون قد انتقل هذا التقدم بشكل انبثاقات شاردة فى عهد انعزالى كهذا . ولا عجب إن كانت طريقة حياة الجومون قد عمرت طويلا فى أجزاء من اليابان دون أن تربطها علاقه بالأصول الزمنية للتاريخ الحقيقى فى تلك البـــلاد .

ويتمثل عصر جومون فى ألوف المراكز ، ويدل هذا بوضوح كذلك على طول أمده . وقد ظهرت أصوله فى طور الجومون الأوائل نتيجة لصنع الخزف البسيط الذى كان يصنعه صيادو الحيوان أو جامعو الأسماك الصدفية الذين قدموا فى الغالب من الشمال . أما نهايته فى عصر جومون الأخير فقد ظهرت حين أخذ صيادو الأسماك والحيوان الذين استوطنوا القرى يصطنعون الزراعة إلى حد ما . وكانت أول غلات حقولهم — كما يستفاد من ثقافة أنجيو بسهل طوكيو (كوانتو) — الفاصوليا والقنب والحنطة السوداء والسمسم الهندى (الجنجيلى) ، كما عرف الحصان واستؤنست الماشية . ولدينا بعض الأدلة على الاتصال بحضارات أخرى مشوبة تنتمى إلى قارة آسيا نفسها من حيث الأصول الزخرفية على الخزف والنماذج الأولية المصنوعة من الحجر التى صيغت على نمطها مصنوعات معدنية كالسيوف فيما بعد .

وكان أصحاب ثقافة جومون على الأرجح من القوقازيين فى أطوارهم الأولى على الأقل ، ولكن يظهر أنه قد تزايد دخول أعداد من المغول إلى جزر اليابان

إبان ذلك العهد . ويحتمل أن هذا الانقسام الإقليمى قد أدى إلى وجود جيوب لـكل جنس فى أنحاء البلاد ، مع ميل من جانب القوقازيين إلى التشبث بالجهات الشمالية والوسطى من جزيرتى هنشو وهوكايدو . أما الأينو الحاليين فهم على أرجح الظن قد انحدروا من أولئك القوقازيين القدامى . أما فى العهد التالى ، عهد يايوى ، فقد كانت ثقافة السكان مغولية بحتة .

يايوى :

يرجح أن يكون عهد يايوى قد بدأ فى القرن الثالث قبل المسيح ، وأن يكون قد سادته ثقافة « ياماتو » إلى حد ما أو « ثقافة القبر » فى القرن الثالث بعد المسيح ، فهو بذلك عهد فائق الأهمية بالنسبة لليابان فيما قبل التاريخ . ولـكن ما نعرفه عن هذا العهد أقل لسوء الحظ عما نعرفه حتى عن عهد جومون المتقدم ، ومع ذلك فإن ما نعرفه عنه يعتبر بالغ الأهمية . فهناك طائفة من السمات يعرفها الملمون بتاريخ الصين فيما قبل التاريخ ، وهى سمات تشبه شبهاً قاطعاً تلك الآثار التى وجدت فى شرق الصين . وهى تعد جزءاً من الثقافة التى يطلق عليها ثقافة الخزف الأسود ، إذ كانت تشتمل على زراعة الأرز التى يحتمل أنها استمرت فى الجهات المنخفضة .[1] واستخدمت فى الزراعة طريقة المدرجات الفيضية الشبيهة بالطريقة المستعملة فى الوقت الحاضر . كما وجدت هناك عجلة الفخار والأوانى ذات القاعدة الشبيهة بأوانى « تشينج ـ تزو ـ ياى » . وهناك طريقة إنضاج الأرز بالبخار بوضعه فى جرات مزدوجة كالطريقة المستعملة فى شرق الصين (التى صنع من أجلها الشكل المستعمل فى هسيان) ثم السكين الهلالية والبلطة المربعة الشكل (فى القطاع المستعرض) ، وربما البيت القائم على الدعامة الواحدة ذات الحافة الذى كان معروفاً فى حوض النهر الأصفر فى نحو الألف الثانية قبل الميلاد على الأقل .

---

(١) يلاحظ أن معظم مراكز جومون تقع فى سفوح الجبال .

وفى وسط وأواخر عهد يايوى ظهرت الأسلحة النحاسية والبرونزية (سبيكة) ، والأدوات وغيرها من الأشياء غير المألوفة . وهناك بعض الأدلة على استخدام الحديد بكميات صغيرة ، ومع أن التوزيع الجغرافى لهذه الأشياء المعدنية يعد محدوداً فى عهد يايوى (كانت مقصورة أساساً على غربى اليابان) ، فإن وجود أدوات مشهورة كالأجراس والعملة والمرايا التى ترجع إلى أسرة هان القديمة ، والتى كانت بالطبع من الأشياء المستوردة من الخارج ، يجعل تحديد تاريخ عهد يايوى أقرب إلى الدقة .

وواضح من البقايا الأثرية فى يايوى أننا نتناول بالبحث أسس الحضارة اليابانية . فهنا الاقتصاد الزراعى الذى يعد أساساً حقيقياً للدور التاريخى فى اليابان . أضف إلى ذلك الأدوات الضرورية للزراعة كالمجارف الخشبية والمعازق والمدقات وغيرها ، (١) وبذلك تصبح لدينا مزرعة يابانية حديثة كاملة مزودة ببيت مسقوف بالبوص ذى فناء .

وتنحصر ثقافة يايوى فى « كيوشو » وجنوب « هنشو » برغم وجود عناصر أخرى فى بعض الجزر التى تعد بمثابة القنطرة ، مثل جزيرة « إيكى » وحتى بفرض عدم وجود سمات صينية معروفة تعادل بعض السمات التى وجدت فى يايوى ، فإن هذا المثال الثابت ليدل فى حد ذاته على وجود أصل جنوبى لهذه الحضارة . وينبغى بطبيعة الحال أن نحتاط إلى حد ما عند النظر فى هذا الانتشار لسببين وجيهين للغاية : الأول أن عمليات التنقيب والمسح فى مراكز يايوى غير كافية بالنسبة لما يمثله ذلك العهد . والثانى أنه من الواضح أن زراعة الأرز تتركز بطبيعتها فى المناطق المناخية الملائمة مثل الجهات الجنوبية .(٢)

وينشب بعض الجدل حول أصل ثقافة يايوى ، أولا لأن المناطق التى تقع بين

---

(١) استخرجها رجال الآثار من مراكز يايوى .

(٢) لايشترط أن تكون سمات يايوى قد اعتمدت على الأرز فى الشمال ، بل على بعض الموارد الاقتصادية الأخرى . ومع ذلك فقد غير طابع الثقافات الشمالية إلى طابع يايوى . ولكن هذا مجرد نظرية قصد بها تنبيه القارىء إلى المزالق التى تعترض المرء فيما يظن أنه من الافتراضات المؤكدة فى الآثار اليابانية .

الصين واليابان مثل كوريا ومنشوريا وغيرها كان ارتيادها ضعيفا للغاية ، ويحتمل أن يكون سير أية حركة ثقافية على امتداد سواحل بحر الصين قد اقتضى عهداً طويلا إلى أن بلغ اليابان ، ومن ثم فلا عجب إن كانت قد تغيرت منها سمات كثيرة ، أو حتى فقدت معالمها فى أثناء سيرها من مواطنها الأصلية التى نبتت فيها وترعرعت ، ويبدو مرة أخرى أن هذه المشكلة شبيهة بمشكلة ثقافات العصر الحجرى الحديث بالصين . ووجود طائفة من السمات فى يايوى ، مطابقة فعلا لحضارة الخزف الأسود يدل على أن الأصل متشابه . ويجب أن نتذكر أيضاً أن ثقافة الخزف الأسود بالصين كانت على الأرجح أسبق من أسرة « شانج » . وبناء على هذا تكون السمات التى انتقلت من شرق الصين إلى جنوب اليابان قد قطعت هذا الطريق فى ألف عام على الأقل ، وهى مدة كافية لتغير خصائصها الثانوية .

فدليلنا إذن يؤيد أن الحافز الثقافى نفسه الذى غير أسلوب الحياة الصينية فى الألف الثانية قبل الميلاد كان يعمل أيضاً فى اليابان قبل الميلاد المسيحى بقرون قليلة ، وهنا كانت نهاية الانقلاب الذى حدث فى إنتاج الطعام الذى بدأ فى غرب آسيا قبل ذلك بنحو ستة آلاف عام فيما يظن . أما بالنسبة لليابان فقد كان هذا هو الأساس العملى لنظام المجتمع فى القرية والمدينة ، وهو الأساس الحقيقى لقيام الحضارة اليابانية . وفى عهد يايوى نجد بوادر انحلال الانفصال الإقليمى ، لأن الحاجات العامة إلى الزراعة والتخصص المهنى زاد من درجة الاتصال بين المناطق المختلفة ، وهذا فى الواقع كان الأصل فى نشوء الدولة الموحدة لأنه بالرغم من بقاء بعض الأقاليم متمسكاً بالعزلة الإقليمية لاختلاف ثقافتها فقد ظهر هنالك اعتراف فى الأقاليم المختلفة بالذاتية أو الكيان العام ، ودراية بأسلوب خاص للحياة ، وبعبارة أخرى زيادة التسليم بوجود ثقافة يابانية. ولكن مدى سيطرة هذا الاعتراف على الموقف أمر لا يمكننا إلا أن نفترضه افتراضاً . ومع ذلك فمن الجلى أنه قامت فى العصر التالى لعصر « ياماتو » أنظمة وطنية راسخة كنظام حكم الإمبراطور ، ونشوء نوع من الكنيسة الوطنية .

ويجب أن نعتبر أهل جومون بالنسبة لهذه الحقيقة الأخيرة، ممن يدينون بالمذهب الحيوى الذى يعتقد أتباعه أن الأرواح الموجودة فى الطبيعة لها دور معين تؤديه فى حياة الشخص. ولقد لعبت هذه العبادة دوراً خاصاً فى تشكيل طابع الثقافة اليابانية لا جدل فيه. ومن المفيد أن يقف القارىء على وجهة نظر أحد المؤرخين المشهورين:

«إن الروايات القومية المتواترة تشرح حالة مجتمع تلعب فيه المحافظة على الطقوس الدينية دوراً هاماً، ومع ذلك فإن أقدم الديانات يمكن أن نصفها بأنها ديانة تأليه الوجود وعبادته، وهى دون شك ديانة غير سامية تقوم على فكرة غائمة غير مبلورة عن الوجود بوصفه مكوناً من عشرات الألوف من الصفات الحسية. وعبادة الطبيعة التى يكون الباعث الأصلى فيها هو الإعجاب لا الخوف، ينبغى ألا نطرحها جنباً لأنها أساس معتقد «حيوى فتيشى» [1]. وأكثر من هذا أنه معتقد خيِّر ورحيم فى حياة اليابانيين فى الوقت الحاضر. ويمكن أن نتتبع أثره ونرده إلى المشاعر التى حدت بأسلافهم القدامى ألا ينسبوا القداسة إلى الأشياء التى توحى إليهم بالخوف كالشمس والقمر والعاصفة، أو الأشياء النافعة كالبئر ووعاء الطبخ فحسب، بل كانوا يعزونها أيضاً إلى الأشياء المحبوبة والسارة كالصخور ومجارى الأنهار والأشجار والأزهار. وعبادة مثل هذه الأشياء لها نصيب آخر فى ذلك الانفعال الرقيق بنواحى الجمال الطبيعى الذى يعد من المميزات المحببة فى اليابانى الحديث».

ويرجح أن «الشامانية» قامت بدور رئيسى فى السحر المقصود به قنص الحيوان وصيد السمك، وكلاهما كان يسبب قسطاً من العناء فى الحياة اليومية. ولا تختلف عقائد شعب جومون فى ذلك عن عقائد أقربائهم بآسيا الشمالية، بل قد لا تختلف عن

---

(١) المعتقد الفتيشى، عقيدة بدائية مؤداها أن مادة من الجماد تحل بها الروح، أو أنها هى نفسها ذات قوة سحرية، ومن ثم يجب تقديسها وعبادتها. عن (قاموس أكسفورد)

عقائد الصينيين الأقدمين الذين لا نعرف عنهم غير القليل . فإذا كان مجيء الثقافة الزراعية ، وثقافة يايوى يفسر التأثير الصينى ، فيجب أن ندخل فى اعتبارنا سمة أخرى تمتاز بها الثقافة اليابانية . ويرجح أن عبادة الأسلاف ذات أصل فى الصين — وربما كانت فى غربى الصين (انظر فصل ١٠) . ويبدو أن هذه العبادة كانت مرتبطة عن كثب بالزراعة ، أو بمعنى آخر مرتبطة بالحياة القروية المستقرة التى تهيؤها الزراعة . ومع ذلك فيلاحظ أن الاهتمام الأول فى عالم المذهب الحيوى يتجه إلى تأليه الأسلاف الذين يكفلون للأسرة الشرف نظراً لحبهم لها ، سواء منهم الأحياء أو الأموات .

ولهذه العقيدة ارتباط وثيق بالمواسم ، وبالحاجة إلى الاستمرار وتجديد خصب الأرض والأسرة . وبالرغم من أن عقائد الشنتو — التى انبثقت من المذهب الحيوى اليابانى القديم تشتمل على آلهة وأرواح قامت بأدوار مشابهة ، فإن هنالك زيادة على ذلك عنصراً ذاتياً آخر يفصل بوضوح بين العقيدتين — وعقيدة الشنتو تخضع فى معظمها إلى القوى الخارجة عن ذات الشخص ، أما عبادة الأسلاف فإن معتنقها يستمد أعماله وأفكاره الشخصية التى تؤثر فى جميع أفراد أسرته ، من شعوره الباطن — وبمعنى آخر من الضمير . أما المدى الذى يمكن أن ينتهى إليه التعقيد فى هذه العبادة اليابانية الثنائية فتدل عليه « الهارا — كيرى » أو (سپّوكو) . وأحد وجهى هذا العمل يتضمن تضحية الشخص بذاته عند موت السيد المحبوب (جونشى) لكى يرافقه فى العالم الآخر ، وهى عادة يبدو أنها مستمدة من معتقد قديم من معتقدات الأسلاف الأولين ، ولذا فإن أصلها قد يردّ إلى الشنتو [1] . أما الوجه الآخر فهو الانتحار من أجل ارتكاب فعل يحتمل أن يكون فيه تحقير للأسرة أو ينطوى على تحقيرها فعلا ، أى تحقير الأسلاف . وبالرغم من عدم تناقض ناحيتى الهارا — كيرى

(١) الشنتو — Shinto : Shin = آلهة ، to = طريق : ويقوم هذا المعتقد على أساس الاحترام والتقديس لأرواح الأباطرة السالفين والشخصيات التاريخية والآلهة . (Webster International Dictionary) (المترجم)

فإنهما مختلفتان فى الباعث . ويتضح فى الواقع أن باليابان مزيجاً معقداً يتكون من معتقدين على الأقل .

ويبدو أن هذا الاندماج نتيجة اختلاط ما بين معتقدين ، أحدهما يابانى الأصل، وهو الذى نشأ فى العهد السابق على يايوى ، والآخر صينى . وتوضح هذه الظاهرة الطابع الفردى فى ثقافة الجزيرة ، لأنها تقبلت خلال القرون التى انقضت على وجودها ، كثيراً جداً من السمات الصينية ، وأفادت منها باعتبارها عناصر ضرورية لحضارتها،ولكنها فى كل حالة كانت تجد تفسيراً يابانيا وطابعاً واضحاً كل الوضوح.

الواقع أن اليايوى كان خاتمة عهد ما قبل التاريخ فى اليابان . وفى آخر أطواره ازداد استخدام المعادن وخاصة البرونز . والأمثلة الواضحة على المتاجرة مع الصين على عهد أسرة هان ، أو على الأقل ، على قيام علاقة دائمة معها لتدل على الاقتراب الوشيك من نهاية العصر السابق للتاريخ .

ومما يدعو إلى العجب ، انتشار أنواع من الخزف والأشياء المعدنية فى اليابان تؤدى إلى الاعتقاد بوجود انقسام ثقافى وسياسى بين شرق اليابان (شرق البحر الداخلى — كانساى .. الخ) وغربها (غربى البحر الداخلى - كيوشو .. الخ) . وليس لدينا فى الوقت الحاضر وسيلة لمعرفة دلالة هذا التقسيم .

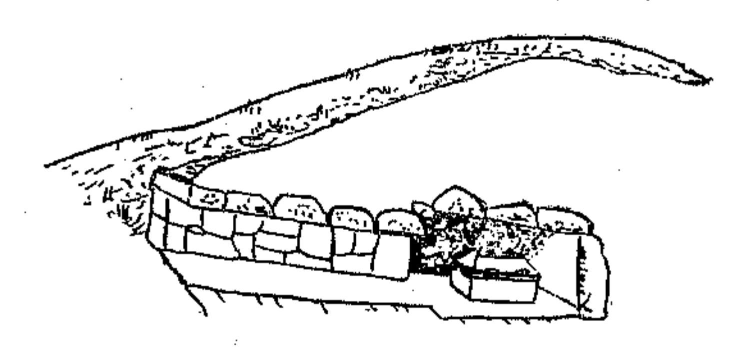
ياماتو :

فى نحو منتصف الألف الثانية قبل الميلاد ، اضطربت مناطق كبيرة من العالم القديم المستقر فى أوراسيا كما أشرنا من قبل ، وذلك بسبب غزوات قبائل الرعاة القادمة من أواسط آسيا . وقد اقتبس هؤلاء الغزاة من الشعوب المغلوبة ثقافاتهم المتقدمة ، وإن كانوا قد رسموها بطابعهم الخاص ، وأصبحوا بدورهم شعباً مستقراً . ويبدو أن تحركات قبائل الرعاة المختلفة قد استمرت حتى عهد « جنكيز خان » على الأقل فى القرن الثالث عشر الميلادى،مع فترات كان يسودها الاستقرار من حين إلى آخر ، ولكنها لم تكن

بالفترات الطويلة. وقد احتشدت جموع من هؤلاء الرحل على حدود الصين فى عهد هان، وحدود الدولة الرومانية مما هيأ لهم الاتصال بثقافات كفلت لهم فنونها مزايا جديدة على الأقل فى إتقان الأسلحة وإعداد المسكن، ووسائل كسب العيش. وفى ظل هذه الظروف، انتقل كثير من ألوان التقدم، من المناطق المتحضرة فى أوراسيا فاجتازت آسيا بسرعة، وكان من سماتها صناعة المعادن وبخاصة الحديد والمركبات ذات العجلات، وأنواع من الأدوات والأسلحة والمجوهرات، وطرق النسيج، والمبانى الفخمة من بين أشياء أخرى كثيرة ـ كل ذلك كيّفه الغزاة وفقاً للأغراض الخاصة بحياة التجول. وباختلاطها بالسمات الخاصة بآسيا الوسطى، كالدرع المشقوقة، والملابس المخاطة، واقتناء الباز والقوس المركبة، وإقامة السلطة الكهنوتية للقبيلة ـ يستبعد أن تكون الثقافات الرئيسية لهؤلاء الرحل، بآسيا الوسطى مجرد ثقافات مصطنعة. فسور الصين العظيم، وأحابيل الرومان، والمدن الحصينة فى أوربا الوسطى، كل ذلك لم يكن له أية ضرورة لصد قوم رحل بدائيين كما وصفهم بعض كتاب تلك الأيام. لقد كان هؤلاء الرحل فى كثير من الأوقات يشملهم النظام وحسن التعبئة كما كانوا فى نفس الوقت يمتازون بالشجاعة إلى حد التهور. وقد أكسبتهم حياة السهوب القاسية تدريباً عالياً على قوة الاحتمال إذا اقتضى الأمر أن يقاتلوا فى الميادين الأجنبية. لقد كانوا فى الواقع أعداء يرهب جانبهم، كما كانوا فى نفس الوقت من ناشرى الثقافة الممتازين ينقلونها من الأقطار البعيدة فى عالم أوراسيا.

وفى بداية القرن الثالث الميلادى وصلت إلى اليابان طائفة من ثقافات آسيا الوسطى عن طريق شبه جزيرة كوريا؛ وواضح أن هذه الثقافات قد وصلت فى أول الأمر إلى كيوشو، ومنها تحركت صوب الشرق على امتداد شواطىء البحر الداخلى حتى وصلت إلى شبه جزيرة ياماتو. وفى المنطقة الأخيرة، مهدت هذه الثقافة «الغازية» لليابان، أبرز طابع ثقافى ممثلا فى القبور المغطاة برابية من التراب ـ فانتشر هذا القبر

المركب إلى شمال كيوشو ، ثم إلى إقليم طوكيو ، ولـكن وفرته لم تبلغ فى أى إقليم آخر ما بلغته فى إقليم ياماتو .



شكل ١٨ — ممر يؤدى إلى قبر وناووس للدفن

وهذه القبور مختلفة الأشكال : مستديرة ومربعة ، وعلى شكل ثقب المفتاح وكانت تبنى عادة على شكل مدرجات أو مصاطب ، إما فى التلال المجاورة (وهى الأقدم عهداً) وإما فى وسط حقول الأرز (وهى أحدث عهداً) . وكان الميت يودع فى الأرض بالجزء العلوى من الربوة . وفى آخر طور من عهد ياماتو كان يودع ناووس الميت حجرات مبنية من الحجر ، كان بعضها يقسم قسمين . الممر وحجرة الناووس ، وكان بعض هذه القبور يقام على شكل مائدة حجرية فى قاع الوادى وبعضها الآخر يكتفى فيه بحفرة فى منحدر التل .

وتدل ضخامة الحجم التى تمتاز بها بعض هذه القبور المرتفعة على أنها كانت قبوراً ملكية . والواقع أن بعضها كان معروفاً بأنها قبور أباطرة معينين ، مسجلة أسماؤهم فى أقدم أسفار اليابانيين (كوجيكى ونيهونشيكى). ويشغل مدفن الإمبراطور ننتوكو ، بما فيه من خنادق مسطحاً قدره نحو ٨٠ فداناً ، كما يبلغ ارتفاع القبر ٩٠ قدماً ! وطوله ١٢٠٠ قدم ! ولاشك أن تشييد مثل هذا القبر اقتضى عمل آلاف الرجال . ومع أن حكم ننتوكو كان سابقاً للأسفار (نحو سنة ٤٠٠ ق. م) ، فإن سياسة الرقابة التى اتبعتها حكومته فى حكم الشعب لم تكن بحال أقل قوة أو تنظيما من سياسة حكومة

مصر فى عصر الأهرام . ومع أن اليابان فى عصر ياماتو كانت توسع حدودها باستمرار ، فإنه من المستبعد أن يكون بناء القبور وما إليها قد تم عن طريق تسخير العبيد . والمرجح أكثر من ذلك أن تقديس الإمبراطور هو الذى كفل للشعب الحركة والنشاط بقدر ما كفل تقديس المصريين القدماء لفرعون تشييد آثار الجيزة .

وتوجد قبور من هذا الطراز فى كوريا لاتختلف بدورها عن قبور ملوك أسرة شو المنخفضة فى الصين الشمالية بوادى نهر « وبى » ، كما أننا ينبغى أن نذكر القبور المشيدة على الروابى بآسيا الوسطى وسيبريا التى يرجع تاريخ بعضها إلى الألف الثانية قبل الميلاد ، ومعنى هذا أن فكرة قبور الروابى فكرة قديمة جداً . ويظهر أن درجة إتقانها تتوقف على طبيعة الثقافة التى تضمها هذه القبور ، كما يوحى قبر ياماتو المعقد إيحاء قوياً بتأثيرات آسيا الوسطى الآتية من صميم القارة .

ومن أكثر المظاهر بهجة فى هذا القبر المعقد ما يعرف بتماثيل (هانيوا) المفرغة المصنوعة من عجينة الصلصال والرمل المحروقة فى النار ، وهى تصوير واقعى للأتباع والحرس والخيل وغيرها من التماثيل التى توضع فى صفوف حول جوانب القبر المنحدرة أما الأسطوانات الفخارية ، فلعلها كانت محاكاة لأعمدة الأسوار ، أو لمنع التربة من الانهيار ، إذ كانت توضع هنا وهنالك حول القبر ، وكان بعضها ذا أشكال رائعة ، وبأعلى قمة المركز أقيمت مزارات نموذجية ومبان أخرى ، ويرجح أن تماثيل الـ (هانيوا) هذه تشير إلى عادة قديمة ، هى دفن الأتباع والخدم والأقارب وغيرهم مع الميت لكى يضمنوا له بطانة لائقة ، وهى عادة معروفة فى الصين على عصر الشانج ولكن يبدو أنها لم تكن رسمية فى اليابان فى عهد ياماتو .

وتعد تماثيل هانيوا مصادر ممتاز للاستدلال على مستلزمات القبر لأن تماثيل الخيل قبل كل شىء تلفت نظرنا وخاصة من ناحية تصوير السرج والركاب المستدير والأعنة التى تدل على تفوق تام فى فن تربية الخيل ، وهى تدل فى نفس الوقت على أهمية الحصان فى ذلك الحين . وللمحاربين أهمية أيضاً لأنهم يخدمون غرضاً ذا ثلاث شعب :

١ — توكيد الأهمية المنتظرة من طبقة الجند . ٢ — و وصف أصول المميزات الخاصة بالعدة الحربية اليابانية (الخوذات والسيوف والدروع الواقية للجسم ، وهى كبيرة الشبه بالعدة فى عصور الإقطاع اليابانية . ٣ — هذا بالإضافة إلى دلالتها على الانتشار من آسيا الوسطى (الدرع اللوحى ، وطراز القوس ، والرمح والتضريب) .

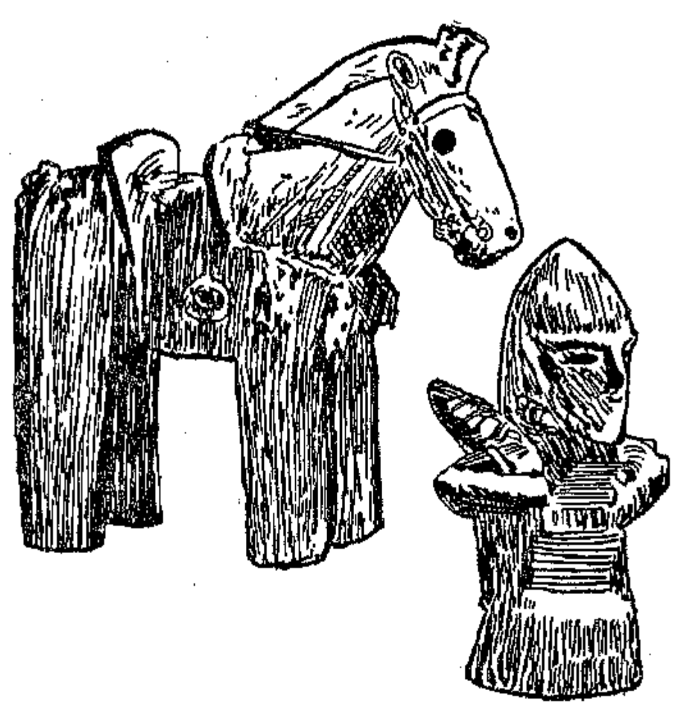
وهناك تمثال لطيف وجد فى حفريات ولاية « جمّا » لمحارب كامل العدة،بسيف قصير وحذاء ركوب وشعر مقصوص بضفيرتين مرسلتين من الأمام على جانبى رأسه حتى كتفيه . وحول عنقه عقد من الأحجار أو القطع المعدنية يعلوها جميعاً قبعة ذات حافة مستوية . وألطف من هذا آلة خشبية ذات خيوط يحملها فوق ركبتيه ، ويجذبها بإحدى يديه (ويلبس قفازاً يحمى كفيه والجزء الأدنى من ذراعه) . وقد تكون هذه الآلة هى سلف القيثارة ، وهى عمدة الموسيقى اليابانية التقليدية .

ومما يدعو إلى الدهش تلك الوفرة التى تمتاز بها المادة الثقافية التى كشف عنها فى مجموعات هانيوا والتى تختلف من القوارب إلى العقد البارزة على الملابس . ومن أهم ما قدمته هانيوا ، محافظتها على السمات التى ساعدتها طبيعتها على البقاء ، وإلا لكانت قد انقرضت منذ عهد بعيد ، مثال ذلك استخدام شعب ياماتو للوشم وزخرفة الجسم التى تدل عليها الخطوط الملونة على وجوه أهل هانيوا . كما أن الخياطة تعد سمة أخرى ، وكذلك الطين المحروق بسبب مقاومته الكبيرة ، كل ذلك قد حفظ لنا سجلا ثميناً من ذلك العهد السحيق .

ووجد بالقبور أدوات الميت وتشمل سلعة « سو »،وهى سلعة تحرق فى نار شديدة الأوار حتى تصبح زجاجية فى بعض الأحيان بسبب ذوبان السليكا بالحرارة الشديدة . كما وجد خرز « الماجاتاما » المخلبى الشكل . ويرجح أنه اقتبس من العقود التى كانت تصنع من المخالب فيما سبق (١) . وتصنع الماجاتاما من مواد مختلفة منها الزجاج

---

(١) وهناك أمثلة من الماجاتاما مصنوعة من القرون والعظم والحجر مستخرجة من مراكز جوموما .



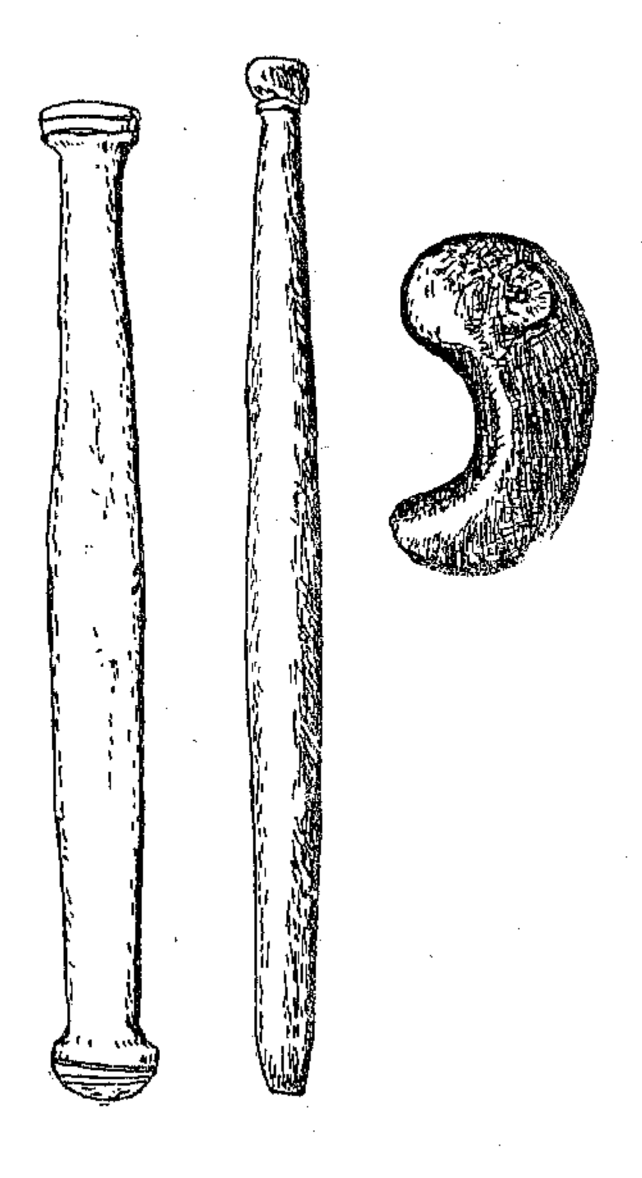
شكل ١٩ — هانيوا

ومع ذلك فن الأهمية بمكان تلك الأشياء المصنوعة من حجر اليشب والحجر الكلوى وهى ليست من الأحجار المحلية ، بل يرجح أنها مستوردة من إقليم بحيرة بايكال .

وقد وجدت فى القبور الأسلحة الحديدية ، والعدة الحربية ، والحلى ، والأدوات ، وهذه جميعا أدلة حاسمة على حداثة عهد ياماتو فى عصر ما قبل التاريخ ، وعلى تقدم اليابانيين فى صناعة المعادن .

إن وفرة الآثار التى وجدت فى القبور ، والصفات العالية التى امتازت بها صنعة عدد وافر جداً من المصنوعات اليدوية تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن هذه الأشياء طقسية قبل كل شىء ، وذلك لأنها أقل من غيرها تمثيلا للحياة اليومية ، إذ كان يستخدمها الأحياء فى أغراض طقسية تلائم المعتقدات الخاصة بالموتى [١] . ومع ذلك فلا جدل

(١) ومع ذلك فقد وجدت بعض المعاول والمعازق والمناشير ورءوس المحاريث فى أضرحة الدفن الحجرية الخاصة بأشخاص ليس لهم شأن يذكر .



شكل — ٢٠
سكيبو وماجاتاما

فى أن ثقافة ياماتو قد حققت عملا ساميا ، والشىء الوحيد الذى يمنعنا فى الحقيقة من أن نطلق عليها لفظ « حضارة » (لأن مفهوم هذا اللفظ قد تحدد حديثا) هو خلوها من الكتابة . أما بقية مستلزمات الحضارة فقد كانت ماثلة فى نظام الحكومة

المركزية القوية ، مراكز آهلة بالسكان ، ونصب تذكارية ، والتخصص التجارى ، وساطة كهنوتية ، وغير ذلك .

ومن المؤكد وجود ثقافات هنالك عبرنا عنها نحن بلفظ حضارة ، كانت تشتمل على الكتابة ، ولكن مؤهلاتها كانت فى الحقيقة أقل من مؤهلات ياماتو من حيث ما أنجزته فى النواحى الأخرى . ومهما كانت الحال فإن مجىء البوذية فى القرن السادس الميلادى مصحوبة باستخدام الكتابة الصينية ، سلك الحضارة اليابانية بين حضارات العالم – وهو فهم جاء متأخراً ، فى حين أنه كان منتظراً منذ مجىء فلاحى يايوى قبل ذلك بعدة قرون .

ولدى اليابانيين أسطورة عن الخلق مسجلة فى « كوجيكى » ، وهو سفر يرجح أنه كتب فى بواكير الشطر الأول من القرن الثامن [١] . ولهذا السفر أهمية كبرى بوصفه سجلا للأساطير السابقة على البوذية ، ويبدأ هذا السفر بقصة خلق الآلهة السماوية وسلالاتها السبع المقدسة التى منها ، الذكر إيزاناجى ، وأخته إيزانامى ، اللذان خلقا اليابان ـ وهو حدث مشهور فى الأغانى والتصوير .

« دفع الإلهان الواقفان فوق جسر السماء السابح فى الفضاء ، برمحهما المرصع بالجواهر إلى أسفل ، فحركا به إذ ذاك كل شىء ، فلما حركا اليم راح يهدر . . . كوورو . . كوورو [٢] . فلما سحبا الرمح إلى أعلى تساقطت من سن الرمح قطرات تراكمت فاستحالت جزيرة » .

وبعد أن خلق الإلهان الأرض هبطا ليخلقا جزائر أخرى ، ثم انتقلا إلى منح الحياة لعدد كبير من الآلهة يتصل سلطانهم بالعالم المادى : البحار و الجبال والرياح

(١) لا بد أن تكون هناك أسفار أقدم من الـ « كوجيكى » اعتمدت بدورها على الروايات الشفوية ، كما كانت هناك أيضا كتابات معاصرة ولكن لم يبق منها شىء على الزمن .

(٢) إن اللغة اليابانية مليئة بالتعبيرات الصوتية المطرمة الفتنة والحيوية ، وربما كانت لفظة كوورو . . كوورو تدل على صوت الماء حين يتحرك بسرعة فى حركة دائرية .

والأشجار والفصول وغيرها . وبينما كانت « إيزانامى » تحمل النار الإلهية احترقت وماتت ، فحزن عليها إيزاناجى حزناً شديداً ، ولكنه رغم حزنه خلق الآلهة .

وبينما كان يزحف حول وسادتها الفاخرة . . وبينما كان يزحف حول قدميها الساميتين منتحباً ، ولدت من قطرات دموعه الجليلة الإلهية التى تسكن كونوموتو ، بالقرب من أنيوو على جبل كاجو . وكان يطلق عليها اسم « الإلهة الأنثى النائحة الباكية » . وهكذا دفن إيزانامى الإلهة المقدسة المنعزلة ، فى قبر بأعلى جبل «هيبا» على أرض إدزومو ، وأرض هاها كى .

ويذهب إيزاناجى إلى عالم الأرواح ليجد إيزانامى ، وبرغم تحذيرها إياه من النظر إليها ، فإنه فعل . ويراها إيزاناجى فى موكب الهلاك المرعب، فيفر مفزعا يتبعه أعوان إيزانامى التى أثار غضبها العار ، فتحاول أن تعاقب أخاها . . . وبعد مغامرات ينجو إيزاناجى ، ويتطهر بالاغتسال وينتج من هذا العمل ثلاثة آلهة على جانب عظيم من الأهمية .

كان اسم الإلهة التى ولدت حين كان يغسل عينه اليسرى السامية « أماتيراسو ــ أو ــ ميكامى» (إلهة الشمس)،واسم الإله الذى ولد بعد غسل عينه اليمنى السامية «تسوكى يومى نو كامى » (إله القمر) . أما اسم الإله الذى ولد بعد غسل أنفه السامى فكان « سوسانو ـ أو ـ ميكوتو » (إله العاصفة) .

وكان «سوسانو ـ أو» شخصاً مزعجاً تسبب مرة بأعماله الخبيثة فى اختفاء «أماتيراسو» بأحد الكهوف ، ومن ثم أظلمت الدنيا ، ومع ذلك فقد تداولت الآلهة فى هذا الشأن فأشار واحد منهم بصنع مرآة ، وخيط به خمسمائة جوهرة منقوشة (ماجاتاما)، ووضعها أمام الكهف. وقامت إحدى الآلهات برقصة خليعة أثارت ضحك جميع الآلهة، وأثار هذا الضحك فضول «أماتيراسو » فأطلت خارج الكهف ، وتناولت لساعتها الجواهر والمرآة التى أشبعت غرورها ، حتى إنها بقيت فى العالم خارج الكهف ، وأعادت ضوء الشمس مرة أخرى .

واختار الآلهة «ننجى ـ نو ـ ميكاتو» ، وهو أكبر أبناء «أما تيراسو» ليحكم فى الأرض ، فهبط بناء على ذلك إلى كيوشو ، واصطحب معه عقد أمه المصنوع من المرايا ، وسيفا منحه إياه «سوسانو ـ أو» فأصبح كلاهما شماراً لألوهية أباطرة اليابان .

وهناك قصص أخرى ، وخاصة قصة نيهونشيكى (نيهونجى) التى جاءت متأخرة قليلا فى الزمن ، ولكنها أكثر تضليلا ، وهى تروى قصة انتصار اليابان حين يتحرك الأباطرة من أحفاد «أماتيراسو» من كيوشو إلى الشرق والشمال ، فيلاقون فى بعض الأماكن ثقافات متقدمة وأخرى تافهة ، مثل ثقافة إيدزومو (جنوب غرب هنشو) ، وفى أماكن أخرى يحاربون المتبربرين . ويمكن أن تكون هذه قصة أسطورية للتوحيد الحقيقى بين شعوب آسيا الوسطى ، واستقرارها فى كيوشو ، وتحركهم إلى الشمال حيث غزوا ثقافات أكثر تقدماً مثل ثقافة يايوى أو ثقافة ياماتو التى سبقتها ، فلاقوا مجموعات كانت لا تزال تعيش فى مثل مستوى جومون .

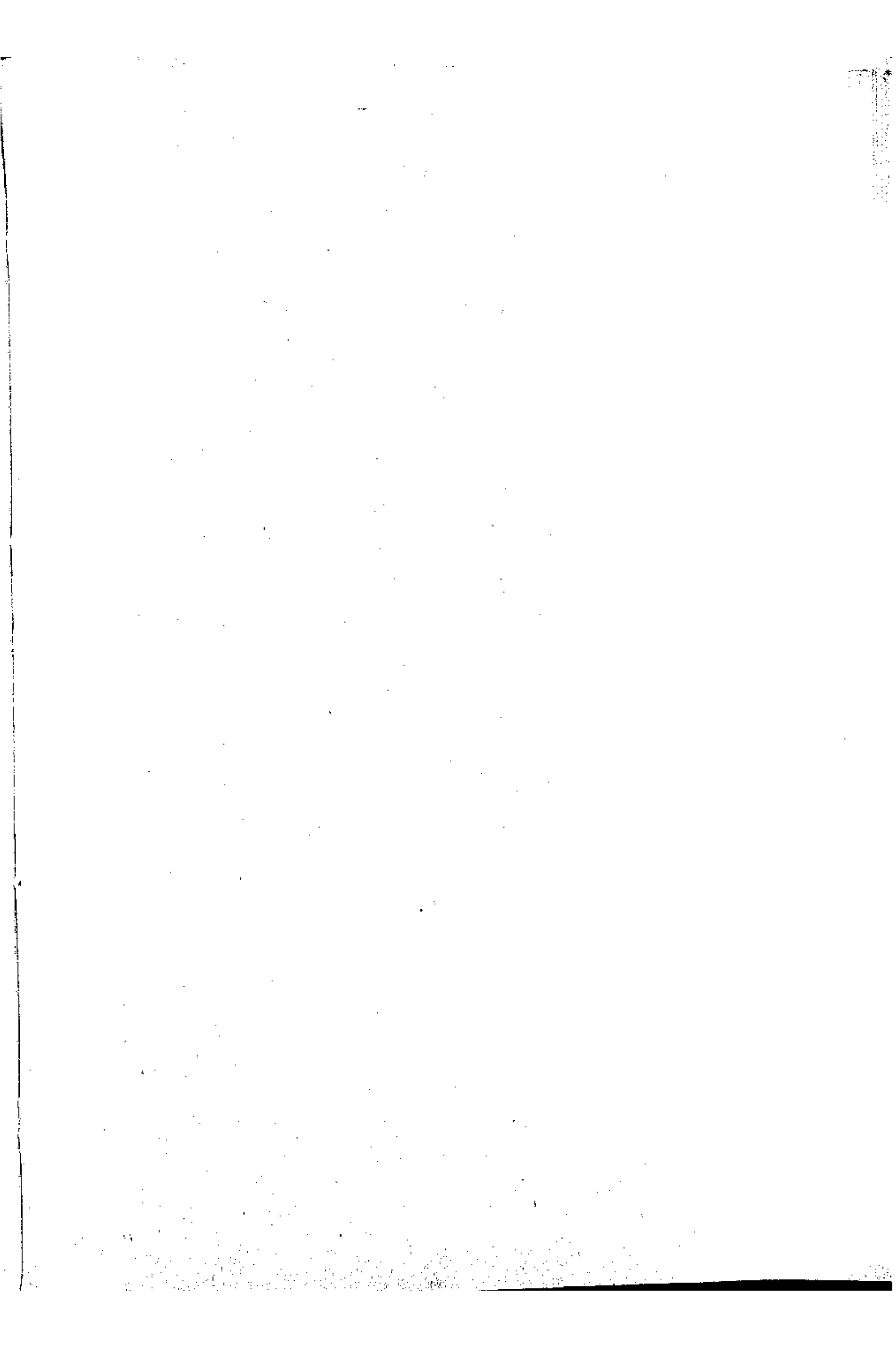
والإمبراطور جمو هو مؤسس إمبراطورية اليابان الشهير ، لأنه أخضع فى بادىء الأمر ياماتو فوحد بذلك ما يسمى بالمناطق النقية من كيوشو القديمة ، وإيدزومو وياماتو . ويجعل اليابانيون تاريخ التأسيس ١١ فبراير سنة ٦٦٠ ق . م ، ولكن هذا التاريخ وفقاً لمعلوماتنا الراهنة ، قد يكون حوالى عهد المسيح ، بل يرجح أنه كان بعد ذلك بقليل (١) .

ومن المؤكد أن تقارير «كوجيكى» عن أصول اليابانيين تناقض تماماً كتابات «كنفوشيوس» التاريخية عن أصول الصينيين . وإنا لنجد فى عمل اليابانيين شغباً وحركة ، من المؤكد جداً أن الصينيين الذين يعشقون الأرض ، اعتبروها سلوكا همجياً . ولا يسع المرء إلا أن يوازن بين أساطير اليابانيين عن آلهتهم ، وأساطير شعوب آسيا

(١) إذا سلمنا بأن بداية عهد ياماتو ترجع إلى القرن الثالث أو الرابع الميلادى ، فإنه من المحتمل تقديم تاريخ جيمو إلى هذا التاريخ السابق . ومع أنه واضح أن ثقافتى يايوى وياماتو مستمدتان من أصل جنوبى وغربى ، إلا أنه يظهر أن أهل ياماتو الذين يبدون فى ظاهرهم أقوى شكيمة هم فى الغالب الذين كانوا يطالبون بالمساواة بالأباطرة المحاربين الذين ذكرهم التاريخ القديم .

الوسطى ، إذ أننا نقابل فى الترجمات السيبيرية والمغولية والتنجوزية مرة أخرى ، آلهة العاصفة والرياح والنار فى روعتها البربرية ، والشمس والقمر ، بل والنجوم أيضاً مشخصة فى سيرَ أبطالها . أما ما ينقص أساطير شعوب آسيا الوسطى فهو آلهة البحر التى تلعب دوراً هاماً للغاية فى أساطير اليابانيين المحلية ، ويمكن أن تعد أساطير اليابان باستثناء آلهة البحر والماء ، ترجمات أخرى لقصص أبطال الرحل فى قلب آسيا .

ولو تأملنا الدليل على عصر ما قبل التاريخ فى اليابان كما هو معروف فى الوقت الحاضر ، فإنا لا بد أن نصدم بما يتسم به هذا الدليل إذ أنه يشير على الدوام إلى الروابط الوثيقة بينه وبين أرض القارة الآسيوية التى اقتبست منها سماتها الواحدة بعد الأخرى . وترتب على ذلك تكوين الثقافات الصينية الناهضة . وفى نفس الوقت نجد أنفسنا مضطرين إلى التسليم بأن هناك جواً دائماً من البعد ـ بل من العزلة ـ يجعلنا نسلم بذاتية واضحة مستقلة لهذه الثقافة اليابانية . فوجود مثل هذا التناقض يعد جزءاً من الظاهرة المعقدة المثيرة ، والبديعة أيضاً ، فى تاريخ الثقافة البشرية .



١٤ ـ التخوم

لقد كان الاهتمام فى الفصول السابقة منصباً على الأقاليم الزراعية فى الصين وبلاد اليابان المتصلة بها ، وذلك لسبب وجيه ، هو أنه لا يوجد مكان بشرق آسيا يماثل هذه المناطق من حيث وفرة الأدلة الأثرية ، وهو وحده ينبغى أن يكون سبباً كافياً . غير أن هناك سبباً يتمثل فى اعتقاد الصينيين القدماء ، وهو أن الصين كانت مركز كل شىء ، وأن إمبراطورها هو « ابن السماء » . وهناك أساس تاريخى لهذا الاعتقاد ، ذلك أن المرء حين يدرس ثقافات جارات الصين ، يدرك دائماً قوة تأثيرات الثقافة الصينية ، هذه التأثيرات التى لم يضعفها غير بعد تلك الأرض الغنية بثقافتها المتقدمة .

امتدت هذه الثقافات فشملت مناطق مختلفة حيث يعيش الناس تحت ظروف شديدة التباين ، فزراع الأرز بجنوب شرقى آسيا المدارية ، وأهل الشواطىء فى كوريا ، وسكان الغابات فى منشوريا ، وبدو الصحراء فى منغوليا ، ورعاة أقاليم الحشائش فى ألطاى ، وأهل الواحات فى سنكيانج ، والرحل بجبال التبت ، بل ويمكننا تتبع معالم الثقافة الصينية فيما وراء شعوب تلك التخوم ، فى بعض أجزاء من سيبريا أو على امتداد المحيط الهادى . وتدل قرائن ما قبل التاريخ ، فى بعض هذه الأقاليم ، على وجود كل من الطابع المحلى ، والتأثير الخارجى ، وأصول هذا التأثير الأخير صينية فى معظم الأحوال .

وبالرغم من اتساع دائرة الثقافة الصينية وبعد مداها فقد رأينا أن الأسس التى قامت عليها الصين فيما قبل التاريخ كانت أسساً غير محلية إلى حد كبير . وكان فعل المؤثرات الخارجية فى الصين عميقاً على الدوام ، منذ مولدها حتى قيام حكومتها المركسية الحاضرة . ولقد امتدت هذه السمات إلى الصين ، إما من مصادر بعيدة ، وإما أنها كانت تأتى إليها عادة نتيجة قوة دافعة من بعض جاراتها . ونتيجة ذلك أننا حين ندرس الصين القديمة ، تتلفت أعيننا على الدوام إلى البلاد المتاخمة للصين

التى أخذ سكانها عن الصين كما أعطوها طوال هذه الألوف من السنين .

ولذا كان من سوء الطالع أن معلوماتنا الأثرية فى هذا الإقليم الفسيح الذى يحيط بالصين نادرة للغاية . ولقد لعبت صعوبة المواصلات ومقتضيات الظروف السياسية ، والعوامل الجغرافية أدواراً فعالة فى تعويق البحوث العلمية . أما معلوماتنا عن عصر ما قبل التاريخ فى التبت وسنكيانج ومنشوريا وكوريا ، فقليلة أو منعدمة . وقدم الفرنسيون بعض معلومات عن الهند الصينية ، والبريطانيون عن الملايو . ويواصل الأمريكيون والسويديون بحوثهم فى منغوليا . وقد زودتنا هذه البحوث بصورة قليلة المعالم عن هذه البلاد فيما قبل التاريخ . وبدأ الروس بسيبريا إعداد طائفة من الأدلة لا شك ستنتهى إلى تسجيل آثار ذلك الإقليم تسجيلا يفوق ما عداه من أقاليم آسيا الوسطى والشمالية جميعا .

آسيا الجنوبية الشرقية :

أما بالنسبة لآسيا الجنوبية الشرقية التى سبق أن وصفنا التركيب الجغرافى لشواطئها المدارية . ووديان جبالها وهضابها المنخفضة ، فهنا نجد بعض الاختلاف بين الأهلين البدائيين المتناثرين الذين يعملون فى صيد الحيوان من الغابات الكثيفة ، أو الوديان المشجرة ، أو يزاولون اقتصاداً زراعياً محدوداً ، وبين شعوب المناطق المنخفضة التى يزرع فى تربتها الغرينية محصولات الأرز التى تفى حاجة السكان الكثيرين الذين تزدحم بهم القرى والمدن .

وتنمو النباتات نمواً غزيراً فى مناخ جنوب شرق آسيا الحار الرطب ، ومن المحتمل أن هذه النباتات ظلت تشغل كل الإقليم حتى قدوم زراع الأرز الأوائل . ومع ذلك فإن تطهير الأرض وإعدادها للزراعة أدى إلى إزاحة الغابات وتراجعها ـ والواقع أن رواد الزراعة من الفلاحين لا يزالون حتى الوقت الحاضر يوسعون فى رقعة أرضهم وينشئون حقولهم حيث كانت الغابة قائمة قبل ذلك بعام واحد . لقد كان صيد الغابة

فى الأصل شيئا نافعا للغاية،والواقع أن آسيا الشرقية لا بد كانت فى الأزمنة القديمة جنة الصيادين ، تضم نخبة هائلة من الحيوانات الكثيرة القريبة المنال ، من الفأر والغزال والسعالى إلى بقر النهر والفيل . وتمدهم الغابات كذلك بالجوز والفاكهة والحشائش . كما أن البحيرات والأنهار مصادر ممتازة للأسماك حتى اليوم .

لم تكن هناك فى الغالب حاجة قوية إلى مصادر غذائية أخرى فى عصور ما قبل التاريخ فى مثل هذا الموقع المثالى لجمع الطعام . وإذن فإن ما يكتشف على الدوام من مصنوعات يدوية فى رواسب العصر التالى للعصر الحجرى القديم ، بالهند الصينية والملايو [1] ليست إلا من صناعات جامع الطعام .

ولما كان الفرنسيون قد قاموا بمعظم العمل الضخم فى المنطقة فإن استدلالاتهم تعتبر بوجه عام أساساً للترتيب الزمنى المقارن فى كل المنطقة . ففى الإقليم الشمالى من تونكين (فيتمنة الآن) عدة كهوف صخرية تقع فى كتلة ضخمة من الحجر الجيرى يطلق عليها « با كسون » ، كما توجد مراكز أخرى شبيهة بها بالقرب من « هوبنة » أجريت بها حفائر وكتبت عنها عدة عشرات من التقارير . ويشبه ذلك أيضا أكوام المحار أو نفايات المطبخ (الزبالة) على مبعدة منها فى جنوب أنام وكمبوديا . وهذه أيضا قد فحصت ووصفت .

ولم تجر عادة الفرنسيين فى بحوثهم الأركيولوجية بالشرق الأقصى ، على وصف الترتيب الزمنى للحضارات كاملا مدعما بترتيب الطبقات الأرضية ، ومع ذلك فقلما تجد رواسب على عمق يزيد على متر واحد .

ويطلق على أقدم مجموعة « هوبنهيان » وهى مقسمة إلى أطوار قديمة ومتوسطة وحديثة . ويمثل القديمة والمتوسطة بنوع خاص ، الفئوس والكسارات والمجارف

---

(١) وحتى مع وجود الوسائل الزراعية القريبة المنال ، فمن المحتمل أن أعمال الصيد والجمع التى كانت تجرى بطريقة آلية ، قد عوقت التغيير الشامل . وأغلب الظن أن زراعة الأرض قد جلبها بعض الأجانب الذين استوطنوا هذا الإقليم .

المنحوتة من الحصى النهرى ، وهى أدوات بدائية تقريبا وعليها سمات العصر الحجرى القديم ، ومع ذلك فإن عدداً من حواف الأدوات الحجرية فى عهد هوبنهيان الوسيط صنعت بطريقة الشحذ التى تدل على احتمال تأثير العصر الحجرى الحديث . ويكشف طور هوبنهيان المتأخر عن عدد وافر من الأدات الحجرية أخصها النصال والجارف ذات صنعة تكاد أن تكون دقيقة . وبعض مصنوعات من العظام كالفئوس والشفرات والخزف الردىء .

وتنقسم مجموعة باكسون أيضا إلى أطوار قديمة ومتوسطة وحديثة ، وهى تشبه مجموعة هوبنهيان ، ومع ذلك فقد وجدت أدوات حجرية مهذبة أو منحوته أو مشحوذة تنتمى إلى أقدم الأطوار . وفى أواسط طور باكسون ظهر الخزف ، وهو ضفيرى النقش ، ويعد تمهيداً لظهور الخزف الضفيرى والحصيرى الأكثر إتقانا ، وكذلك السلع المحززة التى وجدت فى الطور المتأخر. ولا تختلف زخارف هذا الخزف عن النوع الذى وجد بالصين الشمالية وغيرها . وجدير بالملاحظة أنه وجدت كذلك فى هذا الطور المتأخر الخواتم أو الأساور الحجرية المنحوتة الشبيهة بما وجد بشمال الصين .

وتمدنا نفايات الأصداف فى سرمرونج ـ سن بالقرب من بحيرة تونلى ساب فى كمبوديا بمادة أوفر من هذه عن الأطوار الأخيرة للزمن الذى يعتبر من العصر الحجرى الحديث فى آسيا الشرقية . ومن سوء الطالع أننا لم نظفر بدليل من حفريات الطبقات الأرضية فى هذا المركز ، وإن كان هناك دليل على وجود الطبقات نفسها . وقد أنتجت هذه النفايات مقداراً كبيراً من الخزف المزخرف بحزازات وحليات وزخارف مكررة . وهناك « إحساس » خاص لدى الصينيين نحو هذا الخزف ، وهو إحساس قوى بنوع خاص بالنسبة للزهريات ذوات القوائم ، والأقداح المفتوحة ذات الحواف المطوية ، والأقداح العالية الكتفين . وتشتمل زخارف هذه الأوانى على خطوط منحنية ورسوم هندسية محززة تذكرنا برسوم هونان وكنسو الملونة . أما الأربطة المحززة فى شكل حليات فتذكرنا مرة أخرى بالشمال . فى حين أن

طريقة زخرفة المساحات « الخارجية » المحيطة بالرسوم ذات الخطوط المستقيمة الغائرة ، فشبيهة برسوم البرونز القديمة وهنالك دعوى فى هذه الناحية – وواضح أن إثباتها مستحيل – مؤداها أن المصنوعات البرونزية كان يعثر عليها مختلف الأشخاص فى هذه الطبقات العليا .

وكان من بين المصنوعات الحجرية المنحوتة ، الأقراط الحجرية أو الأساور ، والأسطوانات الحجرية ، والخرز العظمى وغير ذلك من الحلى المصنوع من العظام والصدف أو الصلصال . وكانت الأدوات الحجرية بنوع خاص لطيفة الصنعة ، وتشمل الفئوس والمقاور ، وهى جميلة الصقل . كما توجد صنانير السمك والحراب العظمية الخاصة بصيد الحيتان وهى تدل على أن الأسماك الصدفية لم تكن إلا نوعا واحداً من منتجات البركة أو مجرى الماء التى تضمها مخازن طعامهم .

وتدل المواد المستخرجة من سومرونج ـ سن على انتمائها إلى طور متأخر من أطوار الحياة السابقة على العصور التاريخية فى الهند الصينية ، قد تكون فى الألف الأولى قبل الميلاد . وقد يكفل لنا إثبات صحة المصنوعات البرونزية فى مكانها الطبيعى من المركز ، الوقوف على العلاقة بين ثقافات العصر الحجرى الحديث وعصر البرونز (دنج ـ سن) هنالك . ومع ذلك ، وحتى يتم هذا الإثبات ، ينبغى أن ينظر إلى هذا المركز باعتباره مكانا يتمثل فيه طور من أطوار العصر الحجرى الحديث فى آسيا الجنوبية الشرقية (اشتماله على الخزف والأدوات الحجرية المصقولة يجيز لنا تسميته بالعصر الحجرى الحديث) جاء متأخراً عن طور هوبنه وباكسون، أو معاصراً له (١).

وتتمثل ثقافات الهند الصينيـة إلى حد كبير أو صغير فى سيام و الملايو وجنوب

---

(١) الترتيب الزمنى للثقافات حسب تقدير ورمان سنة ١٩٤٩ ص ١٩٢ ، يرجح كثيراً أن يكون على الوجه الآتى :

طور هوسبنسيان المتأخر	باكسون المتوسط	سومرونج
» » المتوسط	» القديم	سن
» » القديم	» المتأخر	

الصين (وادى كوانجسى و يانجتزى) و ربما فى بورما. وقد امتدت أيضاً إلى إندونيسيا، ولـكن هذه الناحية بعيدة عن مجال بحثنا .

والطابع الذى تتركه هذه الآثار عند الإنسان هو القدم والتأخر ، فليس فى هذه المراكز جميعاً أدلة وافية على قيام الزراعة أو حتى استئناس الحيوان (باستثناء الكلاب)، فسكان الكهوف واللاجئون إلى الجحور الصخرية وأماكن النفايات ، كانوا من جامعى الطعام . وبالرغم من الأدوات الممتازة الصقل والحلى التى كانت لديهم فى أطوار احتلالهم المتأخرة لهذه الأماكن ، فلا تزال ثقافتهم تبدو أوليـة تماما ، حتى لـكأن طرقهم فى الصيد كانت متأخرة أيضاً . و إن المرء ليعجب هل هم يمثلون حقاً ثقافات جنوب آسيا فيما قبل التاريخ ، أم هم يمثلون فى الواقع مناطق التخوم ؟! لا يستطيع مدنا بالإجابة عن هذه الأسئلة غير البحوث الأثرية . وربما تتوفر هذه الإجابة عند ما يتم كشف قرى الصيد فى الوديان أو فى أراضى السڤانا (السهوب) بجنوب شرقى آسيا . ونقول مرة أخرى إن الفخاخ والبنادق القاذفة ، والمنازل المقامة على الدعائم ، والسلال، وغيرها من الثقافات كانت دون شك مصنوعة من الخشب القابل للفناء مما حال دون العثور على كثير من الثقافة المادية . ومع ذلك فإن المرء لا يملك إلا الإحساس بأن تجمع مادة الصيد فى آسيا الجنوبية الشرقية سمح بإتقان ثقافات جمع الطعام بدرجة أكبر مما تدل عليه الدلائل التى نملـكها فى الوقت الحاضر .

ويوقفنا جنوب شرقى آسيا أمام عدة مشكلات ، تشتمل إحداها على رمزيهـا الحاليين — الأرز — وجاموس الماء ، فبزراعة الأرز افتتح عصر جديد تماماً ، وأخذ عهد الصيد فى التضـاؤل . ونحن نعرف أن الأرز كان يزرع فى الصين منذ سنة ١٥٠٠ ق . م على الأقل ، ويرجح أن هذا الوقت كان قريباً أيضاً من عهد استئناس جاموس الماء ، فهل هذه السمات مستمدة من ثقافات كان قد استقر بها الأمر فعلا فى جنوب شرقى آسيا ؟ إننا لا نستطيع بناء على البراهين الراهنة إلا أن نقول إن هذا غير مرجح فقط ، وبالأحرى نستطيع أن نتدبر فـكرة

أن الأرز وجاموس الماء ليس كلاهما محلياً فى الصين الجنوبية (حتى نهر ينجتزى شمالا على الأقل) ، وكذلك فى الأقاليم الواقعة فى جنوبها . وعند ما حاول الفلاحون الصينيون زراعة الحبوب فى أقاليم ذات أجواء جنوبية ،فلا بد أنهم واجهوا صعوبات تمخض عنها اتجاههم إلى نوع آخر أكثر ملائمة وهو الأرز . ولعل هذه الخطوة الأولى علمتهم أن التوسع يمكن أن يتجه ناحية الجنوب . وقد أزاح قطع الأخشاب والحريق ، ونظام المدرجات ، والرى وغيرها ـ أزاح مناطق الغابات، وسكانها بالتبعية أيا كانت أجناسهم ، من الميلانيزيين أو من سكان الجزر الجنوبية أو المغول أو غيرهم .

والشىء الذى لا نعرفه هو ما قدمته آسيا الجنوبية الشرقية منذ عهد ثقافات الغابة إلى كل من الصين وعالم المحيط الهادى، تغطية الجسم بالثياب، والمساكن ذات الدعائم، والوشم ، والطقوس الدينية ، والزوارق ذات الشراع ، وقنص الحيوان ، وصيد السمك ، والصيد بالفخاخ ، وطرق الطهى وغيرها . فهى مجموعة كاملة من السمات التى يحتمل صدورها من آسيا الجنوبية الشرقية لتترك أثرها فى المناطق المجاورة ـ وهذه فى ذاتها لم تترك لرجل الآثار إلا قليلا من البقايا لـكى يتأكد فقط من مجرد وجودها. ومع ذلك فإن بعض هذه السمات على الأقل من المحتمل كثيراً أن تـكون مما قدمته شعوب الغابات قبل أن يغير أهل الزراعة نمط حياتهم ، وذلك بعد ألف عام تقريبا من بداية منافسة الأرز للحنطة على حدود سهل النهر الأصفر .

كوريا :

إن شبه جزيرة كوريا التى تبرز من أراضى السهوب ومنطقة الغابات فى منشوريا وتمتد فى بحر الصين بين اليابان والصين قد لعبت دوراً غامضاً بوصفها حلقة اتصال بين أراضى البلدين المتحضرين ، فى حين كانت تناضل فى سبيل بقائها . وبرغم جوارها للصين واليابان ، فإن الإشارات الواردة فى أقدم حكايات كوريا ، وفى الأساطير تجعلها تنتمى إلى آسيا الشمالية ، إذ تروى الأساطير أن أقدم حكام كوريا قد انحدر

من دب . ونقرأ فى هذه الحكايات عن المذهب الشامانى [1] وعن المنازل الغائر نصفها تحت الأرض ، وعن الفروسية وغير ذلك . ويلخص « أو سجود Osgood » هذه السمات فيما يلى .

« صنع الملابس من الحشائش، وتعميم النظام القبلى تحت قيادة الرؤساء مع اختلاف فى مدى السلطة ، وعبادة الروح الشامانية ، وعشق غير عادى للغناء والشراب والرقص فى المناسبات الدينية على الأقل » .

ومع ذلك فإن الكوريين القدامى كذلك كانوا يزاولون الزراعة وفقا للتقاليد التى كانوا قد تعلموها من « تان — جن » . ويرجع أن تكون هذه الزراعة قد بدأت أول الأمر بالحبوب ثم انتهت بعد قليل بزراعة الأرز .

وهناك رواية أخرى عن وزير آخر ملك من الشانج هاجر مع أتباعه من الصينيين إلى كوريا حيث أنشأ ثقافة صينية بوصفه مؤسس أسرة « كى — جا » .

ويتجلى انقسام كوريا فى قراءة هذه الأحاديث والروايات ، ففى الشمال الشرقى والشمال الغربى ، وفى كل من ساحليها ، وفى الجنوب الشرقى، والجنوب الغربى نقرأ عن مجموعات قليلة تعتمد كل منها على الزراعة وتربية الحيوان معا ، ولكنها مختلفة فى عاداتها . ومع أن الصينيين يعتبرونهم همجا فإن المرء ليقف فى كل حالة على مجتمعات معقدة ذات ثقافات مادية خالصة واسعة الانتشار . ويبدو كأن الخنزير والماشية، وكذلك الخيل كانت هى وحدها الحيوانات الأساسية المستأنسة عندهم ، فى حين أن الصيد كان عوناً فى غذائهم . كما يبدو كأن القتال كان يقوم بدور رئيسى فى مجتمعاتهم . ومع أن الاهتمام بصفات الشجاعة لم يكن إلا قليلا .

ولسوء الحظ أن التنقيب عن الآثار فى كوريا لم يضف فى الواقع شيئا على معلوماتنا عن تلك الأيام السحيقة القدم ، فنحن نعانى من الأمل الكاذب الذى نجده فى التقارير عن كومة من البقايا هنا ، أو عن مسكن فى غور من الأرض هنالك. ولكن ليست

(١) مذهب دينى فى سيبريا يعتقد أتباعه فى وجود صلة بينهم وبين معبودهم الروحى . (المترجم)

هناك دراسة منتظمة لهذه البقايا على وشك الظهور. أما بالنسبة للعصور المتأخرة ، فهناك استدلالات تزيد قليلا على سابقاتها تشتمل على قبور الروابى الشبيهة بقبور عهد ياماتو فى اليابان . وهنالك أيضا مستعمرة لولانج الصينية من عهد هان التى كشف عنها تنقيب اليابانيين وهى تمدنا ببراهين وافية للحكم على قوة الثقافة الصينية فى كوريا على عهد المسيح تقريباً .

وتشبه كوريا اليابان من حيث أرضها الجبلية. فسواحلها الغربية أكثر ملاءمة للزراعة من شواطئها الشرقية ذات الجروف، ووديان أنهارها أكثر اتساعا وأوفر عدداً منها فى اليابان . وهى من هذه الناحية ذات قوة انتاجية عالية جداً فى الزراعة . أما الشواطىء الغربية والجنوبية فهى متضرسة ذات نتوءات وشقوق أرضية مقوسة تدور حول الخلجان أو قد تصل إلى الجزر الصغيرة . ومثل هذه الشواطىء وجهت الكوريين إلى الساحل الشرقى حيث يقوم صيد السمك بدور جوهرى فى اقتصادهم . وواضح أن الكوريين كانوا بحارة مهرة وتجاراً طموحين وقد قرأنا عن ذلك فى التقارير المتأخرة عن المستعمرات التجارية الكورية على سواحل الصين .

وسطح كوريا يناظر سطح اليابان من حيث جغرافيته الإقليمية ، وتجانس ثقافتها غير المألوف . بيد أن هذا لا يصدق فى جميع الأحوال كما يبدو ذلك واضحاً من روايات السجلات التاريخية التى لا حصر لها عن الحروب بين مختلف الولايات، تلك الحرب التى تكون منها وضعها السياسى. ومع ذلك فإن اختلاط سمات آسيا الشمالية والصين ثم اليابان فيما بعد قد انتج ثقافة كورية ذات طابع خاص . ومن سوء الحظ أن علم الآثار قد عجز حتى الآن عن تقديم أدلة وافية عن جذور تلك الحضارة فى عصور ماقبل التاريخ .

منشوريا :

منشوريا إقليم آخر من تلك الأقاليم الفسيحة الواقعة فيما « وراء السور العظيم » وهى منطقة متباينة المعالم عبارة عن سهل عظيم مترام تحيط به جبال منخفضة . ويسهل

الوصول من جنوب منشوريا إلى سهل الصين الشمالى . ولكن يبدو من كلام « أوين لا تيمور » أن :

« السهول الغربية المكشوفة كانت أكثر ارتباطا بمنغوليامنها بالصين فجبالها الشرقية ذات الغابات ظلت قروناً تابعة لما يعرف الآن بشبه جزيرة كوريا ، وبراريها الجبلية ذات الغابات فى شمالها ، لم تكن معزولة عما يعرف الآن بسيبريا حتى القرن السابع عشر » .

وتدل البحوث الأثرية المحدودة التى أجريت إلى الآن فى منشوريا على أن هذه العلاقات الجغرافية لها ما يقابلها من التشابه الثقافى ، وقد ذكرنا فيما يتصل بجنوب منشوريا مراكز الخزف الملون فى « شا كو وتون » ، و « بى تزو وو » ، و « هنج ـ شان هو » (انظر فصل ٩) كما أن « المخزن » الذى يضم الأدوات الحجرية اليدوية المصقولة وآنية « لى » المثلثة القاعدة ، والأحجار المنحوتة وغيرها ـ له مقابل لما وجد بالأقاليم الزراعية فى الصين من بقايا العصر الحجرى الحديث . وإقليم شرق منشوريا الشبيهة بكوريا خال من الآثار القديمة . وفى الشمال على امتداد وادى نهر آمور عثر على الخزف ذى النقش الضفيرى ، والخزف المرقش أو المحزز الزخرفة ، مع بعض الأدوات الحجرية الناعمة أو المصقولة ، وتنتمى هذه المادة إلى كل من اليابان وسيبريا [١] .

أما الغرب فهو الذى تواجهنا فيه ثقافة واسعة الانتشار فى الصحراء ومناطق الحشائش الممتدة من منشوريا إلى طريق سنكيانج المسدود .

وتوجد بالقرب من تبتسيهار على سكة حديد الصين الشرقية القديمة مجموعة من أحواض أنهار صغيرة ذات مياه موسمية عادة ، فتكون على شكل بحيرات أو برك عند ما يصل منسوب مائها أدناه . وأشبه ما تكون مثل هذه المناطق بالواحات فى الأصقاع القاحلة الجافة ، وتجتذب هذه المناطق الطيور بنوع خاص ، فيعيش فيها الأوز ومختلف أنواع البط والغطاس بل وخطاف البحر والنورس ، كلها تتجمع حول هذه

(١) قام أوكلا دنيكوف حديثا ببعض أعمال التنقيب عن الآثار فى هذه المنطقة ، وسيقدم تقريره عنها فى المستقبل القريب .

البرك الضحلة لتتغذى بالحشرات والأسماك التى تظهر هنالك فى أعداد عجيبة ، وتجوس كذلك بأطراف مثل هذه البقاع حمر الوحش والوعول والغزلان .

وطبيعى أن تكون قد اجتذبت الإنسان القديم كميات الطعام الوفيرة التى تتمثل فى هذه الحيوانات التى تتجمع فى مواسم معينة ، فلا عجب أن نرى مراكز إقامة الصيادين على امتداد الشواطىء القديمة لهذه الحياض ، ولقد عصفت الرياح بمعظم هذه المراكز ، ودفن بعضها بفعل تحرك الكثبان الرملية فى بطء . وتبعثرت المصنوعات الحجرية عادة فيندر أن نجد تتابعاً منتظماً فى طبقات الأرض ، وبذلك تكون النتيجة اختلاط المواد الثقافية القديمة بالحديثة مما يجعل دراسة الطبقات أمراً عسيراً .

أما المركز القريب من « تستسيهار » الذى وصفه لوكاشكين فيمكن إعادة وصفه كلمة كلمة ، وتطبيقه على مساحة عدة أميال من أراضى آسيا الوسطى أينما صادفتنا هذه المراكز :

« عندما دخلت حوض النهر لأول مرة ، أدهشتنى وفرة القطع الخزفية المختلفة التى تفرش القاع وتلمع تحت ضوء الشمس . لقد كانت هناك كميات هائلة من العظام التى بيضتها الشمس . . عظام حيوانات وأسماك ، يرجح أنها بقايا طعام ، وكمية مطروحة من المصنوعات الحجرية وكثير من الأصداف المهشمة ، وهناك وجدت الأدوات الحجرية الآتية ، ومعظمها مصنوع من العقيق الأخضر والصوان والأردوازا السليكى : رءوس حراب خشنة النحت ، وأكثر من ٦٥ رأس سهم ، وخمسة مسامير على شكل مخاريز ، وعشر أدوات مصنوعة من قشور على شكل أوراق الشجر ، وأكثر من ٥٠ مجرفة متباينة الحجوم والأشكال إلى أقصى حد ، وقطع لأربعة معازق خشنة النحت ، وحجر عليه آثار شحذ سلاح آخر ، وأربع خرزات من أحجار مختلفة ، وثلاث قشور تشبه السكاكين (شظايا) ، وأكثر من ١٢٠ قشرة حادة » .

ووجدت بين مادة « تستسيهار » مجموعة من الأدوات الحجرية تمتاز بصغر حجمها ودقة صنعها ، ومن خصائصها أنها من قلب الصوان ، وهى كثيرة الزوايا ، إحدى حافتيها ملساء مشطوف منها قشور رقيقة ، وهى تنسب عادة إلى العصر الحجرى الوسيط.

منغوليا :

لقد أمدتنا دراسات « ن . نلسن » لترتيب الطبقات الأثرية فى صحراء جوبى عن بعض الثقافات فى هذه الصحراء المنغولية . ولما كان « نلسن » عضواً بالبعثة الآسيوية الثالثة لمتحف التاريخ الطبيعى الأمريكى ، فقد أوغل مع طائفة من علماء الحفريات والتاريخ الطبيعى والچيولوچيين فى منغول الخارجية ، وكانت البعثة بقيادة « ر . أندروز » . وقد كشفت البعثة عن رواسب حفرية غنية ترجع فى القدم إلى العصر الچيولوچى المتوسط فى مكان يطلق عليه « شابا راخ يسو » ، ويقع على بعد نحو ٧٠٠ ميل من كالجان (كما وجدت البعثة فى هذا المكان بيض الدينوصور المشهور [١]) . ويقع هذا المركز (أو المراكز) بواد صحراوى وزعت فيه تعرية الرياح البقايا النهرية الراسبة فى قاع الوادى وهنا فى وسط الرواسب القديمة الميتة المتيبسة الرملية (تكوين شابا راخ) وجدت بهذا الوادى صناعة الأدوات الحجرية الصغيرة الشبيهة بأدوات منشوريا ، وتشتمل على قلب حجر صغير ، وشظايا صوانية رقيقة ومجارف ، وكذلك أدوات غير مألوفة مثل المثاقيب والخاريز وغيرها ، كما وجد أيضا خرز فى قشرة بيضة نعامة منقرضة بل فى بيضة دينصور (ربما يدل هذا على اهتمام مبكر جداً بعلم الحفريات المتحجرة !) . وقد وجد هذا النوع من الصناعة فى قلب منغوليا وسنكيانج على امتداد الطريق الذى يبدأ من كالانج ، وكانت الأدوات مصنوعة على الأخص من بعض أنواع الحجر الصوانى ذى الشكل غير المنتظم ، ويطلق عليه اليشب (چسبر) الذى تصلح شظاياه الرقيقة لهذه الصناعات .

---

(١) مجموعة منقرضة من الزواحف الهائلة يبلغ طول الحيوان منها أحيانا نحو ثمانين قدما . (المترجم)

ووجدت بأحدث رواسب الـكـثبان عهداً ، وبين البقايا المتناثرة فى بقاع الوادى صناعات أخرى ذات صلة بها ، ومع أن هذه المصنوعات وجدت مصحوبة بأدوات من قلب الصوان وشظاياه وترجع إلى صناعات أقدم منها ، ولـكن الإضافات الجديدة من الخزف الضفيرى والحصيرى ورءوس سهام من العقيق الأبيض ، وبعض أدوات الطحن التى وجدت بالقرب من المساكن ، كل ذلك يدل على طور جديد لثقافة سكان « الـكـثبان » ، والواقع أن لدينا على الأرجح فى المـكان ثقافة صيد تنتمى ضمناً إلى حضارة العصر الحجرى الحديث ، بالرغم من عدم قيام الزراعة .

ويوحى الطور القديم فى « شابا راخ يوسو » ، بالصناعات الحجرية الدقيقة فى العصر الحجرى الوسيط بأوربا . ومع ذلك فإن علاقته المباشرة بسمات العصر الحجرى الحديث فى الطور الأخير توحى بأن العصر الحجرى الوسيط المنغولى ربما كان امتداداً لذلك العصر بأوربا لا معاصراً له .

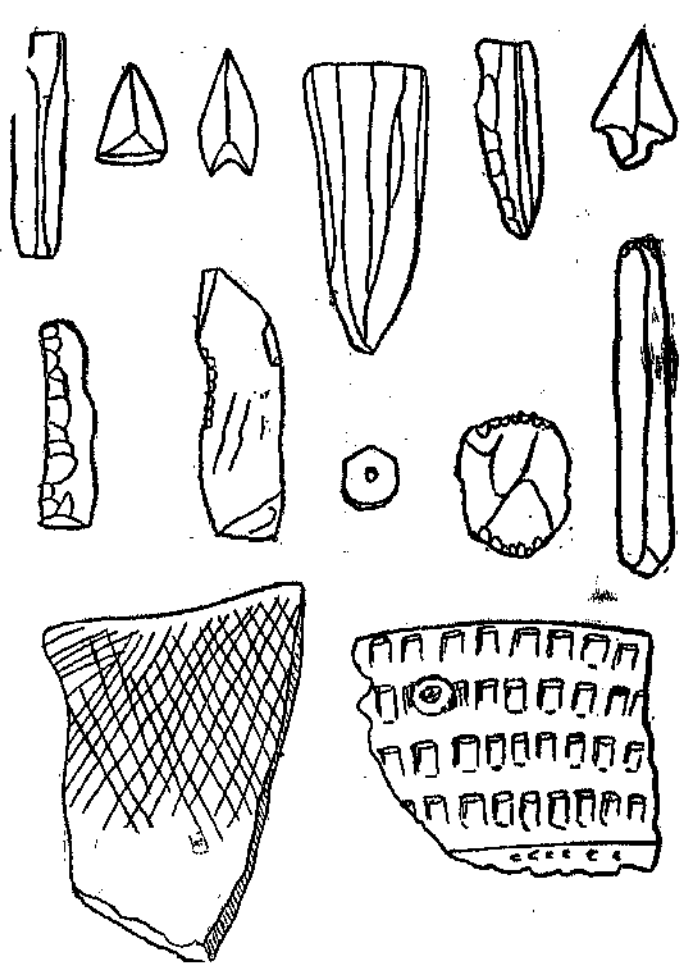
والشكل المميز لصناعات شرقى آسيا الوسطى هو تلك العلاقة الظاهرة بين الأدوات الحجرية والخزف ، وبين ثقافات سيبريا . ويقابل ذلك بقايا لا تحمل شيئاً تقريباً من المشابهة لبقايا العصر الحجرى الحديث فى الصين . ويتضح إذن أن العلاقات الثقافية لصيد السمك بآسيا الشمالية تدل على اتساع المنطقة التى اتخذت جسراً عبرت عليه الحضارات من مواطنها الأصلية بأقصى الغرب . أما فيما يتصل بتاريخها فى أوربا فمن المرجح أنها بدأت فى الانتشار شرقا فيما بعد سنة ١٠٫٠٠٠ ق.م ويرجح أنها لم تصل إلى شرقى آسيا الوسطى إلى ما بعد سنة ٦٠٠٠ ق . م . بعد أن نمت وتغيرت واكتسبت الصفات المحلية بشتى الطرق وفى مختلف الأماكن . ويحتمل أن عالم الصحارى بآسيا الوسطى كان إلى حد ما عقبة أيسر اجتيازاً ، إذ أن مؤثرات العصر الجليدى الأخير كانت لا تزال تسمح لقدر من الرطوبة أوفر منه فى الوقت الحاضر بالوصول إلى قلب آسيا ، ولـكن من المحتمل أن حالة الجفاف كانت مسيطرة ، وأن عدد الواحات ومساحاتها كان آخذاً فى التناقص ، كما يحتمل أنه عندما اتخذت سمات

العصر الحجرى الحديث طريقها إلى آسيا الوسطى فى نحو سنة ٣٠٠٠ ق. م ، وربما كانت فى ذلك الحين قد انتهت تقريباً طاقة الأرض على إعالة جماعات أكثر من تلك الجماعات القليلة الهائمة من الصيادين الذين ينزلون بها فى مواسم الصيد . كما يرجح أن صيادى العصر الحجرى الحديث ظلوا حتى مجىء عصر البرونز ، كما أن البدو الفرسان كانوا قد نبذوا طريقة حياتهم القدرية التى كانوا يحيونها .

وربما يكون بعض هؤلاء قد تحركوا جنوباً وأوغلوا فى الأقاليم الخصيبة بشمال الصين حيث امتزجوا وتشابهوا . ويجوز أيضاً أن بعضهم حافظوا على شخصيتهم ، فبعد أن اختاروا الزراعة تدريجياً أصبحوا من الولايات المتبربرة التى ذكرتها القصص الصينية القديمة . ومهما كانت الحال فالدليل الأثرى على هذه الأقطار البعيدة فى آسيا الوسطى لايزال غير كاف لأكثر من الإيحاء بوجود حياة بدائية . ولكن ليس هناك كبير شك فى وجود حياة أناس رحل متجولين ، أما القول بوجود نوع من التحرك لثقافاتهم ناحية الجنوب ، فيبدو أنه غير مستساغ لأنه لو كانت الافتراضات الخاصة بأصول المنغوليين بآسيا الشمالية صحيحة(انظر فصل ٧) لكنا نتوقع أن نجد دليلاً على التحرك جنوباً فى أثناء تحرك أسلاف الصينيين نحو موطنهم الأصلى المرتقب . وينبغى أن نفكر فى أن سكان الصحراء هؤلاء ، لم يكونوا إلا مظهراً واحداً من مظاهر هذه الحركة ، كما قد تكون حضارات « أردس » فى العصر الحجرى القديم مظهراً آخر له أقدم منه عهداً ونعود للقول مرة أخرى : « إن المزيد من أعمال الحفر والتنقيب الأثرى تتمخض عنه دائماً أدلة جديدة » .

شرقى سيبريا :

يقع إقليم سيبريا الملىء بالغابات فى شمال أرض الحشائش الصحراوى بآسيا الوسطى حيث توجد أسس أخرى مختلفة لطريقة الحياة التى تهىء قسطاً أوفر من الاستقرار الاقتصادى . وتشبه الغابة المدارية تلك الغابات الشمالية التى تضم وفرة من الحيوانات

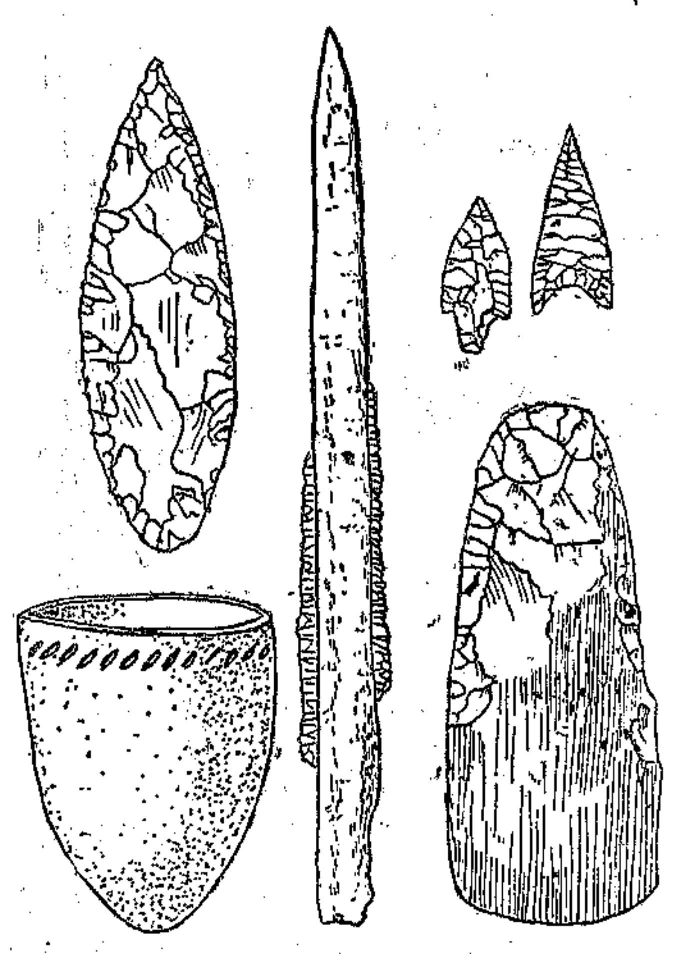


(شكل ٢١) — آثار منغولية من عصر ما قبل التاريخ
وجدت فى شاباراخ — أوسو .
من (المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى)

والنباتات المدارية ذات القيمة الغذائية للانسان . ومع ذلك فإن العدد الـكبير من الأنهار ومجارى المياه والبحيرات بإقليم الغابات الشمالى فيه من مصادر الأسماك ما يبدو معه أنه اجتذب الإنسان منذ ألوف السنين . ومن بين هذه البحيرات بحيرة بايكال فى شمال خط عرض ٥٠° . وأعظم رافديها هما نهر سيكنجا ونهر أنجارا . وقد دلت هذه البحيرة على أنها منطقة غنية من الناحية الأثرية . ويرجع الفضل فى ذلك قبل كل شىء إلى أ كلادنكوف الروسى الذى قدم عدداً كبيراً من الأدلة الأثرية مستخرجة

من هذه المنطقة . وقد بلغت كثرتها فى الواقع حداً يجعل أكلادنكوف قادراً على عمل ترتيب زمنى مقارن لحضارات سيبريا القديمة يمكن الاعتماد عليه .(١)

ويطلق على أقدم هذه الأطوار اسم خنسكايا . ويتمثل فيها نسق ضئيل من الأدوات يضم بعض النصال الطويلة الرفيعة المصنوعة من الأردواز والأسنة العظمية

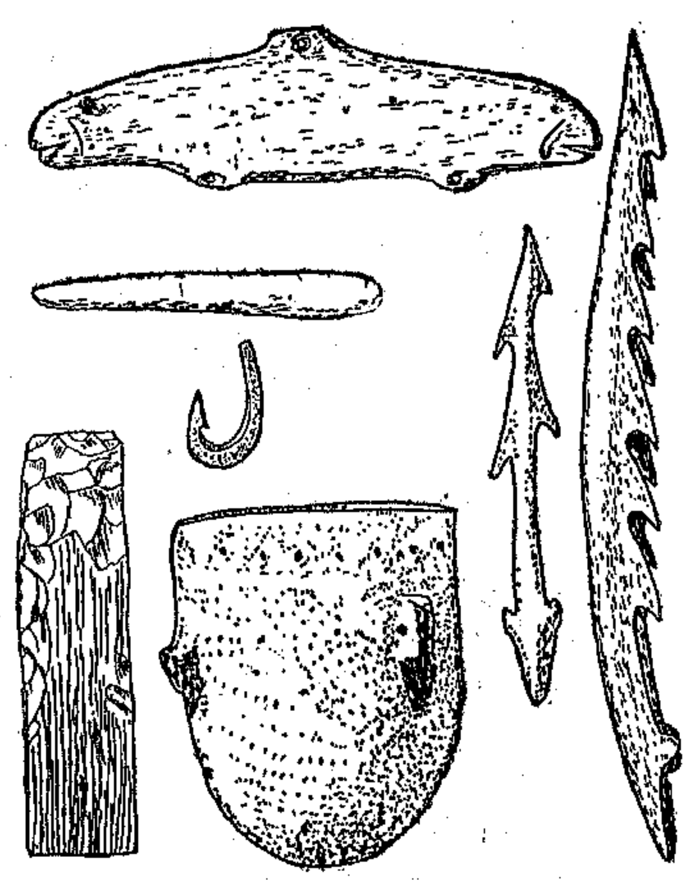


شكل ٢٢ — أشياء من طور إيسا كوفو
(عن أوكلادنيكوف)

(١) وهو يعتمد قبل كل شيء على نوع من التاريخ للترتيب الزمنى ، على القبور التى وجدت بمنطقة أنجارا . كما توجد بعض الأدلة على ترتيب الطبقات الأرضية مستمدة من مراكز السكنى : أولانخادا وغيرها .

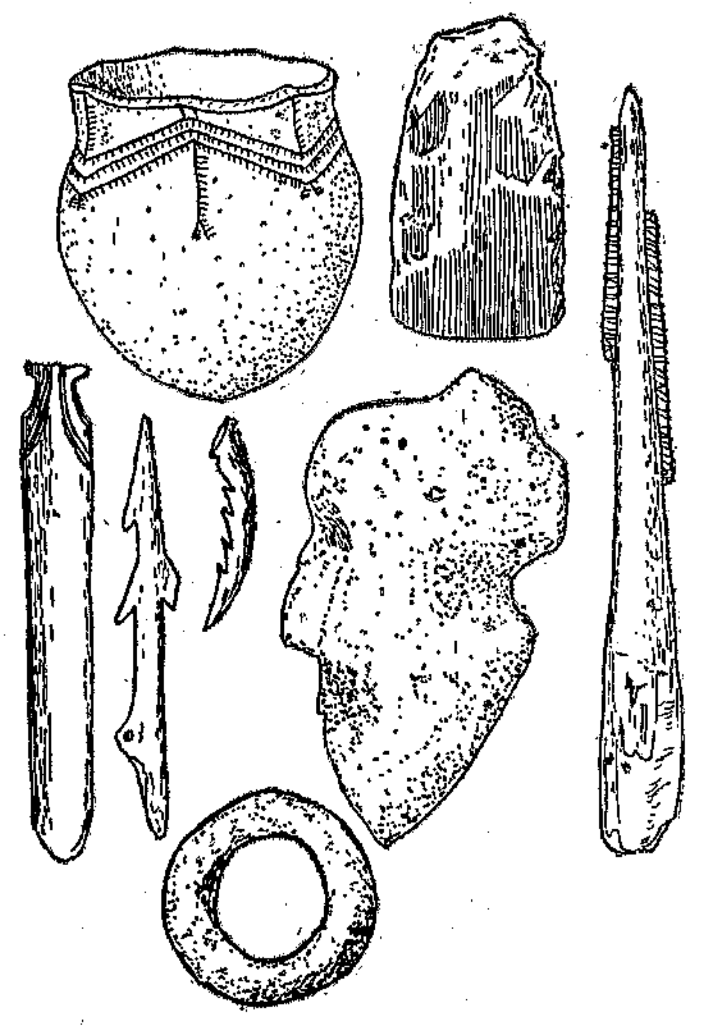
البسيطة . كما يوجد عدد من الألواح الرقيقة والمجارف والسكاكين واضح أنها مصنوعة من قلب الصوان . ومن أهم مجموعات المصنوعات الحجرية مجموعة تحتوى على رءوس سهام من ذات العاتق الواحد أعيد صقل أجزاء منها .

ويسمى الطور التالى « إيساكوفو » وهو يتميز بظهور الخزف والأدوات الحجرية المنحوتة . ويتكون الخزف من أوان خشنة الصنعة قمعية الشكل ذات زخارف شبكية مطبوعة ، أو الزخارف التكرارية فى بعض الأحيان . وكانت رءوس الرماح العظمية مع الشفرات الحجرية المصقولة المعاد صقل حافتيها — كانت هذه جميعاً تكون أسلحة هائلة ، وتثبت نصال السهام ذات القاعدة المفرغة جودة



شكل ٢٣ — أشياء من سيروفو
(عن أوكلادنيكوف)

صناعات إيسا كوڤو الحجرية . كما يوجد أحياناً رءوس سهام ذات عنق ولكن هذا النوع شاع استعماله كثيراً فى الطور التالى المسمى « سيروڤو » ، وتعد الفئوس الحجرية المنحوتة نحتاً ناقصاً ، والبرميل ذو القاعدة المخروطية ، ذات أهمية باعتبارها أمثلة على كثرة استعمال المصنوعات الحجرية فى العصر الحجرى الحديث فى شرق آسيا .



شكل ٧٤ — أشياء من طور كيتوى
(عن أو كلادنيكوف)

ويتمثل طور سيروڤو فى الخزف الكروى المدبب المنشارى النقشى ، والحلية

الزخرفية . كما ظهرت أيضاً المقابض الحلقية الشكل . وتشيع السنان الجميلة الرمحية الشكل ، كما أن القوس ذات المسند العظمى كانت من الأسلحة البارزة فى ذلك العهد — أما أهم النماذج جميعاً فهى الصنارة المسننة المصنوعة من العظم ، وتماثيل الأسماك المصنوعة من الحجر . وقد عثر أيضاً على دبابيس عظمية وخرز وبعض تماثيل الحيوانات توحى بأن الصيد كان لا يزال يقوم بدور جوهرى فى حياة أهل سيروفو .

أما الطور التالى فكان طور كيتوى الذى يمثل قبل كل شىء الثقافة السمكية التى احتفظت بكثير من معالم طور سيروفو السابق (الأدوات الحجرية المصقولة والصنانير المنشارية والرماح العظمية) ولكنه يضيف إليها صنانير صيد السمك المنشارية بمقادير كبيرة . أما الخزف فزخرف بنقوش بسيطة مسننة أو برسوم تكرارية تكون عادة أفقية حول المنطقة التى تلى الحافة مباشرة (مع وجود صناعات زخرفية أخرى) .والشىء الهام فى ذلك هو أن كلا من المعازق المصنوعة من عظمة لوح الأيل الأمريكى ، وساق السهم الملسنة وأدوات تقويم قناة الرمح الشائعة بأمريكا الشمالية وجدت فى طور كيتوى

وقد بلغت ثقافات منطقة بايكال فى عصور ما قبل التأريخ غايتها فى عصر جلاز كوفو الذى شهد نمو مجتمعات كبيرة من قناصة الحيوان وصيادى السمك. وتشتمل الثقافة المادية فى هذا العهد على صنانير السمك البرونزية والسكاكين وأشياء أجنبية مثل الخواتم اليشبية والأساور والعاج المنقوش والتماثيل العظمية الصغيرة .ويصف تقرير عصر جلا زكوفو القبور التى كانوا يضعون فيها الموتى ليستريحوا وهم فى كامل لباسهم من الخرز والجلد المزخرف وأزياء الشعر (بما فى ذلك لباس الرأس) . وكان لصبغ العظام بالمغرة الحمراء دلالة طقسية ـ وكان يحدث هذا أيضا فى طور كيتوى . ويوضع الهيكل العظمى موازيا للنهر والرأس إلى جهة المصب . هذا بالإضافة إلى هيئة الرقدة (مثنية أو ممددة أو جالسة) مما يدل على اهتمام دينى أو سحرى بمستقبل الميت .

ويبدو أن صناعة الخشب فى عصر جلا سكوفو كانت ذات مركز رئيسى وذلك لكثرة شيوع أدوات تقشير الأشجار والفئوس .

وعلاقات الترتيب الزمنى بتسلسل عصر بايكال محددة فى العهود المتأخرة، وأقل تحديداً بالنسبة للعهود القديمة . والدليل على قيام صناعة الأدوات الحجرية الصغيرة فى العصر الحجرى القديم الأعلى بسيبريا (وخاصة فى بوادى ينسى) يشير إلى احتمال وجود أصل لهذه الصناعة أقدم من خنسكايا وإيسا كوڤو وغيرها. وفى نفس الوقت تدل سمات كالنصل ذى العاتق الواحد على بعض المؤثرات الغربية . ويغلب على الظن كثيرا أن الخزف والحجر المنحوت مقتبسان من الغرب بل يحتمل أنهما ينتميان إلى ثقافات العصر الحجرى الوسيط بمنطقة الأورال. أما الخواتم اليشمية فلاشك أنها توحى بخواتم الصين وخاصة المستخرجة من كنسو (پان ـ شان) . وبناء على ذلك يوجد مايؤيد الترتيب الزمني الذى وضعه أوكلادنيكوف والذى افترضه على الوجه التالى .

خنسكايا .	نحو سنة	٥٠٠٠ ـ ٤٠٠٠	ق . م
إيسا كوفا .	نحو سنة	٤٠٠٠ ـ ٣٠٠٠	ق . م
سيروڤو .	نحو سنة	٣٠٠٠ ـ ٢٥٠٠	ق . م
كيتوى .	نحو سنة	٢٥٠٠ ـ ١٧٠٠	ق . م
جلاز كوڤو.	نحو سنة	١٧٠٠ ـ ١٢٠٠	ق . م

ويمكننا ملاحظة أن عصر جلازكوڤو يكتنف الصين على عهد أسرة شانج، الأمر الذى يدل على أن الثقافة السيبيرية تأخرت إلى حد ما فى استخدام المعادن . ومع ذلك فإنه لا يوجد بالصيد ما يقابل الطور السابق لصناعة الخزف فى طبقة خنسكايا، ولا مايقابل طوراً قديما مثل طور ايزا كوڤو، وطور سيروڤو . ومن الأهمية بمكان أيضا أن رءوس السهام المنغولية لم توجد إلا بظهور مايظن أنه أزمنة سيروڤو . أما فيما يتصل بترتيب شابارانج فمن المحتمل أن المقصود به ظهور الخزف المزخرف على غرار زخرفة النسيج على تخوم الصين إبان الألف الثالثة قبل الميلاد .

أما ترتيب منطقة بحيرة بايكال الزمنى فهو مسجل خير تسجيل بمنطقة سيبريا .

فإلى الغرب فى إقليم منوسنسك بأعلى نهر ينسى يبدو ترتيب عصر البرونز واضحاً بفضل أعمال التنقيب التى قام بها تيلوهوف. أما ترتيب ثقافات أفاناسيفو واندرو نوفو وكاراسك وكورجان فهى أطوار فى تقدم ثقافات الرعى المتنقلة التى لا تنفصل تماما عن اقتصاديات الغابات الشمالية التى تقوم على القنص وصيد السمك ، ولا عن طرق صناعة الخزف والأدوات الحجرية ، وأنماطها التى يتضح أنها تنتمى إلى الشرق الأقصى . ومع ذلك فهذه بوجه عام قد انقرضت . مثل معدات الخيل واستعمال البرونز بواسطة الرعاة الذين كانت علاقاتهم أقوى بأرض الحشائش والصحراوات وقد انتشر هؤلاء الفرسان المتجولون على الأرجح فى الشرق والجنوب فى وقت مابعد سنة ١٥٠٠ ق . م واخذوا فى الضغط السياسى والحربى الذى أدى فى آخر الأمر إلى تشييد سور الصين العظيم .

كما أن نهر لينا يجرى لقرابة ثلاثة آلاف ميل إلى الشمال قبل أن يصب فى المحيط المتجمد الشمالى . ولما كان منبعه قريبا من بحيرة بايكال فلا عجب إذا وجدنا ما يطابق تسلسل الأطوار الثقافية فى بايكال بين الثقافات السابقة على العصر التاريخى التى وجدت على امتداد مجرى النهر كله . وهذه الثقافات أقل تقدماً إلى حد ما ، من ثقافة طور بايكال المعاصر لها . ولا تكاد تستوى معها . ويبدو بوجه عام أنها كانت تهتم بالقنص ، بالإضافة إلى الكميات المتزايدة من السمك فى الأطوار التالية .

وقد أمدتنا مراكز منطقة نهر لينا الأدنى ، على ضاف بحيرة يوليا Uolba ببعض التفصيلات عن الثقافات فى أقصى الشمال ، وقد وجد قبران ينتميان إلى الطور الأول من حضارة طور يوليا (وربما إلى طور أقدم من ذلك) عثر فيهما على دفنات استخدمت فيها المغرة الحمراء وبعض أدوات حجرية (أقراص رقيقة وسنان ذات مقابض) توحى (بناء على رأى تشارد chard) بأنها من مواد شبيهة بمواد منطقة بحيرة أوينجا بشمال غربى روسيا (ترجع إلى سنة ٢٠٠٠ ق.م تقريباً) ، كما وجد أيضاً بيت غائر يرجع إلى طور يوليا القديم . ووجدت صناعة الأدوات الحجرية الصغيرة

بالإضافة إلى أنواع مختلفة من الألواح والأزاميل المنحنية والشفرات . وواضح أن هذه الأخيرة كانت تستخدم كشفرات ثانوية تركب على مقبض قضيب من العظم أو على رمح . ويرجح عدم وجود خزف . ويردد تشارد رأى أوكلادنكوف حين يلخص مادة يولبا القديمة .

« يبدو من جميع المظاهر أن التعقيد الذى يتمثل فى الطبقات الدنيا من بحيرة يولبا ، يمثل أقدم آثار حرف الإنسان التى عثر عليها حتى اليوم فى شمال شرق سيبريا » .

ويطلق على الطور المتأخر لمادة بحيرة يولبا « العصر الحجرى الحديث » وهو يشتمل على الخزف والأشياء المصنوعة من الحجر والعظام ، ويوحى بعضها - إلى حد كبير - بأنها تنتمى إلى طور كيتوى . وفى جميع الأحوال كانت الأدوات الحجرية هى التى صاحبت فى الأصل عهد القنص .

ويظهر أن مادة « لينا » الثقافية امتدت شرقاً إلى نهر كوليما ثم اتجهت إلى التسرب إلى الخارج (١) .

ولقد أدت وفرة الثدييات البحرية ، كبقر البحر وعجل البحر من منطقة نهر كوليما إلى شبه جزيرة تشوكتشى وساحل المحيط الهادى — أدت إلى نشر طريقة من طرق الصيد التى أتقنها الإسكيمو فيما بعد . وكان الرمح الرائش والزحافة (ولا يزالان) الطابع المميز لثقافة الإسكيمو . فأنت تجد هاتين السمتين تتطوران باختلاف الزمان والمكان من أقدم مراكز الإسكيمو إلى أحدثها عهداً ، ولكنهما بقيتا دائماً رمزاً للاعتماد الاقتصادى وميزة من مميزات المناطق المتجمدة .

ومن الواضح أن الثدييات البحرية غربى نهر كوليما قد اختفت فى الواقع ، فى حين

(١) لاشك أن الدراسة الأركيولوجية لهذه الأقاليم لم تكن واسعة النطاق ولا يزال المجال متسعا لمزيد من أعمال المسح والتنقيب .

أنها موفورة فى الشرق عبر بحر بيرنج وعلى امتداد شواطىء المحيط المتجمد الشمالى بأمريكا . وواضح أيضاً أنه ربما كان لدى الروس مستخرج من مراكز الإسكيمو القديمة العهد (أو كفك) على أن جانباً كبيراً من اقتصادهم كان إلى ذلك الحين يعتمد على الصيد اليدوى ، فى حين أنه لا يعرف مثل هذا الطور بأمريكا الشمالية . وهذا النوع من الأدلة ، بالإضافة إلى مقارنة أنواع خاصة من الأدوات بمثيلاتها فى وادى نهر لينا ، وطباع الإسكيمو المغوليين ، قد يدل ذلك على أن أصل الإسكيمو كان آسيويا ، وأنه كان من الطبيعى أن ينتشر الإسكيمو ناحية الشرق ، وأن يتصلوا عن قرب بموطن الثدييات البحرية . ولذا فإنه يمكن أن يكون قد حدث انتقال إلى أمريكا الشمالية . والواقع أن هناك تشابها بين ثقافات الإسكيمو فى كل من جانبى بوغاز بيرنج (أو كفك وبيرنك وبحر بيرنج القديم) .

وشواطىء آسيا ، من شمال كوريا حتى مضيق بيرنج لم تعرف فى الواقع معرفة كافية . وهناك بطبيعة الحال مراكز للاسكيمو فى شبه جزيرة تشوكتشى . وفى كامتشادال توجد أوان عليها رسوم تحاكى رسوم النسيج ، وأدوات حجرية من رقائق عريضة وأشياء حجرية منحوتة ليست أقدم عهداً بكثير من مواد آمور ، وبالتالى من مواد منطقة بحيرة بايكال . ومهما كانت الحال ، فإن فى جميع أنحاء هذا الإقليم الفسيح أدلة كافية على تقدم ثقافتى القنص وصيد الأسماك ، وكما أن العالم الحيوى « لهاتين الثقافتين لم يكن يختلف عن الثقافات التى تلتها فى الأزمنة المتأخرة مثل ثقافات تنجوز وكورياك ، وتشوكتشى وغيرها .

ومنطقة سيبريا أراض فسيحة متسعة ، ويبلغ اتساعها حداً كبيراً يجعل الدليل الأثرى ضئيلا لا يكاد يلقى ضوءاً كافياً على تاريخها الثقافى .. ومع ذلك فتوجد قرائن كافية تدل على بعض خصائص بارزة ، فمن ذلك نزعة الشعوب القديمة حتى تلك التى كانت تعتمد اعتماداً كاملا على القنص والصيد إلى التجمع بالقرب من موارد المياه ، سواء أكانت أنهاراً أم شواطىء بحار ، وكان لهذه النزعة بطبيعة الحال بعض الأصول

فى طبيعة الحياة البحرية بالمناطق الشمالية وحياة حيوان التندرا ، فالحياة بالقرب من الماء أدت دون شك إلى ازدياد الاعتماد على الأسماك أو الثدييات البحرية ، ويرجح أن يكون ذلك قد حفز بدوره على زيادة حالة الاستقرار التى سمحت بقيام مجتمعات أكثر عدداً وثقافات متقدمة (عهد ثقافات فترة جلاز كوفو) . واتجه هذا الاحتلال الواسع المدى إلى استقرار دائم إلى حدٍ ما على نظام سكان الساحل الشمالى الشرقى لكولمبيا البريطانية . وهناك قامت تجارة فى مواد غير محلية ، مثل الأحجار الكريمة أو المعدن التى يرجح أنها أدت إلى نوع من الاتصال غير المباشر بالأقاليم البعيدة مثل الصين أو أقاليم الأورال .

وبالرغم من هذا الإحكام الثقافى ـ ويجب أن لا نتناسى هنا ـ لجزء من هذه الثقافات ـ ما يحتمل وجوده من سمات مشابهة للتعقيدات الشامانية فى المجموعات السيبيرية المتأخرة بالإضافة إلى جميع الأدوات المستخدمة (مثل الطبول والجلاجل والغيبوبة والتنبوء وغيرها) ، فإن حياة الناس ظلت حياة تعتمد على جمع الطعام [1].

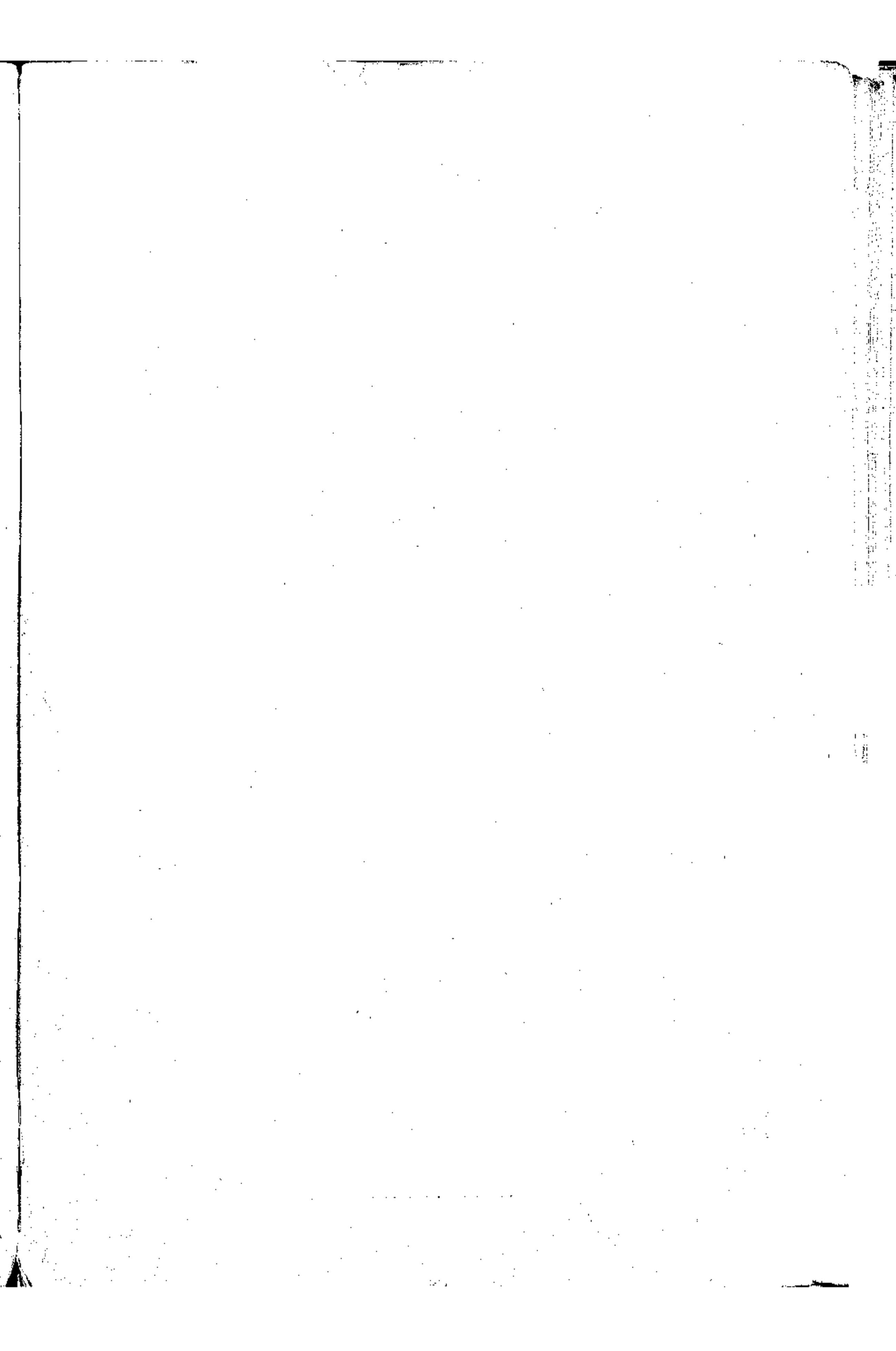
والبحث المستمر الذى لا ينقطع عن مصادر الطعام لا يعلل لنا سبب اختلاف التكيف فحسب ، (صيد الثدييات البحرية والرنة والرعى ، وصيد الطيور والسمك وغير ذلك) . بل هو يعلل أيضاً انتشار السمات من روسيا الأوربية إلى العالم الجديد ، فسمات مثل أنواع المقذوفات والفخار ، وربما الأشياء المعدنية والشامانية والآلات الموسيقية والزحافات الجليدية ـ هذه السمات كلها وصلت أمريكا الشمالية وانتشرت انتشاراً واسع المدى ، وقد أشار « تولستوى » وغيره إلى كثير من هذه السمات ، إذ لا جدل فى أن الثقافات الهندية بشمال أمريكا تدين بالكثير لثقافات آسيا ، ويمكن أن يكون صحيحاً ما أشار إليه « تولستوى » من أن بعض هذه السمات قد أكسبها العالم الجديد طابعاً خاصاً ، ثم عادت فأخذت طريقها مرة أخرى إلى آسيا .

---

(١) يحتمل عدم ظهور الزراعة فى هذه الأقاليم حتى السنوات الألف الأولى قبل الميلاد .

ولقد لاحظ دارسو مشكلات العلاقات بين العالم القديم والعالم الجديد وجوهاً من التشابه فى الأساليب الفنية وصناعة الأدوات الحجرية فى الصين وسيبريا من ناحية ومثيلاتها من ثقافات العالم الجديد كثقافات الإسكيمو « الإيبوتاك » وهنود الشاطىء الشمالى الغربى من الناحية الأخرى ، فيوجد إذن كما رأينا تشابه مباشر بين ثقافات الإسكيمو فى كل من المنطقتين ، وبالتالى فإن السمات المشتركة التى تكاد أن تكون محددة كالفخار المنقوش وأنواع القذائف ، كل هذه الأشياء فى كل من سيبريا وآسيا الوسطى وكندا وشمال أمريكا (وخاصة فى السهول العظمى الشمالية وأراضى الغابات الشرقية ووادى المسيسبى) تدل على وحدة الأصول . ولا نستطيع إزاء مثل هذه الأدلة المتراكمة إلا أن نحس بوحدة الثقافة فى عالم المحيط الهادى الشمالى ، وبضروب التقدم التى أحرزها الشرق الآسيوى وحملها إلى العالم الجديد دون أن يعتريها تغير فى بعض الأحيان . وفى شمال أمريكا تصطبغ بطابعها الخاص وفقاً للموقع وطبيعة الأرض ، ولكن يظهر حقيقة أنها لم تفقد ما يدل على أصولها مطلقاً .

إن كشف العالم الجديد بواسطة شعوب آسيوية ، ومواءمة ثقافاتهم لمقتضيات هذه البلاد الجديدة ، وأجيال الناس الذين خطوا وحدهم خطوات موفقة نحو تعمير القارة (الأمريكية) ، والذين ظلوا حتى الآن (إلى حد ما على الأقل) محافظين على تقاليد وأساليب الحياة التى ورثوها عن أجدادهم الآسيويين ، وربما الأوربيين القدامى إنها قصة لم يدون منها إلا القليل إذا ما استثنينا تلك البقايا الأثرية ، وإن كانت هذه القصة أكثر إمعاناً فى الخيال فى طريقة عرضها ، من قصة ذلك الرجل من جنوى الذى استولى على خيال (وجواهر) ملكة إسبانية ثم أبحر غرباً ! إنه كولمبس الذى جدّ فى البحث عن الصين (كاتاى) وعثر عليها بطريقة ما . أما شعوب العالم الجديد الأصليون ، فكانوا قد عرفوا الصين — بمعناها الأوسع — منذ أزمنة بعيدة سابقة لعام ١٤٩٢ (الذى اكتشف فيه كولمبس أمريكا) وإن الأدلة الأثرية لتثبت هذه المعرفة القديمة .



الفهرس

صفحة

مطبعة دار التأليف
٨ شارع يعقوب بالمالية بمصر تليفون : ٢١٨٢٥

